# الجانب الثقافي في الإسلام

## THE CULTURAL SIDE OF ISLAM

من تراث المسلمين الإنجليز

**بتصريح من مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف**

**محاضرات ألقاها الداعية البريطاني محمد مارماديوك بيكثال**

**بمدينة مَدراس الهندية في يناير 1927م**

**الطبعة الثانية**

| | |
|---|---|
| اســـــم الكتـــــاب: | الجـــانب الثقافي في الإســـــلام |
| التـــأليـــــــــــف: | محمـــد مارماديـــــوك بيكثال |
| ترجمـــة وتحقيـــــق: | محمـــد مصـــطفى الســـــاكـت |
| تقديـــم الشيخ الدكتور: | محمد يحيى الكتــاني الأزهـــري |
| تصميـــم الغـــــلاف: | محمـــــد عــــادل (بيـــــدو) |
| رقـــــم الإيــــــداع: | 2828 / 2021 |
| التــرقيم الـــــدولي: | 978-977-835-234-4 |
| النـــــاشـــــــــر: | دار زحمة كتاب للنشر والتوزيع |

15 ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر

هذه ترجمة كاملة لكتاب:

The Cultural Side of Islam

By: Muhammad Marmaduke Pickthall

الصادر عن:

The Hilal Press, Tirunelveli, 1937

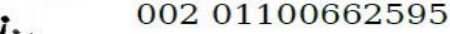


Facebook دار زحمة كتاب للنشر

Email za7ma-kotab@hotmail.com

Tel 002 01205100596

002 01100662595



# الجانب الثقافي في الإسلام


تأليف:

محمد مارماديوك بيكثال

(1875م: 1936م)

ترجمة وتحقيق:

محمد مصطفى السَّاكت

تقديم: فضيلة الشَّيخ العلامة الدكتور

محمد يحيى الكتاني الأزهري

من علماء الجامع الأزهر الشريف





الطبعة الثانية

**البرنامج الوطني لدار الكتب المصرية**
**الفهرسة أثناء النشر (بطاقة فهرسة)**
**إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية**
**إدارة الشئون الفنية**

بيكثال؛ محمد مارماديوك

الجانب الثقافي في الإسلام/ تأليف: محمد مارماديوك بيكثال؛ ترجمة وتحقيق: محمد مصطفى الساكت؛ تقديم: محمد يحيى الكتاني الأزهري، القاهرة: دار زحمة كُتَّاب للنشر والتوزيع، 2021

1- الثقافة

2- الإسلام

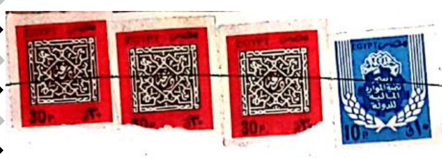
(1) الساكت، محمد مصطفى (مترجم)

(2) الكتاني الأزهري، محمد يحيى (مقدم)

(3) العنوان

رقم الإيداع: 2021 / 2828

الترقيم الدولي: 978-977-835-234-4





نموذج رقم [ ١٧ ]

٢٥١٦٩
٢٥

AL – Azhar
Islamic Research Academy
General department
For research , writing & translation

مجمع البحوث الإسلامية
الإدارة العامة للبحوث والتأليف والترجمة
إدارة الكتب العربية

السيد / محمد مصطفى محمد إبراهيم الساكت

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. وبعد ،

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب الجانب الثقافي في الإسلام.

باللغة العربية تأليف/ محمد مارماديوك بيكثال ترجمة وتحقيق/ محمد مصطفى محمد إبراهيم عدد الصفحات ٢٠٤ صفحة

نفيد بأنه ليس بالكتاب ما يمنع من نشره ، وبأنه لا مانع من طبعه ونشره على نفقتكم الخاصة، وفي حالة الزيادة أو النقصان يعتبر التصريح لاغياً .

مع التأكيد على ضرورة العناية التامة بكتابة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والالتزام بتسليم (٥) نسخ لمكتبة الأزهر الشريف بعد الطبع .

علماً بأن هذه الموافقة مقصورة على الطبعة الأولى للكتاب التي أعطيت عنها ، وأن هذه الموافقة يزول أثرها ، ويتعين تجديدها على أي طبعة جديدة تطبع بخلاف الطبعة الأولى أو بمرور خمس سنوات من تاريخ تصريح تلك الطبعة أيهما أقرب ، ومن ثم فإنه لا يجوز إرفاقها بأي طبعة أخرى ، التزاماً بأحكام القانون التي يتعين الالتزام بها .

والله تبارك وتعالى من وراء القصد ،،
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

تحريراً في : ٢٧ رمضان / ١٤٤٢هـ
الموافق : ٢٠٢١/٥/٩م

فهد فتحي أمين

المختص
( فهد فتحي )

مدير عام
الإدارة العامة للبحوث والتأليف والترجمة
( )

الأمين المساعد للثقافة الإسلامية
( محمود الهواري )
٢٠٢١/٥/١٠

يعتمد ،

الأمين العام
لمجمع البحوث الإسلامية
( )
أ.د/ نظير محمد عياد



٥٢٨٢٩

# تقديم الدكتور محمد يحيى الكتاني الأزهري

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ...

ما زلتُ أذكرُ هذه الليلة التي بِتُّ فيها بأروقة جامعة البركات – عليكرة – الهند وذلك تلبية لدعوة كريمة لإلقاء محاضرة على الطلبة المقيمين بالجامعة والدارسين بها. كانت ليلة تأمل وفكر، ما هي أهم الأفكار التي سيطرحها الطلبة الهنود؟ وما هي الأسئلة المتوقعة منهم في المحاضرة؟ إنهم يجتمعون معنا تحت مظلة الإسلام، لا شك في هذا، ولكنهم يختلفون معنا في عاداتهم وتقاليدهم التي ساهمت في تكوين ثقافة خاصة بهم.

إن محاضرتي ستكون باللغة العربية، فهل سيفهم الطلبة الهنود لغتي؟ وإذا فهموها هل سأستطيع توصيل فكرتي إليهم؟ والتي تتمثل في قضية (التعامل مع الشبهات المثارة حول الإسلام). كانت الليلة مفعمة بالأفكار، حتى أصبح الصباح، وبدأت المحاضرة. لقد تشابهت الأفكار التي استمعتُ إليها من الطلاب الهنود بالأفكار التي عرضها الكاتب الكبير والداعية الشهير (محمد بيكثال) في كتابه هذا (الجانب الثقافي في الإسلام). نعم، هناك فروق حدثت نتيجة التقدم والازدهار المعرفي الذي يتمتع به شباب

العالم الإسلامي الآن، بسبب الثورة المعرفية الحديثة والتقنيات الجديدة التي قربت كثيرًا من المسائل والقضايا لعقول الشباب المسلم.

لقد كان كاتِبُنا (بيكثال) المعروف بشغفه للمعرفة الإسلامية، حاذق كل الحذق في عرضه للقضايا التي تناوله في محاضرته مع الطلبة في ذلك الوقت، وحاول جاهدًا أن يفك اشتباكًا كبيرًا بين دعاوي الحداثيين ومفكري الإسلام في قضية طالما تناولتها الأطراف المشتبكة بكثير من الانحياز الفكري الذي يميل إلى الإفراط أحيانًا وإلى التفريط أحيانًا أخرى. إنها (إشكالية الثقافة والدين).

لا شك أن الثقافة هي (التراث الحضاري والفكري في جميع جوانبه النظرية والعملية الذي تمتاز به الأمة وينسب إليها، ويتلقاه الفرد منذ ميلاده وحتى وفاته). وفي الإسلام، الدين هو الذي صنع الثقافة. واتحدت العلاقة بين الثقافة والدين مع أول آية نزلت من القرآن الكريم، وهي آية ﴿اقْرَأْ﴾. وهذه الملاحظة ثرية من حيث مجالها الدلالي، وتحتاج إلى تأملات غير متناهية، فالدين الذي يبدأ بآية ﴿اقْرَأْ﴾ هو دينٌ قادرٌ على أن يصنعَ ثقافة، ويكوّن أُمَّة، ويبني حضارة.

ويقول الأستاذ محمود شاكر في كتابه (الطريق إلى ثقافتنا):

*(الثقافة هي ثمرة المعارف جميعًا، ورأس كل ثقافة هو الدين بمعناه العام، والذي هو فطرة الإنسان، أيُّ دين كان، وبقدر شمول هذا الدين لجميع ما يكبح جموح النفس الإنسانية ويحجزها عن أن تزيغ تكون قوة العواصم، التي تعصم صاحبها من كل عيب قادح في المنهج).*

حتى (إليوت) نفسه صاحب كتاب (ملاحظات نحو تعريف الثقافة) يقول: (*إن ثقافة الشعب ودين الشعب مظهران مختلفان لشيء واحد؛ لأن الثقافة في جوهرها تجسيد لدين الشعب*).

لقد استطاع كاتِبُنا المبدع (محمد بيكثال) أن يظهر عظمة الشريعة المحمدية من خلال إبراز الجوانب المشرقة في الثقافة الإسلامية، والتي ركزت على (الإنسان)، فعالج الكاتِبُ ثقافة التسامح ومبدأ الأخوة في الإسلام.

وكم كان محقًا منصفًا عندما تكلم عن شبهة انتشار الإسلام بحد السيف، تِلْكُمُ الشبهة التي طالما تناولها المغرضون من غير إنصاف، ولا إحقاق للحق. بينما تناولها (بيكثال) بطريقة حسنة عرض فيها لأهم أقوال المستشرقين والمنصفين للإسلام.

وكان لزامًا على (بيكثال) أثناء محاضرته أن يعرض للنهضة الإسلامية في ماضيها وحاضرها، وأن يلقي الضوء على عوامل النهضة وعوامل التدهور، وهو مبحث طالما تناولته أيدي الباحثين والمهتمين بهذا الجانب في الحضارة الإسلامية، واختلفت كلمتهم في سبب عدم تحقق النهضة المنشودة.

- فيرى مالك بن نبي ومحمد إقبال أن السبب هو عدم اكتمال شروط النهضة.
- ويرى آخرون أن السبب هو اعتراض المسيرة التاريخية لقوى المنطقة.
- ويرى الكواكبي وجمال الدين الأفغاني أن السبب هو أثر الاستبداد الداخلي السلبي.
- أو لنقض التربية لإنسان المنطقة وتسليحه بالوعي والهمة الضرورية كما يرى الإمام محمد عبده وغيره.

- أو للحاجة إلى تغيير جذري فكري ثقافي كما يرى أبو الأعلى المودودي ومن يشايعه.
- أو لخلل اعتقادي ونقص في الالتزام العملي كما يرى الوهابية.
- أو للغفلة عن قوى الروح ودورها في توجيه التاريخ كما يرى الصوفية.

بينما ركز (بيكثال) بشكل كبير على الإنسان كعامل أهم من عوامل النهضة وكسبب رئيس من أسباب التدهور عند إهماله.

حقًا؛ إن من أبرز عوامل النهضة الإسلامية عبر العصور، عنايتها بالإنسان الذي هو خليفة الله تعالى في الأرض، ومما لفتني تركيزه على جانب النظافة كمظهر حضاري، حيث يقول:

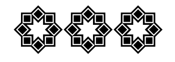
*(النظافة في الإسلام، إنها سمة من السمات البارزة للحضارة الإسلامية، في وقتٍ اقترنتْ فيه القذارة والنجاسة بالقداسة في أوروبا. كان في بلد المسلمين حمامًا (حمامات عامة ساخنة)، ونوافير عامة للشرب والاغتسال. فكان الإمداد بالمياه النقية هو الاعتبار الأول في أي مكان تواجدَ فيه المسلمون، وأصبح الاغتسال المتكرر يوميًا مرتبط بدينهم، لدرجة أنه في الأندلس في عام 1566 م، كان استخدام الحمامات ممنوعًا بموجب عقوبات قاسية وشديدة؛ لأن ذلك يذَكِّرهم بأهل الإسلاَم ونظافتهم، حتى إنه من سوء الحظ الذي لحق برجل جاءني من إشبيلية، وتم التنكيل به لأنه ارتكب جريمة الاغتسال أثناء عمله. وعندما كنت في الأناضول، سمعت بنفسي يونانيًا مسيحيًا يقول عن آخر: (هذا الرجل نصف مسلم؛ لأنه فقط يغسل قدميه!)*.

ولقد كانت الحضارة الإسلامية نتيجة حتمية لما يتمتع به المسلم من محبة للعلم ونشر للثقافة الدينية التي قامت على أسس الأخوة الإسلامية، لا القوميات التي تشتت الأمم ولا تجمع الكلمة ولا توحد الصف.

ثم كانت كلمته الأخيرة في هذه المحاضرة حول (القضاء والقدر)، هذه القضية التي شكلت مثارًا كبيرًا للخلاف في التراث والثقافة الإسلامية. لقد حاول (بيكثال) إلقاء الضوء على الإشكالات التي تعتري المسلم إذا لم يفهم القضية على وجهها الصحيح، وأحسبه كان موفقًا.

ولنترك الحكم النهائي للقارئ الكريم، والذي أظنه سيقضي وقتًا مفيدًا وطيبًا مع هذه المحاضرة التي كان لزامًا على خدمة التراث ومحبي العلم أن يوفروا لها المكان اللائق بها في المكتبة العربية.

كتبه:
محمد يحيى الكتاني الأزهري
**خادم العلم بالجامع الأزهر الشريف**
**الإسكندرية في 14 مارس 2021م**
Email: Mohamedyehya.hassan@yahoo.com



# تقديم المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

## (1) المؤلف في سطور:

هو محمد مارماديوك ويليام بيكثال (بالإنجليزية: Muhammad Marmaduke William Pickthall)، ينحدر من أسرة نورماندي العريقة، والتي كانت في السابق تحكم إنجلترا. مترجم وصحفي وروائي بريطاني مسلم مختص في الدين الإسلامي، كان مستشرقًا متميزًا قبل اعتناقه الإسلام. وُلِدَ في العاصمة لندن – المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى أيرلندا الشمالية – في 17 إبريل سنة 1875م. كان والده وجده من قساوسة كنيسة إنجلترا. أمضى سنوات طفولته في منطقة ريفية بمقاطعة سوفولك الإنجليزية، وبعد وفاة والده عام 1881م، انتقل مع والدته إلى بلدة بالقرب من لندن. أثناء التحاقه بمدرسة في مدينة هارو، كان زميلًا لـ (نستون تشرشل)، ولأنه لم يمكن له التجنيد في الجيش، استمر في العيش حياة ريفية كريمة مع والدته في سوفولك. سافر في الأعوام 1894م: 1896م إلى بعض دول الشرق الأوسط، منها: فلسطين ولبنان وسوريا، وكذلك إلى تركيا والبلقان لفترة. حولت ديانات الشرق الأوسط مستقبله الفكري والسياسي.

انتقل (بيكثال) إلى مصر، وتحديدًا إلى محافظة القاهرة، وتجوَّل كثيرًا بها، ثم تعلم اللغة العربية، ثم سافر إلى فلسطين بعد إتقانه اللغة العربية، ورغب في اعتناق الإسلام، ولكن قُوبِلَ ذلك بالرفض من عائلته في البداية، واستدعته والدته إلى المنزل عند وصوله إلى عمر الـ20 سنة. تزوج من (ماريل سميث) ثم سافر إلى سويسرا، وهناك نشر القصة الأولى له سنة 1898م وعنوانها (كلمة رجل إنجليزي)، ثم سكن وزوجته في كوخ صغير لكي يطلق العنان لكتاباته.

وفي سنة 1900م، عكف على نشر الرواية الأولى له، والتي حملت اسم ( All Fools)، ثم نُشِرَتْ له رواية أخرى عقب مرور سنتين فقط، وتوالى نشر الروايات كل سنة، ثم عاد مرة أخرى إلى القاهرة سنة 1907م، ولكن هذه المرة كان ضيف مسئول بريطاني. بمرور الوقت، أصبح مارماديوك بيكثال من أقوى المؤيدين للإسلام شريعته، وفي 29 نوفمبر سنة 1917م، أعلن اعتناقه الإسلام بطريقة دراماتيكية عقب تقديمه لخطاب حول (الإسلام والتقدم)، واتخذ من (محمد) اسمًا له، وانتمى إلى الجالية البريطانية المسلمة. من ذلك الوقت حتى عام 1920م، كان خطيبًا وإمامًا لمسجد لندن بسبب إتقانه للقرءان ومعرفته بالثقافة الإسلامية وحضارتها، ولبعض الوقت كان في منطقة نوتينغ هيل – لندن.

مقالاته ومحاضراته حول القضايا الثقافية والسياسية للعالم الإسلامي جعلته مشهورًا في العديد من البلدان الإسلامية، بما في ذلك تركيا وشبه القارة الهندية. وفي عام

1930م، كان (محمد بيكثال) قد انتهى من (ترجمة معاني القرءان المجيد)، وعنوانه بالإنجليزية:

(The Meaning of the Glorious Qur'an)، وجمعها في كتاب شامل، ثم نُشِرَتْ وتُرْجِمَتْ إلى عديد من اللغات، وقد أكد في مقدمته على أن هذه الترجمة هي نقل إلى اللغة الإنجليزية دون أن يتعرض إلى الترجمة التفسيرية أو الإبداعية؛ لأنه أدرك يقينًا أنه من المستحيل أن يترجم القرءان بما يماثل النَّسق القرءاني العظيم، وقد حظيتْ بإقرار علماء الأزهر الشريف وموافقتهم عليها، ومنهم: فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي – شيخ الأزهر الأسبق؛ الحنفي مذهبًا السُّني المَاتُريدي معتقدًا، وفضيلة العلَّامة أ.د. محمد أحمد الغمراوي؛ الشافعي مذهبًا السُّني الأشعري معتقدًا وغيرهما. واعتبرها بعضهم إنجازًا أدبيًا كبيرًا. **وفي ذلك الرد الشافي الكافي والمختصر المفيد** على مَن يُرَوِّجُ ويزعم أن ترجمة (بيكثال) لمعاني القرءان تعتمد على معتقد السلفية الوهابية، وتحديدًا في مسألة ترجمة الأسماء والصفات. والكتاب الذي بين أيدينا يتحدث إلينا عن العلاقة القوية بين العقيدة والتصوف، والعلاقة بين الفقه والتصوف، في المحاضرة الرابعة (العلم والفن والآداب) بوضوح تام عن التصوف الإسلامي السُّني الحنيف، وجوهره، وأهميته بالنسبة للمسلمين، وأنه هو روح الإسلام الذي يقف جنبًا إلى جنب الفقه الإسلامي – تحديدًا المذاهب الفقهية الأربعة – باعتبار أن الفقه هو العِلمُ النظريُّ بقواعد عبادة الله سبحانه وتعالى، والتصوف هو العِلمُ العمليُّ الذي يُهَذِّبُ هذه العبادة، ويُربي الأخلاق، ويرتقي بالنفس البشرية. فملخص علم التصوف في ثلاث كلمات: التخلي؛ أي التخلي

عن كل خُلُقٍ ذميم، والتحلِّي؛ أي التحلي بكل خُلُقٍ كريم، والتجلي؛ أي أن المسلم يتخلَّقُ بأخلاقِ الله. ثم يصبح العبد في رضا عن الله، عنده تسليم تام بقدر الله. فكيف تكون ترجمة المؤلِّف للقرءان على معتقدٍ لِفِرقَةٍ من الفِرَقِ الإسلامية، وقد اعتمد ترجمته الإنجليزية (وكذلك ترجمة عبد الله يوسف علي) أكابر علماء الأزهر الشريف؟!

ثم في عام 1935م، سافر إلى إنجلترا وهناك عاش سنة واحدة فقط، ثم توفى تاركًا خلفه العديد من الإسهامات الإسلامية ولُقِّبَ بـ (خادم الإسلام). ودُفِنَ في مقابر المسلمين الموجودة بإنجلترا، ومازال إلى الآن يحظى بتقدير المسلمين واحترامهم جميعًا، لما سطره من كتب إسلامية وخاصة (ترجمة معاني القرءان المجيد) التي كتبها بأسلوب أدبي شعري، وهي من أفضل الترجمات لمعاني القرءان التي ما زالت مستخدمة حتى اليوم.

## (2) أعماله ومؤلفاته:

له خمسة عشر كتابًا وروايةً في فترة ما قبل إسلامه، كبعض الروايات التي تحكي عن دول الشرق، وتحديدًا مصر. قام المترجم سمير محفوظ بشير بترجمة روايتين: الأولى بعنوان (أبناء النيل)، صدرت عن الدار المصرية اللبنانية سنة 2015م، والثانية بعنوان (نسوة منتقبات)، صدرت عن المركز القومي للترجمة سنة 2019م. وكذلك كتاب (اللقاءات المشرقية في بلاد الشام) ترجمها إلى العربية المترجم أحمد الغامدي، صدر عن مركز تكوين للدراسات والأبحاث، سنة 2019م. وله مؤلفات لَمَّا تُتَرْجَم.

أما بعد اعتناقه الإسلام، فله ستة مؤلفات، أعظمها شأنًا هو (ترجمة معاني القرءان المجيد). ومن تلك المؤلفات، هذا الكتاب الذي بين أيدينا الآن، بعنوان (الجانب الثقافي في الإسلام)، وهو عبارة عن عدد 8 محاضرات ألقاها في مدينة مَدراس الهندية عامي 1925م، 1926م، وذلك بدعوة من رابطة المسلمين في هذه المدينة، و(مضامين القرءان الكريم)، و(المواعظ القرءانية)، و(حياة النبي الأكرم).

## (3) عن الكتاب وأسلوبه:

طُبِعَ هذا الكتاب سنة 1927م، وأُعيدتْ طباعته مرة أخرى سنة 1937م، وهذه الطبعة هي التي قمتُ بترجمتها إلى العربية، لأنها تحتوي على توطئة مجلس مَدراس الإسلامي للمحاضرات الإسلامية. أما عن أسلوبه، فهو أسلوب مميز؛ لأنه يتناول القضايا الإسلامية بنظرة غربية لا شرقية، أو كما اعتدنا عليها منذ عدة عقود. فتناول عدة قضايا مختلفة تتعلق بالجانب الثقافي في الإسلام، فبدأ بالحديث عن تعريف (الثقافة) لغةً واصطلاحًا، وربط تعريفها بالفكر الإنساني، وكيف أن الإسلامَ دينٌ يحث على تحرر الفكر الإنساني، فلا يقيده شيء أبدًا، إلا أن الفكر الإنساني يعجز كليةً إذا اقترب من الذات الإلهية. ثم انتقل إلى عوامل نهضة المسلمين وعوامل تدهورها، مع ضرب أمثلة من تاريخ المسلمين إلى زمنه. وتحدث عن مفهوم أخوة المسلمين، وكيف حاولت عصبة الأمم واتحاد عصبة الأمم وغيرهما من الاتحادات الأوروبية محاكاة العمق الإسلامي للأخوة بين المسلمين، لكنهم فشلوا فشلًا ذريعًا. كما قارن بين العلم في الإسلام والعلم في الغرب وأتباع العقيدة المسيحية الكاثوليكية، وكذلك الفن في تاريخ المسلمين والفن

في الغرب والأوروبيين، والأدب العربي والأدب الأوروبي، وعلاقة العقيدة الإسلامية بالتصوف، وعلاقة الفقه الإسلامي بالتصوف، وكيف أن التصوف جوهر الدين الذي يقوم على تنقية النفس البشرية من كافة الشوائب والأمراض القلبية كالكبر والرياء والعُجْب والغرور والكبرياء والحقد، وهلم جرا.

ثم انتقل إلى مفهوم التسامح في المحاضرة الخامسة، وكيف أن كل رسول قد بُعِثَ إلى قومه خاصةً، وأن رسولنا الكريم ﷺ قد بُعِثَ إلى الناس كافةً، مُستشهدًا ببعض فقرات من الكتاب المقدس، وكيف أن ذلك له أثر عظيم في نفوس أتباع كل ديانة. كما أنه برع في الحديث عن مسألة (عقيدة القدر في الإسلام)، وفي تأصيل لمفهوم (القدرية) في الإسلام، نافيًا عن الدين ما ألصقه الغرب من شبهات، بأسلوب متميز سيلاحظه القارئ عند تصفح ورقات هذا الكتاب. أما المحاضرة السابعة، وهي علاقة الجنسين بعضهما ببعض؛ أي علاقة الرجل بالمرأة وعلاقة المرأة بالرجل. كما يتحدث في نهاية الكتاب عن مفهوم المدينة في الإسلام، وأن الإسلام لا يعرف كلمة (الكهنوت) أو (الكهنة)، كما قارن ببساطة عن علاقة المسلمين بغيرهم من أتباع الديانات والمعتقدات الأخرى، وما يفعله الأوروبيون في الغرب؛ أي أنهم يقولون ما لا يعتقدون ولا يفعلون.

إن هذا هو أسلوب أغلب المستشرقين، الذين اعتنقوا الإسلام في نهاية المطاف، عند تناول القضايا الإسلامية، وهو الذي جذبني جدًا وأثار شغفي واهتمامي لقراءة كتب المستشرقين عامةً وكتب (محمد مارماديوك بيكثال) خاصةً؛ لأنني رأيتُ فيه معنى (**تجديد الخطاب الديني** Re-introducing Islamic Discourse).

تلك القضية التي أُثِيرَتْ إعلاميًا إلى أن وصلتْ إلى حد التناقض والتضارب في الأقوال والمفاهيم. وإن ما أفهمه عن قضية تجديد الخطاب الديني هو تجديد نظرة المسلمين إلى الإسلام، وفَهم فقهه وقضاياه على المنهج القويم (وهو المنهج الأزهري السُّني الشريف)، وتجديد لسان العلماء الأكابر من لغة الفقه القديمة إلى لغةٍ معاصرةٍ تناسب العقل المعاصر، بما لا يمس ثوابت الدين التي استقر عليها العلماء والفقهاء سلفًا وخلفًا. فلم أجد أفضل من نظرة الذين درسوا علوم الشرق – وتحديدًا الدين الإسلامي – وتحدثوا عنه بخطاب آخر غير الذي اعتدنا عليه منذ عدة عقود.

## (4) استراتيجية الترجمة إلى العربية:

للأمانة العلمية؛ قمتُ باستخدام ترجمة (المعنى بالمعنى) أو كما يطلق عليها (الترجمة المعنوية) أو (الترجمة التفسيرية) Sense for Sense Translation، وهي ترتكز على إيصال المعنى المراد دون التقييد بمحاكاة الأصل في نظمه وترتيبه. كما حاولتُ جاهدًا التوازن بين استراتيجيتي الترجمة: **التقريب** و**التغريب**. فإن هدفَ استراتيجية التقريب توطين كل شيء للقارئ حتى لا يشعر بالغرابة في النص الذي يقرأه، وهدف استراتيجية التغريب الإبقاء على الروح الثقافية للنص المصدر (الإنجليزي) ناقلًا جوانبه الثقافية في النص الهدف (العربي). وحافظتُ في ترجمتي على وجود استراتيجية **التغريب**، رغم أن القارئَ عربيٌّ، لكي يقرأ أسلوب المستشرقين في فَهم الدين الإسلامي، أو بمعنى آخر، حتى يتحرر القارئ من حالة الجمود التي اعتادتْ آذاننا على سماعها في وطننا العربي والإسلامي، وهو ما أردتُ إيصاله من خلال ترجمتي لهذا الكتاب.

ويتلخص ما أضفتُه إلى النص الأصلي – في الترجمة العربية – ورتَّبتُه وحقَّقتُه في هذا الكتاب على النحو الآتي:

1. تصريح مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف بالطبع والنشر والتداول.
2. تقديم فضيلة الشيخ د. محمد يحيى الكتاني الأزهري.
3. تقديم المترجم.
4. توضيح بعض الكلمات أو المصطلحات (المسيحية تحديدًا) أو الأسماء الغامضة في الهوامش، مع ذِكر المرجع إن وُجِدَ.
5. ذِكر المصادر التي ذكرها المؤلف ضمنيًا.
6. تخريج الأحاديث النبوية.
7. سرد كافة المصادر والمراجع في آخر الكتاب بعنوان (قائمة المصادر والمراجع).

وفيما يتعلق برقمي (3، 4): تلك الكلمات أو المصطلحات أو الأسماء التي اعتمد فيها المؤلف على ذِكر اسم فقط من العلماء أو غيرهم دون ذِكر لقبه، مما يثير استغراب القارئ. وبالمثال يتضح المقال: ذَكَرَ المؤلفُ اسمًا لرجل يُدعى **عمارة** في متن النص المصدر (الإنجليزي) دون ذِكر اسمه كاملًا، الأمر الذي دفعني للبحث عنه في المراجع المتاحة لي أو الكشف عنه بالبحث على شبكة الإنترنت، فأشرتُ إلى اسمه في الهامش بنهاية الصفحة حتى يتسنَّى للقارئ معرفة مَن هو **عمارة**، وهو: نجم الدين أبو أحمد عمارة بن أبي الحسن اليمني (المؤرخ اليمني الشهير في القرن السادس الهجري).

مثال آخر:

ذكرَ المؤلفُ طائفةً من طوائف المسيحية تُدعى **المدرسية** في متن النص المصدر، مما دفعني أن أشير إليها في هامش الصفحة وأوضحتُ ما هي الطائفة الكنسية المدرسية أو **فلسفة المدرسة**، وهي: (تُطلَق عادة على مدرسة فلسفية سادت في أوروبا في العصور الوسطى، وكانت تستخدم منهجًا نقديًا في التحليل الفلسفي، بناءً على نموذج مسيحي ألوهي ولاتيني، وكانت هذه الفلسفة مسيطرة على أوروبا من 1100م إلى 1700م).

وهكذا مع بقية الأسماء الأعلام العربية والأجنبية، وعناوين الكتب والمؤلفات، والمصطلحات التي اختصرها المؤلف في كلمةٍ واحدةٍ.

(5) تخريج الأحاديث النبوية:

اعتمدتُ تخريج الأحاديث النبوية من صحيح البخاري (تحديدًا) لكونه بمكتبتي، وتخريج بقية الأحاديث اعتمدتُ على تخريجها من برنامج إلكتروني زكَّاه فضيلة مولانا أ.د. علي جمعة [1] في برنامجه (والله أعلم)، والموقع اسمه (إحسان) [2]، وطريقة البحث فيه سهلة، وهو موقع يحتوي على كتب الأحاديث الستة، وكثير من المسانيد، وهي كافية تمامًا لأي مسلم [3]. واعتمدتُ على هذا الموقع الإلكتروني تحديدًا لأنه يرتكز على المنهج

---

(1) نور الدين الإمام العلَّامة علي جمعة محمد عبد الوهاب: مفتي الديار المصرية السابق، عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف، وعضو في مجمع البحوث الإسلامية، وأحد علماء السادة الشافعية الأشاعرة في مصر، وشيخ الطريقة الصدِّيقية الشاذلية.

(2) رابط الموقع:

https://www.ihsanetwork.org/hadith_noedge.aspx

(3) اليمني؛ أحمد صالح – مع الحديث وأهله ببساطة – دار زحمة كُتَّاب للنشر والتوزيع – 2019 – صفحات: من ص 67 إلى ص 70 – القاهرة.

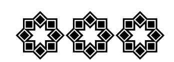
الحديثي المعتمد لدى علماء السواد الأعظم جمهور المسلمين من أهل السُّنة والجماعة، وذلك لأنه يوجد على شبكة الإنترنت عديد من المواقع والموسوعات الحديثية، منها الثمين، ومنها الغث الذي طالته يد الجماعات والفِرَقِ الإسلامية. أسأل الله لي ولكم السلامة المنهجية من كل منهج يخالف منهج الجامع الأزهر الشريف الحنيف المنيف.

وأرجو من الله العلي القدير أن أكون قد خدمتُ الكتابَ خدمةً تليقُ بمكانةِ مؤلفه، وأهمية ما خلَّفه من تراث ثمين ينتفع به المسلمين، وليس الأمر بالنسبة لي مجرد ترجمة، وإنما إثراء العقل العربي بما ينفعنا حقًا هو هدفي وغايتي، وأن نتطلع إلى معرفة كيف اعتنق بعض المستشرقين الإسلام، وبأي نظرة كانوا ينظرون إلى الإسلام. وأتوسلُ إلى الله بجاه نبيه ﷺ وبآله رضي الله عنهم أن يقبل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يتقبله مني، وأن ينفعَ به، وأن يجعلَ جزاؤه مرافقة سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ في الفردوس الأعلى، وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وسلِّم تسليمًا كثيرًا.

محمد مصطفى الساكت

**الإسكندرية في 28 نوفمبر 2020م**

Email: muhammadalsaket89@gmail.com



# توطئة

إنه لمن دواعي سرور مجلس مَدراس الإسلامي لإلقاء المحاضرات عن الإسلام أن يقدم هذه السلسلة الثانية العامة من المحاضرات التي ألقاها السيد/ محمد مارماديوك بيكثال في يناير الماضي [4] وعنوانها (الجانب الثقافي للإسلام). ففي أكتوبر 1925م، ألقى مولانا/ السيد سليمان الندوي [5] السلسلة الأولى من المحاضرات باللغة الأردية وعنوانها (حياة النبي المُعظَّم ﷺ). وفي هذه المحاضرات التي ألقاها السيد/ بيكثال، يَبْسُطُ الصورة الحقيقية للإسلام، ويصف بوضوح عوامل نهضة الثقافة الإسلامية وعوامل تدهورها، كما أن هذه المحاضرات مشحونة بالآيات القرءانية والأحاديث النبوية الشريفة، التي هي الروح الحقيقية للإسلام، فتُثري الروح والعقل. ويقين المجلس أنها ستلقى قبولًا وترحيبًا عظيمًا بين عامة الناس؛ لأنها في الحقيقة تخدم الاحتياج الحقيقي لفَهم الدين الإسلامي وثقافته وحضارته. كما أن المجلس يتقدم بالشكر الجزيل والامتنان لهذا المُحاضِر العالِم الفذ، ولرئيس الجلسة الافتتاحية الموقر السيد/ سي. بي. رامسوامي آيار.

❁❁❁

---

(4) يعني يناير 1927م.

(5) السيد الشريف/ السيد سليمان الندوي (1884م: 1953م) رئيس علماء الهند، ورئيس المجمع الإسلامي العريق (دار المصنفين) بمدينة لكناو الهندية. هو الإمام العلَّامة المؤرخ واللغوي الأديب، من السادة الأشراف الحُسينيين: ينتهي نسبه إلى سيدنا الإمام الحسين عليه السلام، حنفي المذهب، نقشبندي المشرب الصوفي.



# المحاضرة الأولى

# الثقافة الإسلامية

إن كلمة (الثقافة) تعني التهذيب، كما تُستَخدم هذه الكلمة في الوقت الحاضر عمومًا بمفردها، لا سيما تهذيب العقل البشري. وتختلف الثقافة الإسلامية عن الثقافات الأخرى من حيث أنها لا يمكن أن تكون هدفًا أو موضوعًا للأفراد المثقفين؛ لأن هدفها المُعلَن والمُحدد بوضوح أنها لا تبغي تهذيب الفرد أو مجموعة من الأفراد وحسب؛ بل تهدف إلى تهذيب الجنس البشري بأسره. كما لا يمكن اعتبار أي نوع من الأعمال الفنية أو الأدبية في أي بلد كان بحجة الإسلام، طالما بقي الخطأ والظلم والتعصب. فلا يمكن وصف انتصارات الحرب أو السلام، مهما كانت انتصارات رائعة، على أنها من مكاسب الإسلام. إذ للإسلام غايات أوسع ورؤًى أعظم من ذلك؛ إنه يهدف إلى الأخوة الإنسانية العالمية. ومع ذلك؛ فإنه – كدين – يُشجع على المساعي الإنسانية أكثر من أي دين آخر، ومنذ أن أصبح قوة في العالم، فقد أنتج ثمارًا ثقافيةً ستُقارَن بتلك الثمار التي حققتها جميع الديانات الأخرى؛ بل وجميع الحضارات والفلسفات أيضًا. ربما يقف المسلمُ مَشْدوهًا على الأعمال الفنية والأدبية – إلى حد العبادة – والتي يسميها الإنسان (ظاهرة عرضية للثقافة) في الغرب، وكأنه أمرًا مسوغًا، وأن نتاجهم الثقافي هو الهدف الأسمى للحياة الإنسانية. إن هذا لا يعني أن المسلمين يحتقرون الأعمال الأدبية والفنية والعلمية، أو ينبغي أن يحتقروها، مطلقًا؛ لكنهم يأخذونها من منظور هِبات الطريق، فإما أن تكون تلك الهِبات مساعدات إلى نهاية الطريق، أو أن تكون من الأمور الترويحية؛ أي الترفيهية. والمسلمون لا يعبدون لا هذا ولا ذاك.

لذا؛ فإن كافة الأعمال العلمية والفنية والأدبية تندرج تحت هذين الأمرين، وإن بعضًا من تلك الأعمال، مثل أجود الشعر وأفخر الهندسة المعمارية، تندرج تحت كليهما. وجميع ما سبق يؤول إلى قائد واحد يتبع هَديًا واحدًا، ومن ثم يتطلع إلى غاية واحدة. إن القائد هو النبي محمد رسول الله ﷺ، وهذا الهَدي هو القرءان الكريم، والغاية هو الله ﷻ.

ومن خلال الثقافة الإسلامية، لا أعني أن الثقافة مشتقة من أي مصدر، والتي أقامها الذين أعلنوا اعتناقهم للدين الإسلامي، وإنما أعني نوع الثقافة الذي يحددها دين يكون التقدم الإنساني هو الهدف المُعلَن والمُحَدَّد.

ولا يستطيع أحد ممن درس القرءان وفحصه أن يُنكِرَ أنه وعد الإنسان بالفلاح في الحياة الدنيا والآخرة، إذا اهتدى بهديه وامتثل لقوانينه [6]، وأن القرءان يهدف إلى فلاح الإنسانية جمعاء؛ وهذا الفلاح يتحقق بتنمية مواهب الإنسان وقدراته.

وإذا كانت تلك التنمية في المجتمع المسلم غير خاضعة لما جاء في القرءان الكريم أو لما جاء عن النبي ﷺ، فإنه يجب أن يُبْحَثَ هذا الأمر من أصله خارج النظام الإسلامي. فلا يمكن للمسلمين أن يأملوا في نجاحٍ يأتي من اعتمادهم تلك التنمية، مع أن تلك التنمية ليست بالضرورة أن تكون ضد النجاح. وأما إذا كانت أي تنمية تتعارض مع الهَدي القرءاني والسُّنَّة النبوية الشريفة، فإن تلك التنمية أو ذلك الاستحداث في المجتمع ليس على النهج الإسلامي، وأن ذلك حتمًا يسير في الاتجاه المضاد للنجاح والفلاح. وذلك يعني ببساطة أن المسلمين يقعون في كارثة إذا وافقوا على ذلك الاستحداث أو تلك التنمية أو تبنيهم لها.

---

(6) أي الشريعة الإسلامية.

فمنذ فجر الإسلام، وقد أُبْطِلَتْ بعض الأعمال الفنية بسبب ارتباط العربُ بالعبادة الوثنية وما يحدث حولها من عربدة وأفعال دنيئة، فكان من الضروري استئصالها في سبيل تقدم الإنسانية. لكن، إن مسألة إبطال بعض الأعمال الفنية وتشجيع البعض الآخر كانا من الأمور الفرعية. إن ثقافة الإسلام لم تكن غايتها تحسين الأمور الثانوية في الحياة الإنسانية وتجميلها، وإنما غايتها تجميل الحياة الإنسانية ورفع شأنها في حد ذاتها. ففي الغرب، يوجد مذهب فكري يضم شريحة عريضة جدًا من الغربيين – على ما يبدو – أنه يرى أن إنتاج الأعمال الفنية من جانب أقلية في المجتمع هو سبب كافٍ للإشادة بحضارة ذلك المجتمع وثقافته، على الرغم من أن الغالبية العظمى قد يُجبِرُها النظام الاجتماعي على أن تحيا في ظل ذلك المجتمع حياة متدهورة وبشعة. عجبًا؛ إن ذلك المذهب الفكري يعتقد أن إنتاج الأعمال الفنية من جانب الأقلية في المجتمع لأي شعب أو أُمَّة، هو مبرر كافي للحكم على الأغلبية أن تعيش في حالة من البشاعة، والعبودية، والتدهور.

وسيتذكر البعض منكم ذلك النقاش الذي أُثير في الصحافة الإنجليزية منذ عدة سنوات، كان السؤال وقتئذٍ: إذا افترضنا جدلًا أن تمثالًا من تماثيل الحضارة اليونانية وهو مشهور وجميل جدًا، وأنه قطعة فريدة من نوعه لا يمكن استعاضته بغيره يوجد في حُجرة إلى جوار طفل حي، ثم اندلعت نار في تلك الحُجرة. فإلى مَن منهما سيتجه الناس إليه لإنقاذه؟ ما زلتُ أتذكرُ جيدًا أن وجهة نظر المفكرين والأعيان هي إنقاذ التمثال هو الأمر الواجب فِعله، وترك الطفل الصغير حتى يموت. وكانت حُجَّتُهم أن التمثالَ قطعةٌ

فريدةٌ من المستحيل الاستعاضة بغيره، أما الطفل الصغير، فإن ملايين من الأطفال تُولَد كل يوم، فلا بأس بالتضحية به. إن المسلم يستحيل أن يخطر بباله هذه النظرة للحياة؛ لأن فِكره صالحٌ ومُنتقى، وليس فكر قائم على عبادة الأوثان.

إن الإسلام يتنبأ بمستقبل مشرق للإنسانية جمعاء، ويعمل لصالحها؛ فكل مسلم يضع حياته كاملةً في خدمة الله ﷻ، وهذه الخدمة هي خدمة الإنسانية، فلن يحلم أبدًا أن يُقْدِمَ على التضحية بأي روح، مهما بدتْ تلك الروح تافهة بالنسبة لما يراه إنجازًا عظيمًا من صُنع البشر. إن التعلق بالأعمال الفنية وتمجيدها يرجع إلى عدم الإيمان بهَدي الله وغايته. أما الجانب الآخر من المفكرين والأعيان، فقد احتجوا بأن هذه الأشياء هي أفضل ما أنتجه الإنسان على مر القرون؛ فالجمال في طريقه إلى الانقراض، والكائنات البشرية تنحدر وتتدهور، لذلك يجب أن نتمسك بهذه المنتجات الفنية الجميلة الأثرية، وذلك لاعتبارها واحدة من أفضل ما تبقى لنا. إن هذا الفِكر هو فِكر تشاؤمي، بخلاف الإسلام فيدعو للتفاؤل، وليس المقصود بالتفاؤل ذاك الذي يسخر منه (فولتير) الذي يُجسِّد شخصية الدكتور بانجلوس، ذلك الفيلسوف الفرنسي الذي كانت فلسفته منافية للعقل والمنطق، فأعلن أن: (*الكل على ما يرام في أفضل العوالم الممكنة*). إن هذا نوع من القول الذي يُقال دون تفكير عن التفاؤل، لكن في الحقيقة إنه أمر يتعلق بالقدر، وهو شكل من أشكال التشاؤم. والدين الإسلامي ليس قدريًا، وأكرر هذه الجملة مرة أخرى، على الرغم من كل ما قيل عن قضية الإيمان بالقضاء والقدر عند المسلمين؛ الإسلام ليس قدريًا بالمعنى الشائع للكلمة [7]. إن الإسلام لا يأمر الإنسان بقبول الظروف القائمة

(7) المحاضرة السادسة (التكليف بعقيدة القدر) تشرح ذلك تفصيليًا.

كنوع من أنواع الشر الذي لا بُدَّ منه، وإنما يأمر بألَّا يتوقف الإنسان عن السعي إلى التطوير والنهوض والأخذ بالأسباب، ولا يستسلم للأمر الواقع باعتباره قضاءً وقدرًا أمر الله به.

إن الإسلام يسعى إلى تقدم الإنسان – على وجه التحديد – فيقدم له الطريقة الصحيحة في صورة أوامر ونواهي تغطي جميع مناحي حياته اليومية، وحياته الاجتماعية والسياسية، بل وكل ما يخطر على عقله وروحه أيضًا. ثم قُنِّنَتْ هذه الأوامر والنواهي في نظام اجتماعي وسياسي كامل؛ إنه نظام عملي أذهل كل مَن قام بتجربته والعمل بما فيه عملًا كاملًا عبر التاريخ. هذا النجاح المذهل، دفع عديد من الكُتَّاب إلى محاولات عديدة لتفسير هذا النجاح المذهل والرائع لهذا الدين، فمنهم مَن أرجع هذا النجاح إلى أسباب خارجية، كضعف الدول المحيطة بالمسلمين، وحرية استخدام السيف، وما إلى ذلك. لكن كيف سيفسرون تلك الحقيقة: أنه كلما أذعن المسلمون لأمر من أوامر الشريعة المقدسة، نجحوا في هذا الأمر، وكلما أهملوا في الامتثال لأوامر ونواهي الشريعة الغراء، فشلوا في تحقيق النجاح؟! وكيف سيفسرون تلك الحقيقة: أنه إذا قام أي شخص من غير المسلمين على تنفيذ شريعة الإسلام، فإنه دائمًا ينجح؟! إن قوانين القرءان وسُّنَّة النبي الكريم ﷺ هي قوانين للبشرية جمعاء. فالقوانين الإسلامية لا يمكن معرفتها من خلال تجربة فردية، ولم يكن من الممكن معرفتها إلا جزئيًا على المدى الطويل من خلال دارس أو مُفكِّر هنا وهناك، فقد تطلب الأمر أن يُوحى إلى نبي لضبط تلك القوانين وإعطاء

الأنموذج الأمثل لتطبيقها. أما خلاف ذلك؛ أي من غير نبي، فهي نواميس طبيعية منسجمة مع القوانين الفيزيائية التي تحكم وجودنا بوضوح، ولا يختلف عليها اثنان.

تبشر الديانات الأخرى أتباعها بالنجاح والفلاح في الحياة الآخرة لأولئك الذين يؤهلون أنفسهم لها بالحرمان من ملذات الدنيا والتقشف على الأرض في الحياة الدنيا. أما بالنسبة للإسلام، فإنه يبشر المسلمين بالنجاح والفلاح والاستمتاع بهما في الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة معًا، إذا أطاع المسلم قوانين معينة أنزلها الله ﷻ على سيدنا رسول الله ﷺ، وأذعن لها إذعانًا تامًا. إن الخط الفاصل بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، بالنسبة للمسلم، يزول تمامًا؛ لأنه يؤمن أن الله ﷻ هو رب السماوات والأرض، وهو رب الحياة الدنيا والحياة الآخرة، وأن الحياة الآخرة قد بدأتْ الآن، وليس إذا بلغت الروحُ الحُلْقُوم. ذلك هو الاستسلام لإرادة الله التي قصدها النبي الكريم محمد ﷺ عندما نصحنا بقوله: (مُوُتُوا قَبْلَ أَنْ تَمُوُتُوا) [8].

فالنجاح في هذه الحياة الذي وعد به الإسلام لا يكون على حساب الآخرين، ولا يكون نجاح أُمة على ضرر الأمم الأخرى أو الإضرار بهم؛ بل إنه نجاح للإنسانية جمعاء. ألم تر أن المؤذن يعلن سبيل النجاح خمس مرات في اليوم والليلة في كل المساجد، فيقول: (حي *على الفلاح! حي على الفلاح!*). وكلمة الفلاح في اللغة العربية تعني النجاح من خلال التهذيب. وهناك كلمة عربية أخرى شائعة الاستخدام بين المسلمين وهي: (زكاة)

---

(8) ليس بحديث. قال الملا علي القاري (وهو فقيه حنفي المذهب، وعَلَمٌ من أعلام مذهب أهل السُّنة والجماعة المَاتُريدية الصوفية، المُتوفَّى سنة 1014 هجرية) في كتابه (الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة): حديث رقم (539): (قال العسقلاني: إنه غير ثابت. قلتُ: هو مِن كلام الصوفية، والمعنى موتوا اختيارًا قبل أن تموتوا اضطرارًا. المراد بالموت الاختياري: تركُ الشهوات واللهوات، وما يترتب عليها من الزلَّات والغفلات).

والتي تعني: (*التهذيب عن طريق الأخذ من المسلم، فتنمو أمواله نموًا صحيحًا صحيًا*).
هذا الذي نصَّ عليه القرءان الكريم كثيرًا فهي فرض من فروض الإسلام، والتي تعمل على التنمية الروحية والتنمية الحسية بين أفراد المجتمع.
لذا؛ نجد أن النبي ﷺ قال: (فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ) [9]، فإذا ما تم تحصيل هذه الزكاة بصورة منتظمة، فإن حالة الأمة الإسلامية سترقى إلى التهذيب المطلوب للنفس البشرية. ولك أن تعلم أنه كلما اتسعتْ رقعة توزيع الزكاة والصدقة، ولم تجد فقيرًا أو مسكينًا أو محتاجًا، فإن هذه الصدقات والزكاة تُوَجَّه إلى خدمة الناس كافة، كأعمال المصلحة العامة التي يحتاجها الناس في حياتهم اليومية. نقرأ في القرءان الكريم قول الله سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝١٠﴾ [سورة الشمس: 9، 10]، وقال الله ﷻ في موضع آخر: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ۝١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝١٦ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۝١٧ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ۝١٩﴾ [الأعلى: 14، 15].

قد يظن بعض الناس أن هذه مجرد تطلعات وأراء دينية وحسب بغض النظر عن الحياة، لكن الإسلام لا يكون دينًا حقيقيًا ما لم يكن دينًا عمليًا؛ أي لا بُدَّ من العمل به في الحياة، وإلَّا فيكون هذا الكلام كله مجرد حبرًا على ورق! إن شريعة الإسلام تُرجِمَتْ فعليًا إلى نظام مساعدة مُحْكَم، مما نتج عن تطبيقه حل كافة المشكلات الاجتماعية في العالم

---

([9]) صحيح البخاري – كتاب الزكاة – باب وجوب الزكاة – حديث رقم 1395، والحديث من طريق سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

الإسلامي لقرون طويلة. والآيات القرءانية تخبرنا أن الدين الحقيقي هو في حد ذاته دينٌ عمليٌّ، وليس نظري أو شكلي. انظر إلى قول الله ﷻ: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: 177]. وقال ﷻ في آية أخرى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد: 29].

ومن هنا أقول: كم وردتْ هذه العبارة في القرءان الكريم: ﴿الذين ءامنوا ولا يفعلون شيئًا﴾؟ لم ترد مطلقًا في الإسلام، وكذلك لم ترد آية مثل هذه: ﴿الذين ءامنوا ويظلمون﴾، هذا لا يمكن تصوره أو تصديقه؛ لأن الإسلام معناه استسلام الإنسان لإرادة الله ومشيئته، وبالتالي فإن خضوعه لشريعة الله وإذعانه لها يحث عن العمل والجهد وليس الكسل والتواكل.

ففي العصور السالفة للإسلام، لم يكن هناك تمييز بين دراسة العلوم الدنيوية ودراسة العلوم الدينية، وإنما كانت كافة العلوم تحت مظلة المجال الديني. ونقلًا عن كاتب أوروبي حديث العهد بالإسلام: (*إن جوهر مجد الإسلام في أنه أعطى لكافة العلوم الدنيوية نفس المكانة التي أعطاها لدراسة القرءان والحديث والفقه الإسلامي، وجعل مكان الدراسة في المسجد*). إن للمسجد شأن عظيم، حيث أُلْقِيَتْ فيه محاضرات في الكيمياء، والفيزياء، وعلم النباتات، والطب، وعلم الفلك، كل ذلك بنفس الأهمية مع

العلوم الدينية المذكورة سابقًا. فكان المسجد جامعةً للإسلامِ في العصور السابقة المجيدة، واستحق أن يُطلَق عليه اسم الجامعة؛ لأنه استقبل في ساحته كل علم من علوم العصر، مما أضفى على كُتَّاب المسلمين القدامى البهاء والتضافر، وهذا ما يلاحظه أي قارئ يقرأ في كتبهم ومؤلفاتهم ومصنفاتهم.

ولأن الإسلام دين الحق، فلا نجد بين مصطلحاته ديني ودنيوي؛ لأنه دين يشمل كافة أنشطة الإنسان على كافة الأصعدة. إن القرءان الكريم وضع خطًا فاصلًا بين الخير الذي ينفع الإنسان، والشر الذي يضره وينال منه؛ فالإسلام دين عقلاني. كما أنه لا يمكننا أن نقبل بأي إنسان يقول مثلما قال القديس أوغسطينوس: (*أؤمن أنه أمر لا يُصَدَّق*) [10]، وبالتالي أقول مرارًا وتَكرارًا: هل يستنكر القرءان الكريم الدين اللاعقلاني باعتباره دينًا واضح البطلان؟ هل يناشدُ القرءانُ الناسَ استخدام عقولهم – وبالأحرى الفطرة السوية – في أمور الدين؟ إن كل التجارب التاريخية كلها تثبت أن الفكر الحر ضروري إلى حد كبير للتقدم الإنساني، وفي الوقت نفسه تتدهور الدول التي تُهْمِلُ الجانب الإيماني بالله. فهل يعتبر الإيمان بالله والفكر الحر متضاربان؟

إن المذهب الفكري في الغرب يعتقد بأنهما متضاربان، وذلك بخلاف الأسلوب الفكري في الإسلام الذي يجمع بينهما في تناغم شديد. ففي القرون الأولى الناجحة للإسلام، جُمِعَ بين الإيمان بالله والفكر الحر في كل الأمور الحياتية؛ لأن الإسلام ليس من سلطته أن يفرض على الفكر قيودًا تُحِدُّ منه. لم يكن هناك سوى ذاتًا واحدةً لا يستطيع

---

(10) هي ترجمة للعبارة اللاتينية: Credo quia absurdum est، نُسِبَتْ إلى ترتليانوس Tertullian خطأ.

الفكر الحر أن يدركها أو يعلمها، تلك الذات هي الذات الإلهية وما يتعلق بها. ليس في مقدور الفكر مهما انطلق وتَحَرَّرَ أن يستوعب ذات الله ﷻ. إن الله – جَلَّ في عُلاه – رحيمٌ كريمٌ، يرحم ويهب من فضله وكرمه للإنسانية جمعاء على حد سواء. وقد وهب للإنسان هبةً ميَّزته عن بقية الكائنات، ألا وهي العقل. هذا العقل الذي أشاد به المسلمون باعتباره أسمى هبة وأرفع عطية إلهية من الله لصالح الإنسان، ومن أجل استخدامه بحرية تامة – أي استخدامه فيما هو خير والسعي وراءه، ونبذ المنكر، الأمر الذي يوفر له الغطاء الشرعي من الشريعة الغرَّاء. هذا بخلاف الكهنوت الذي كان له جميع الصلاحيات التي كانت لدى أتباع الديانات الأخرى؛ فالإسلام لا يعترف بالكهنوت، لأن طبيعة الفكر في الإسلام منوطة بالعقل البشري، مما صنع رجالًا منهم العلماء ومنهم القادة، ومنهم غير ذلك.

ومتى كان العقل غير مستنير، كان بمكانة قنديل بلا ضوء، وأية أعمال يقوم بها أي من الجنسين، رجلًا كان أو امرأة، فستكون أعمالٌ بلا وعي حقيقي، لأن تكريم الإنسان للعقلِ وتمجيده هو الأمر الذي يحمل قيادة التعليم الشامل الذي أشرتُ إليه سابقًا. فقد قال النبي ﷺ: (طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ) [11].

وبهذا، صار التعليم والعلم شاملًا للرجال والنساء قانونًا مقدسًا في الإسلام قبل ثلاثة عشر قرنًا قبل أن تتخذه حضارة الغرب قانونًا لها. وبحسب ما ورد أيضًا أنه ﷺ قال

[11] نص الحديث: (طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَوَاضِعُ الْعِلْمِ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ كَمُقَلِّدِ الْخَنَازِيرِ الْجَوْهَرَ واللُّؤْلُؤَ وَالذَّهَبَ). بدون زيادة (وَمُسْلِمَةٍ) التي وردت في النص المصدر الإنجليزي، حيث كتب المؤلفُ الحديثَ بالعربية. التخريج: سنن ابن ماجة – كتاب المقدمة – باب فضل العلماء والحث على طلب العلم – حديث رقم 229، والحديث من طريق أنس بن مالك رضي الله عنه.

(وهو حديث غير مُوَثَّق): (اِطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ فِي الصِّينِ) [12]، ويُظْهِرُ الحديث الآتي أهمية نشر المعرفة والعِلم بين الناس، وليستْ الأهمية في تعلم العلم وحسب، فقال سيدنا رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا) [13]. والصورة واضحة تمامًا عن الوضع الحالي للإسلام، فلدينا عديد من علماء الإلهيات – أي في العقيدة – إلا أن المعرفة المُستخدَمة هنا أوسع وأكثر من تلك التي قد تعلموها. ومما ورد في بعض الآثار: (إِنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَا عِلْمَ فِيهَا وَلَا عِلْمٍ لَا فَهْمَ فِيهِ وَلَا قِرَاءَةٍ لَا تَدَبُّرَ فِيهَا) [14]. وقال رسول الله ﷺ: (وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ) [15]. وقال الله ﷻ في كتابه العزيز: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝٩﴾ [الزمر: 9].

---

([12]) ليس بحديث؛ أي ليس ثابت أنه ورد عن سيدنا رسول الله ﷺ، وهو من الأقوال التي لا أصل لها في السُّنة النبوية، وقد رواه ابن عدي وأبو نعيم في (أخبار أصبهان) والخطيب في (التاريخ) عن أنس مرفوعًا.

([13]) صحيح البخاري – كتاب العلم – باب كيف يُقْبَضُ العلم – حديث رقم 100، والحديث من طريق عمرو بن العاص رضي الله عنه.

([14]) سنن الدارمي – باب من قال العلم الخشية وتقوى الله تعالى – رقم 305، والأثر عن سيدنا الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وبدايته: (إِنَّ الْفَقِيهَ حَقَّ الْفَقِيهِ ...).

([15]) سنن أبي داود – كتاب العلم – باب الحث على طلب العلم – حديث رقم 3643، والحديث من طريق أبي الدرداء الأنصاري رضي الله عنه.

وقال ﷺ: (فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ) [16]، فمَن أقام الصلاة، وآتى الزكاة، وصام الفرض والنوافل، وحجَّ البيت أو اعتمرَ، أو غيرها من الفروض والسنن والنوافل الدينية، فإن هذه الأعمال كلها لها مثوبتها الجزيلة عند الله ﷻ وحده، وتنتهي بانتهائها والفراغ منها. وأخبرنا أن مَن تعلَّمَ العلوم، ولم يعرف كيف يقوم على تطبيقها هو كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝﴾ [الجمعة: 5].

إن القرءان الكريم والرسول الكريم ﷺ لم يعترفا قط بمعنى أو مفهوم (مسلم جاهل)؛ ففي الحقيقة أن هذا يعتبر من باب جمع النقيضين. فكان من الصعب ومن النادر أن تجد مسلمًا جاهلًا في زمن السلف الصالح، مثلما كان من الصعب أن تجد مسلمًا فقيرًا كذلك. وهذا يعني أنه ينبغي على المسلم أن يتعلم دومًا، حتى لا يكون كالذي يحمل أسفارًا وهو لا يعلم ما بداخلها. فقد أعاد الإسلامُ مفهوم (الدين) إلى طبيعته؛ أي أن قبل الإسلام كان الدين قاصرًا على الشئون الدينية والتبشير بما هو آتٍ في الآخرة، أما الدين الإسلامي فهو دين لشئون الدنيا والآخرة معًا، وهذا يتضح تمام الإيضاح لكل مَن اتبع سبيله وتلا آيات كتابه الكريم. فمفهوم الدين في الإسلام ليس صعب المنال، فيُبشر أتباعه بما هو غيبي وحسب؛ بل إنه دين يُبشر أتباعه هنا في الحياة الدنيا، وهناك في الحياة الآخرة أيضًا. ظلَّ الوثنيون في شبه الجزيرة العربية يطلبون من الرسول الكريم ﷺ معجزةً

---

(16) سنن الترمذي – كتاب العلم عن رسول الله ﷺ – باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة – حديث رقم 2109، والحديث من طريق أبي أُمامة الباهلي ﵁.

من أجل تعزيز هذه الحقيقة التي أخبرها لهم في قول الله ﷻ: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝٦ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٧﴾ [الفرقان: 7، 8].

وقد أجاب الله تعالى على الوثنيين والمشركين جوابًا قاطعًا يبين فيه أن المعجزات ليست دليلًا على صدق الرسول الذي أرسله الله ﷻ، وليس الهدف منها إغواء العقل الإنساني وفتنته، أو ليس الهدف من المعجزات استغلال عواطف الناس ومشاعرهم باسم الإله. فقال الله ردًا على هؤلاء ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝٢٠﴾ [سورة الفرقان: 20].

هذا يعني أن الأقوام السابقين كانوا يعتقدون في أنبيائهم ورُسُلِهم القوى الخارقة، أو كأنهم كائنات غير طبيعيين ليسوا من أهل الأرض، وأن رسالاتهم وشرائعهم من أجل استغلال عقولهم باسم الله العظيم! فأجابَ اللهُ النبيَّ الخاتمَ سيدنا محمد ﷺ أن المُرسَلين السابقين من أهل الأرض، يأكلون ويمشون في الأسواق، ويتزوجون، ويُنْجِبون. ووفقًا لشريعة الإسلام، فالمعجزات ليستْ دليلًا على الألوهية، رغم أنها في حد ذاتها خارقة للعادات وباسم الله الحق، وإنما هي مرحلة معينة من التقدم الإنساني صوب الهدف، حيث تصير تلك القوانين الخفية عن جموع الناس ظاهرةً. إن لسيدنا رسول الله ﷺ معجزات كثيرة، ولكن لا يخطر ببال مسلم أن يقتبسها كدليل على رسالته الإلهية؛ لأن

القرءان الكريم وأقوال رسوله وأفعاله وحياته كلها ﷺ، كل شيء يتحدث عن نفسه، وجميعهم أعلى من المعجزات.

إن واقع أغلب المسلمين الذين يظهرون على الناس، باعتبارهم أصحاب التدين والفَهم الصحيح، جاهلون، ومؤمنون بالخرافات السائدة في هذا الزمن، وعلى استعدادٍ أن يتقبلوا كمًّا هائلًا من الأساطير والمعتقدات المنافية للعقل والمنطق، فإذا ما عَظَّمَ المسلمون عقلَ الإنسانِ – دون الخضوع لتلك الأساطير السائدة – سرعان ما تكون هذه الخرافات وغيرها مهددة بالانقراض والاختفاء؛ لأن العقل سيشك في أمرها لا محالة. ولأن عقل المسلم هو عقلٌ حرٌ في كل شئون حياته، فسيبحث تلقائيًا عن علوم هذا العصر لتحل محل تلك الخرافات والتُّرَّهات شريطة أن يمتثل لقواعد وسلوك معين فُرِضَ من منظور صحته الجسدية والعقلية والروحية. فعلى المسلم أن يستكشف كل ما هو جديد من علوم عصره، وأن يقبلَ ما يقره العقل منها، وذلك سيدفع به تلقائيًا إلى أن تتلاشى تلك التُّرَّهات والخرافات التي كانت منتشرة بين المسلمين. كل ذلك مشروط بشرط مهم للغاية، وهو ألَّا تُمَس عقيدته بأي شيء كان، وهي ركن الإسلام (*لا إله إلا الله؛ محمدٌ رسول الله*). هذه العقيدة التي أعلنها المُشَكِّك العظيم إدوارد جيبون [17] أنها: (*تتركب*

---

([17]) إدوارد جيبون: Edward Gibbon، (1794م: 1737م). مؤرخ إنجليزي صاحب كتاب (اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها). في كتابه هذا، أثار جدلًا قويًا وشديدًا حول مسألة فلسفية، حيث يُرجِع سقوط روما إلى هجمات البرابرة (حسب وصفه للمسلمين) وتفشي المسيحية، ويُرجِع أسباب انتصار المسيحية إلى مسائل نفسية وفلسفية، وطالب بإسقاط السبب الغيبي؛ أي التبشير بما هو في الحياة الآخرة (الخيالية)، ذلك السبب الغيبي الذي يقول إن انتصار المسيحية قد كان؛ لأن الله أراد لدينه الانتصار على الوثنية. لذلك؛ إن سبب وصفه بنبوءات سيدنا النبي ﷺ بأنها من نسج الخيال، كان ناتجًا عن عدم إيمانه بالأسباب الغيبية، وكان يتجنب الخوض في ذلك مع رجال اللاهوت.

من *حقيقة خالدة ونسج من الخيال الضروري*) لتصديق تلك الحقيقة التي بَشَّرَ بها أهله وأُمَّته. لكنه لم يعترف بأن النبوءات النبوية، التي وصفها بـالنسج الخيالي، قد تحققت فعلًا، وصار ت حقيقة تاريخية.

وتوجد رغبة كبيرة ومتنامية بين المسلمين في الفصل بين الشريعة الإسلامية الصافية والمأثورات الشعبية وحكاياتها التي أُضِيفَتْ على الشريعة. إن مدى ضآلة تأثير ذلك الفصل في المأثورات الشعبية وحكاياتها على الإيمان سوف يُدهِش هؤلاء النُّقَّاد، الذين ضللوا من خلال ممارسة الديانة المسيحية، فربطوا المأثورات الشعبية وحكاياتها بتعاليم المسيحية؛ ذلك الأمر الذي لم يفعله المسلمون قط.

ففي آيات القرءان الكريم يُحْظَرُ على الإنسان أن يخضع أو يعتقد في ظواهر الطبيعة، وتعاقب الليل والنهار، وخصائص الأرض والهواء والنار والماء، وأسرار الحياة والموت، لأن كل ما يراه الإنسان لا يتغير أبدًا قيد أنملة عن مسارها التي خُلِقَتْ عليها. إن ذلك في حد ذاته دليل على أن الإنسانَ ليس صاحب هذا العالَم؛ وإنما مجال إرادته الحرة والبحث والجَهد الْمُثْمِر ليس سوى سُّلطة مُفوضة ضمن السيادة المطلقة، وهي السيادة الإلهية لله تعالى خالق الكون ورب العالمين. وكقاعدة عامة؛ فإن الإنسان لا يمكن له أن يُدرِكَ إعجازه لنفسه ولذاته، وكذلك العناية الإلهية المحيطة به؛ لأن الإنسانَ لم يلمس أي تقصير منهما، فإذا شعر أو لمس تقصيرًا، فهذا معناه أن العناية الإلهية ونفسه (التي لا يمكن أن يدرك حقيقتها) ليستا من إله حقيقي لهذا الكون. فكل شيء في هذا الكون له قانون، وكل شيء يسير بمقدار دقيق، حتى إن عدم القدرة على التنفس، أو رفع الأصبع،

أو التحدث بكلمة، أو التفكير في أي شيء، لم يكن هباءً منثورًا؛ وإنما كل شيء يخضع لقوانين إلهية. فمسألة عبادة الأوثان أو غيرها كالفضاء والشمس والكواكب، يدل على أن عابِدَها يبحث عن العناية الإلهية التي ستدعمه في غايته الخاصة، غافِلًا عن احتياجات الخليقة وغاية الخالق.

فإذا ما خضعنا إلى الإيمان بوجود خالِق وغاية، فيجب أن نسعى للتوافق مع الإرادة الإلهية التي خلقنا الله لها، والتوافق مع الغاية التي من أجلها خُلِقَتْ؛ حينئذ يمكننا فقط أن ننشد الفلاح والنجاح. قال الله ﷻ في كتابه الكريم: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى۝٦ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى۝٧ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى۝٨﴾ [العلق:6، 7، 8]. وأذكرُ هنا كتابًا من تأليف رجل دين إسكتلندي، ظهر منذ بضع سنوات، الكتاب في حد ذاته ليس مثيرًا للاهتمام، إلا أنه أثار ضجة صغيرة في العالَم الناطق بالإنجليزية، كان عنوانه (القانون الطبيعي في العالَم الروحي). لم أذكر اسم الكتاب إلا لأقول إن الوحي في الإسلام يمكن أن يُوصَف بأكثر من ذلك؛ أي القانون الطبيعي في العالَم الروحي، وفي العالَم الاجتماعي، وفي العالَم السياسي. هذا يعني أن الإسلام ليس روحيًا وحسب؛ بل روحيٌ واجتماعيٌ وسياسيٌ وكل شيء. فجميع معجزات الرسل والأنبياء وكرامات الصالحين والأولياء لا تدعو إلى مجرد التصديق بهم؛ فكل ما هو واجب علينا هو التصديق بسيادة الله الكونية، وبرسالة سيدنا محمد ﷺ، وبجميع الرسل والأنبياء السابقين الذين هم بشر مثلنا، ولا نؤمن بهم باعتبارهم كائنات فضائية ليسوا من البشر أوحى الله إليهم رسالته – كما كان يُعْتَقَد قديمًا.

إن هذا الأساس العقلاني المنطقي القويم جعل أعظم الشعراء الألمان يوهان غوته [18] يعلنها بعد قراءته للقرءان الكريم كاملًا: (*إذا كان هذا هو الإسلام، فإن كل مفكر بيننا هو في الحقيقة مسلم*).

إن صوتًا، من الأصوات الأكثر علوًّا في العالَم المعاصر، يعترض على الثقافة الإسلامية بحُجَّة أنها غير مناسبة للفكر والظروف المواتية؛ وذلك لأنها تأسست على مبدأ، ولم تتأسس على الديموقراطية، أو الأرستقراطية، أو البلوتوقراطية، أو أي نظام آخر خضع للتجربة في العصر الحديث، بل ويمكن أن يضيف أي إنسان أنها تأسست على مبدأ الثيوقراطية الخالصة. ففكرة الثيوقراطية ليست ببعيدة، ويمكننا أن نتأمل ونُفكر فيها في أوقات العبادة فقط؛ أي أن المسلم أثناء عبادته يكون في حالة أقرب بكثير من الثيوقراطية، لأنه في معية الله ﷻ. ويعود الفضل لرجل من المسئولين الأوروبيين حين قال: (*في السياسة العملية ليس لله تعالى دور فيها*)، والعيب الرئيس في السياسة الأوروبية هو أنه لا يسمح بالحدث غير المتوقع؛ أي أنهم يعترضون على فكرة أن الله له تقدير آخر بخلاف تقديرهم للأمور المستقبلية، وهذا الأمر واضح للذين درسوا التاريخ المعاصر. فإذا ما خططَ رجال الدولة ووضعوا نصب أعينهم أن الله له تصريف الأمور في كل شيء، ستسير الأمور كما ينبغي، لا كما يعترض الأوروبيون على ما قد قدَّره الله، وهم أرادوا خلاف إرادة الله وقدره.

---

([18]) يوهان غوته: (Goethe)، (1749م: 1832م). أشهر أدباء ألمانيا المتميزين، وكان روائيًا وشاعرًا وفيلسوفًا وعالمًا لاهوتيًا وكاتبًا مسرحيًا.

وفيما يتعلق بملكوت الله [19] – وفق المنظور الإسلامي – يبدو لي أن حالة العالَم الحديث الآن لا تختلف عن حالة العصور الوسطى، حيث يجادل المعترضون على تشبيه خاطئ، نظرًا لأن الفكر الثيوقراطي الذي ساد أوروبا في العصور الوسطى ارتبط بالأساطير الكنسية وطقوسها، واعتبر أن ما عداه هو عالَم يسوده الشر. إن الأوروبيين يفترضون أن كل ثيوقراطية يجب أن تكون غير عملية، أو ينظرون إليها باعتبارها حُلم رجل زاهد أو متعصب! لذلك؛ فإن العلمَ الحديث يرفض تصديق المعجزات، وأصبح الناس في أوروبا يفكرون في استغلال ثروات هذا العالَم، وتحسين مكانتهم الاجتماعية كفرض عليهم يجب القيام به. وأقول لهم إنه يجب أن يفكروا في تحسين المكانة الاجتماعية لغيرهم، ليس التفكير في ذواتهم وحسب. ومن ثم؛ فإن غاية الثيوقراطية القائمة على المعجزات أنها تنظر إلى هذا العالم باعتباره ولاية الشيطان، وتطالب كل الناس بالخلاص والفرار منه. فيمكن اعتبار ذلك قديمًا حقًا، ولا يتناسب مع الظروف الحديثة البتة. وعلى النقيض تمامًا فيما يتعلق بالثيوقراطية القائمة على كل ما هو طبيعي وفعلي. إن مثل هذا الأمر هو الذي تحتاج إليه الحياة احتياجًا شديدًا، وهو أنموذج لا يمكن أن تهتز أساساته باكتشافات العلم الحديث أو فكر الإنسان؛ لأنهما موجودان في الطبيعة نفسها. فكلما زادت عجائب العالم الطبيعي، زادت عظمة الله وسلطانه في قلب المسلم.

يقدم الإسلامُ نظامًا سياسيًا واجتماعيًا كاملًا كبديل الاشتراكية والفاشية والنقابية والبلشفية، وجميع المذاهب الأخرى المهددة بالانقراض بوضوح. فالإسلام يتمتع بميزة كبيرة على كل ما سبق ذكره من الأنظمة، حيث مُورِسَ النظام الإسلامي بنجاح، وكلما

---

(19) ملكوت الله: أشرتُ إليه بالتفصيل في المحاضرة السادسة: التسامح.

زاد النجاح، كان ذلك أدعى إلى مزيد من النظام الإسلامي. إن المسلمين – في نهاية المطاف – يؤمنون أنه يجب على جميع الدول أن تتبنى هذا النظام، سواء أكانت تلك الدول مسلمة أو غير مسلمة، لأن قوانينه هي القوانين الطبيعية (أو الإلهية) التي تحكم مسيرة التقدم البشري، وأن الإنسانية – دون وحي إلهي – سيبتكرون ما يناسب زمنهم، لكن سيكون ذلك من وحي الإنسان الناقص لا من وحي الإله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

لكن ليس هذا فقط لأن النظامَ الإسلاميَّ ثيوقراطيٌّ، فالمسيحية في العصور الوسطى كانت آنذاك تحت عبودية الكهنة الذين – فيما بعد – يدعون النبي محمد ﷺ بالنبي الكذَّاب، ولم يكن يُسمح لأحد حتى أن يُفكر في أن دينه هو خير للبشرية أم لا. فقد كانت الحرب بين أتباع الديانتين عائقًا قويًا حتى وقتنا الحاضر، مما يديم التعصب. وليس معنى أن انخفاض ذلك العائق بين أتباع الديانتين أن المسلمين سيعرفون سر طريق التقدم البشري، وإنما سلوكهم ووضعهم الآن في حالة يُرثى لها بسبب ابتعادهم عن شريعة الإسلام، كما أن هذه الحالة بمنزلة وَجهة سيئة للغاية لشريعة الإسلام؛ أي أنها حالة تسيئ للدين. فيعتقد بعض الناس أن الإسلام هو المسئول عن تراجع المسلمين وتدهورهم، لكن الحقيقة بخلاف ذلك، أن الإسلام ليس مسئولًا عن هذا أبدًا، وإنما لو نظرنا إلى الكنيسة المسيحية، سنشيد بالتقدم المادي للمسيحية؛ كان للمسيحية كهنوت بلا حرية في الفكر، والآن يُشار إلى القرون التي كانت فيها الكنيسة المسيحية هي الأعلى على أنها العصور المظلمة، والتي لم يكن للإسلام فيها كهنوت، وكان يتمتع بحرية الفكر.

كانت تلك العصور المظلمة هي التي ساد فيها الإسلام عصورًا فريدة، مما يدل على أن ابتعاد المسلمين عن دينهم هو الذي أفسدهم وعَمِلَ على تأخرهم وتدهور ثقافتهم بتقبلهم شيئًا بسيطًا لا يمكن تمييزه عن الكهنوت المسيحي – أو على حد التعبير القرءاني: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 31]. أضف إلى ذلك؛ عدم اكتراثهم بطلب العلم والمعرفة في أي مكان من منظور (الواجب الديني)، وتجاهلهم للفكر الحر، وعدم ثقتهم في العقل، كل ذلك من أسباب تخلف المسلمين وتراجعهم وتأخرهم. ففي فترة معينة من تاريخ المسلمين، بدأوا يهملون نصف الشريعة – تقريبًا – وهي التي أمرنا الله فيها بالتأمل والسعي وراء العلم والمعرفة ودراسة الطبيعة. بدأ في تلك الفترة مسيحيو الغرب العملَ وفقًا لهذا الجزء المُهْمَل في الشريعة الإسلامية، فتقدموا وازدهرت معارفهم بالرغم من كل ما عانوه من الحرمان الكنسي (الحِرْم) [20]. فالسبب الرئيس الذي من أجله تقرَّرَ عدم وجود كهنوت في الإسلام هو أن الكنيسة عدو لتقدم

---

([20]) الحِرْم: ما يساوي (التكفير) في الإسلام.

(عقوبة تنزلها الكنيسةُ على بَعْضٍ من أبنائها "بهدفِ الحَضِّ على التوبة"، وينتهي الحِرْمُ بإعلانِ التوبةِ. ماهيةُ الحِرْمِ، الذي نصّ عليه الكتابُ المُقَدَّسُ، يفضي إلى قطعِ الشركةِ بَيْنَ الشَّخْصِ والكَنِيسَةِ، ومِنْ ثَمَّ الشراكةَ في الإيمانِ مع سائرِ المسيحيّينَ. يُقَسَّمُ الحِرْمُ إلى نوعَيْنِ، الحِرْمِ الصَّغِيرِ، وبموجبه يُمْنَعُ الْمَرْءُ مِنَ التقدُّمِ لنَيْلِ أَحَدِ الأسرارِ السبعةِ المقدسةِ، لكنْ تُقَامُ عَلَيْهِ أشباهُ الأَسْرارِ حَتَّى صلاةُ الجنازةِ. الحِرْمُ الصَّغِيرُ يكون تلقائيًا، فنُصْحُ شخصٍ بالإجهاضِ أو حضِّهِ على الانتحارِ مثلاً، يؤدّي تلقائيًّا إلى الحِرمِ الصَّغيرِ وقطع الشركةِ مع الكَنِيسَةِ الجامِعةِ. أمَّا الحِرمُ الكَبيرُ، فَيُمنعُ بموجبهِ المَرءُ من أيّ عَمَلٍ كَنَسِيٍّ أو روحانيٍّ، حتى إشهارِ التَّوبةِ، ويكونُ شخصيًّا، ويضعُهُ البابا أو مجمع مسكوني؛ غيرَ أَنَّهُ قد يكونُ عامًّا أيضًا، فمثلًا حَكَمَتِ الكنيسةُ الكَاثُولِيكِيَّةُ على أتباعِ الأَحْزَابِ الشُّيُوعِيَّةِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا الله وحارَبُوا الدِّينَ بِالحِرمِ الكَبيرِ لا يُفسحُ منهُ سِوَى البابا).

المصدر: مطر، نعمة الله، **فتاوى لاهوتية**، صفحة 76.

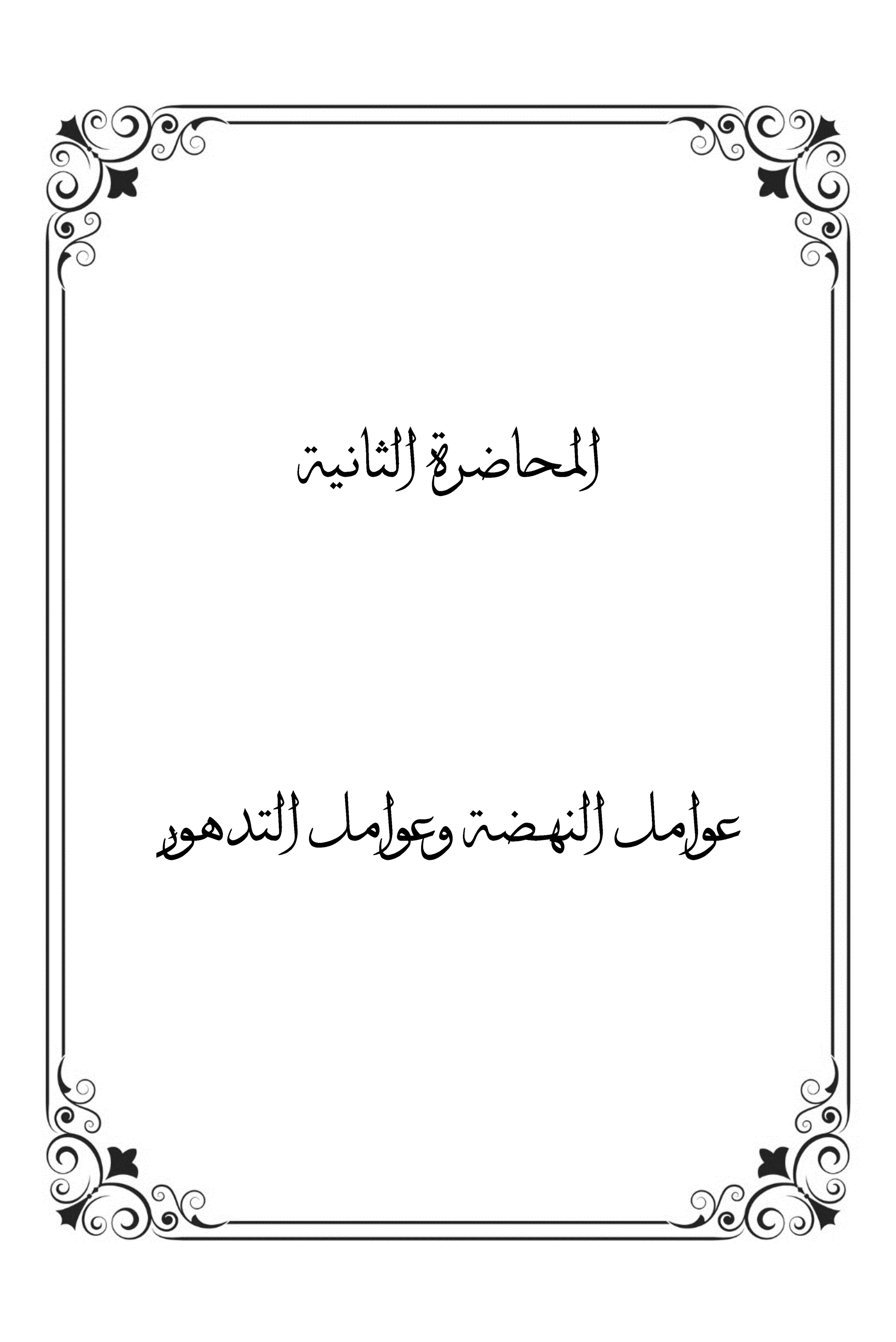
الإنسان، وبالتالي فهي تعارض الدين الصحيح، والذي يظهر هدفه في القرءان الكريم أن يكون التقدم وتحريره للإنسانية، وليس ركودها واستعبادها. فالمسلمون يعرفون الآن أن ضعفهم وتراجعهم وتخلفهم هو من صُنع أيديهم لا من الإسلام، وأنهم يستطيعون العودة إلى مكانتهم بين الأمم بالرجوع إلى الإسلام وشريعته.

قد تظنون أنني في هذه المحاضرة خرجتُ عن موضوعي المحدد، وهو الثقافة، إلى المجال الديني، فالثقافة الإسلامية ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالدين؛ لذا، فهي مُشبعة بفكرة سيادة الله العالمية، بحيث لم أتمكن من أن أعرض محتوى محاضرتي عن (الثقافة) وحدها دون التطرق إلى كل ما يوحي بأنه ضروري الذي قدمته في البداية. ففي عظمة الثقافة الإسلامية وفي تدهورها – سواء قمنا بأخذ عينة منها في مجال العلم، أو الفن، أو الأدب، أو الرفاهية الاجتماعية – فإن لها هذا الاستدلال الديني في كل مكان دائمًا، فهي مثال للثيوقراطية [21] الكاملة. وهذا واضح في كل إنتاجاتها المختلفة، بعضها بعيد عن كونها ما يُسمى دينيًا عادةً، وهذا ما يجعل القومية الإسلامية متداخلة مع القومية العالمية؛ لأن قبول سيادة الله العالمية يستلزم قبول الحقيقة التكميلية للأخوة البشرية العالمية.

❁❁❁

---

([21]) الثيوقراطية الكاملة: لا يعنيها المؤلف، لأنه كان مسيحيًا كاثوليكيًا – قبل اعتناقه الإسلام – وقد انتقدها بشدة نقدًا لاذعًا في هذه المحاضرة وفي غيرها، واعتبرها من الأمور الأسطورية الخرافية في معتقد المسيحيين. إن قصد المؤلف هو أن تشريع الإسلام من عند الله، وهو تشريع قد اكتمل في القرءان والسُّنة النبوية، فلا يمتلك حاكم أو محكوم أن يضع تشريعًا من عند نفسه، والحاكم يختاره الشعب، ومهمته: تنفيذ شرع الله. فلا يوجد ما يُسمى برجال الدين في الإسلام، ولا يوجد كهنة أو ثيوقراطية مسيحية بالمفهوم الأوروبي.



# المحاضرة الثانية

# عوامل النهضة وعوامل التدهور

إن الجانب الثقافي الخاص للإسلام، الذي أتحدث عنه الآن، هو إنسانيته؛ أعني بذلك ليس الجانب الخيري تجاه جميع الناس وحسب، بل أعني نظرته العالمية أيضًا. لا يوجد في الإسلام تفرقة بين الناس، ففي ملكوت الله ﷻ الكل سواء، والشريعة الإسلامية هي قانون الله لجميع البشر. وربما كان غير المسلمين الذين يطبقون شريعته أكثر حظًا من المسلمين الذين يتظاهرون بمظاهر التدين ويخالفونها. ومن هذا المنطلق، قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴿١١﴾﴾ [الرعد: 11].

وكما قلتُ سابقًا، إن الاختبار ليس من مهام العقيدة؛ وإنما العمل، ومن خلال ذلك العمل الظاهري يتم الحكم على صاحبه في الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة.

أظن أنكم جميعًا تعرفون الخطوط العريضة لمسار التاريخ الإسلامي. يمكن تقسيمه إلى ثلاث فترات أو إلى ثلاث دول أو إلى ثلاث لغات في العالم الإسلامي: العربية، والفارسية، والتركية. كما أظن أن جميعَكم قد سمع تلك المقولة الرائجة التي تقول إن الإسلام في باكورة عهده انتشر بحد السيف. تأملوا فيما يقوله الله ﷻ في محكم آياته:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: 256]. وقال في موضع آخر موضحًا الغاية من القتال والحرب في الشريعة الإسلامية،

وأنه للحماية: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝١٩٠﴾ [البقرة: 190].

كما يوجد نصوص قرءانية عديدة يمكنني الاستشهاد بها لإثبات أن المسلمين مأمورين بأمر إلهي بعدم استخدام القوة تجاه أي شخص مهما كانت معتقداته أو آراءه، ولم أجدْ نصًا عكس ذلك. وأيًا كان الذي حدث سابقًا في تاريخ المسلمين، فلم يكن من المحتمل قط أن يكونوا قد تعمَّدوا مخالفة هذه النصوص القرءانية؛ لأن تلك النصوص هي الناموس الإلهي الذي خضع له الكبار والصغار بإخلاص شديد.

لقد كانت الحروب في الإسلام في حياة النبي ﷺ وفي زمن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم دفاعًا عن النفس، وبدأ شنّها وفق صريح الآيات القرءانية والسُّنة النبوية التي تراعي الجانب الإنساني أيما مراعاة، وخصوصًا ضد عدو لم يعرفه أحد على وجه الأرض من قبل. فلم تكن البراعة الحربية أو شجاعة المسلمين الأوائل هي التي مكَّنتهم من غزو نصف العالم المعروف آنذاك، وتحويله إلى درجةٍ من التحول والتأثير بالمسلمين ما زالت قائم إلى الآن، وإنما كان عدلهم وإنصافهم وإنسانيتهم هو الذي رفعهم قدرًا على الآخرين.

عليكم أن تتخيلوا وضع عامة الناس في الدول المجاورة، كالمصريين، والسوريين، وشعب بلاد ما بين النهرين، والفرس، ستجدون أن تسعين بالمائة منهم عبيد؛ قد كانوا دائمًا على هذا الوضع، والذي لم يتحسن بمجيء المسيحية. كان دين الحُكَّام والقادة فوق عامة الناس؛ لذا كان العامة مُسْتَعبَدون من سُلطات النبلاء، وكانت عقولهم تخضع خضوعًا تامًا للكهنة والرهبان، ذلك الأمر الذي دفع عامة الناس إلى الحلم بالحرية التي

بُشِّروا بها في الحياة الآخرة. فكانت طبقة النبلاء والأكابر تتمتع بكافة أنواع الرفاهية، فكانت هذه الثقافة لا تدل إلا على الفساد والانحلال لا على التقدم، أما عن وضع عامة الناس فكان وضعًا يُرثَى له. إن الرسائل التي حملها سفراء سيدنا النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء، والقادة والشعوب، يدعوهم فيها إلى التوحيد، وإلغاء الكهنوت، وإلى الخضوع لله وحده. فكان سوء معاملة بعض الملوك والأمراء لبعض سفراء النبي ﷺ أحدث ضجَّة في تلك البلاد، خصوصًا عندما استعد ملوك هذه البلاد وأمراؤها استعدادًا حربيًا لتدمير هذا الدين الجديد، فبدأت حشود الناس تُحَذِّرُ القادة من تدمير المسلمين لهم باعتبار أن دينهم الجديد دينٌ شيطانيٌّ. أما الحقيقة أن المسلمين دخلوا بلادهم فاتحين، وجذبوا قلوب تلك الشعوب بسلوكهم ومعاملاتهم الراقية.

على مدى فترات التاريخ كله حتى هذه اللحظة، يصير المحتل تحت رحمة الغازي، بغض النظر على مدى استسلامه التام له، وبغض النظر عما إذا كان من نفس دين الغازي أو المحتل أم لا. إن هذا كله خارج نظرية الحرب في الإسلام، ولا يقرها أبدًا؛ لأنه وفقًا لقوانين الحرب في الإسلام فإن الذين اعتنقوا الإسلام من أصحاب الأرض على قدم المساواة مع الفاتحين في كافة الأمور؛ لأنهم صاروا على دين الإسلام. وعلى الجانب الآخر؛ إذا اختار أصحاب الأرض البقاء على دينهم، عليهم فقط دفع الجزية حتى يستطيع الفاتِحون أو الغزاة المسلمون الدفاع عنهم من أي خطر خارجي، ومن ثم تأمينهم وحمايتهم حماية كاملة حتى يتسنَّى لغير المسلمين أن يمارسوا شعائرهم بحرية تامة.

وقد أُعْطَى تفسيرًا خاطئًا تمامًا للبدائل: (الإسلام أو السيف)، كما لو كان السيف يعني الإعدام أو المذبحة. إن معنى (السيف) الحرب، والبدائل كانت: الإسلام (الاستسلام بالمعنى الروحي)، أو الإسلام (الاستسلام بالمعنى الاعتيادي)، أو الاستمرار في الحرب.

وقد فعل المسلمون شيئًا لم يفعله أي من الغزاة في أي عصر من العصور الغابرة، وهو أنهم تزاوجوا وتفاعلوا مع أهل مصر، وسوريا، وبلاد الرافدين، وبلاد فارس، وكل بلاد شمال إفريقيا. فظهور دين الإسلام لم يجلب الحرية السياسية لشعوب تلك البلاد وحسب؛ وإنما جلب لهم الحرية الفكرية أيضًا بعد تبدُّدها واختفائها من الفكر البشري إبان خضوعهم لسُّلطة الكهنة والكهنوت. هذه الحرية التي جعلتهم يندمجون مع المسلمين في حياتهم لدرجة أنهم زعموا أن اللغة العربية هي لغتهم الأم، باستثناء بلاد فارس. فإذا سُئِلُوا عن جنسيتهم، يجيبون: نحن أبناء العرب. كما أنهم ما زالوا يعتبرون إمبراطورية الإسلام هي ملكوت الله على الأرض.

لقد كانت النتيجة مثمرة أكثر مما كان يتوقعه أهل هذه البلاد التي لم تستنشق معنى الحرية من قبل الفتوحات الإسلامية، فازدهرتْ حضارة رائعة في الأجيال التالية لهم في أعمالهم العلمية والفنية والأدبية. وبالرغم من كَثرة الحروب المتواصلة، فإن تلك الفترة كانت من أكثر الفترات المُبْهِجَة في التاريخ. لذا؛ يجب ألَّا تأخذوا كل كلمة بمعناها الحرفي قد تقرأها من الكُتَّابِ الأوروبيين، ولا تحكم عليهم من خلال تلك الكُتُبِ؛ لأنكم بذلك تقيمون دعاية للعدو في ذلك الوقت، كما هو الحال الآن.

في فترة شبابي، رأيتُ عددًا كبيرًا من مسيحيي سوريا – وهم أحفاد الفاتحين ولم يكونوا قد اعتنقوا الإسلام – كانوا يتحدثون عن الفترة الإسلامية المبكرة، وكانوا يصفونها بـ (العصر الذهبي)؛ حيث كان الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ وجهة مشرفة تمامًا لدينه. ففي بعض الأحيان يكون الفلكلور أو الحديث المتداول بين الناس أكثر صدقًا من التاريخ المكتوب، ومع ذلك؛ فقليل من البحث في التاريخ (المكتوب) ستكتشفون أن التعصبَ تجاه المسيحيين نادرٌ جدًا ما تجدونه في زمن الخلفاء الراشدين حتى ما بعد الحروب الصليبية، على الرغم من أن المسيحيين لم يكونوا دائمًا راعين لمبدأ التسامح. كان ذلك سبب في اعتقاد كثير منهم أن إهانة دين الإسلام علانيةً هو فضيلة دينية، وتفشت هذه الظاهرة حتى خلقتْ هوسًا دينيًا في أزمنة مختلفة ببعض البلاد. أما طريقة الحُكَّام المسلمين كانت عاقلة وهادئة، وهي من أعظم الأمور التي رفعت من شأن المسلمين على مر العصور. يجب عليَّ الآن أن أتحدث إليكم بشيء من التفصيل حول موضوع التسامح الديني، لذا سأعرض على مسامعكم مقتطفًا من كتاب (إسبانيا العربية) لـ ويشو [22]:

*(إنه، وبلا شك، أن وباء الهستيريا الدينية الذي حدث في قرطبة في منتصف القرن التاسع، هو السبب في معرفتنا مزيدًا عن حالة الكنيسة، في ذلك التاريخ، أكثر من أي وقت آخر خلال الحكم الإسلامي. مُنِعَ المسيحيون من دخول المساجد أو الحط من قدر النبي، وذلك تحت طائلة اعتناق الإسلام أو الموت. يقول فلوريث (كاتب إسباني): (كانت هذه هي أكثر الجرائم إجرامًا في حق الشهداء في ذلك الوقت، لذلك، على الرغم*

---

([22]) عنوان الكتاب بالإنجليزية (Arabic Spain: Sidelights on Her History and Art) من تأليف: برنارد ويشا (Bernard Whishaw).

*من تعظيمهم للإيمان، ظل القُضاة غير متأثرين بما يسمعونه عن محمد أو أتباعه*). ووفقًا لقول الجنرال كرونيكا Crónica General، فإن اثنين من "الشهداء" في ذلك الوقت: روجيليو وسيرفيوديس Rogelio and Serviodes، دخلا مسجد قرطبة الكبير، ولم يكتفوا بـ "التبشير بالإيمان" وحسب؛ بل "بطلان دعوة محمد والجحيم هو المصير المحتوم لأتباعه" أيضًا. فليس من الغريب علينا الآن أن نعلم أن هذا الفِعل قد كلفهم حياتهم. أما من جانب الحُكَّام المسلمين والمسيحيين، فكانوا أكثر عقلانية، وبذلوا قُصارى جَهدهم لمنع هؤلاء المتشددين من إلقاء أنفسهم في التهلكة. كما ظهرت تلك العقلانية في تصرف ريكافريد Recafred – أسقف إشبيلية "851: 862"، فمنع المسيحيين من الاستشهاد ما لم يحاول حُكَّامهم – أي المسلمين – مِن أن يردُّوهم عن إيمانهم، وسجن "القساوسة" الذين عصوه. بعد ذلك؛ عيَّنه عبد الرحمن الثاني مُطران أندلسية، ليقوم بنفس الشيء الذي فعله في قرطبة، وهناك سَجَنَ عددًا من المسيحيين بما فيهم: القديس أولوجيوس St. Eulogius – أسقف قرطبة، حتى يُبعِدهم عن أي أذى منهم تجاه المسلمين).

سُجِّلَتْ حالة اندلاع هستيريا دينية مماثلة في بلاد الشرق، والتي حملها المسلمون بصرامة شديدة. كان المسلمون يعاملون المسيحيين بأقصى درجات التسامح الديني في الشرق والغرب.

أثبت ج. ك. ناريمان – المستشرق البارسي الشهير – من خلال بحثه أن قصة المذبحة الجماعية وطرد الغُزاة العرب للزرادشتيين من بلاد فارس، ليس له أساس تاريخي. في الوقت الحالي، يوجد زرادشتيون في بلاد فارس. اعتاد المسيحيون في سوريا

على التحدث عن عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية باعتبارها عصرًا ذهبيًا ناطقًا بشهامة المسلمين؛ الأمر الذي أدهشني حينئذ بالفضول، وذلك لأن الأمويين قد أُطْلِقَ عليهم اسمًا سيئًا بوجهٍ عام، وذلك راجع إلى بعض شخصيات الأمويين الذين وصلوا إلى سُّدة الحُكم بطريقة غير مَرضيَّة. أما من الجانب التاريخي؛ فالإسلام يدين بالكثير لبني أميَّة، فقد حافظوا على الطابع العقلاني البسيط للإسلام، وهو الطابع العربي، وحافظوا على العلاقة الكريمة بين الحاكم والشعب في دمشق، والتي كانت من خصائص خلافة المدينة المنورة. ففي أيامهم، كان الخليفة يصعد المنبر، ويلقي خطبة الجمعة في المسجد. فضلًا راجعوا كتاب (الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية) [23].

(قيل لعبد الملك: لقد أسرع إليك الشَّيب. قال: شيَّبني صعودُ المنابرِ والخوفُ من اللحنِ. وكان اللحنُ عندهم في غاية القبح) [24].

كان للدولةِ الأمويةِ الفضلُ في كبح جِماح الطائفة الكنسية المتشددة، والتي أطلَّتْ برأسها في ذلك الوقت، وأفسحوا المجال لتشكيل هيئة فتوى صمدتْ في مواجهة الطائفة الكنسية المدرسية [25]، وبالتالي علتْ راية الإسلام لعدة قرون. ثم جاء عصر عمر بن عبد

---

([23]) تأليف: محمد بن علي بن طباطبا المعروف بـ(ابن الطقطقا).

([24]) طباطبا، محمد بن علي، **الفخري في الآداب السُلطانية والدول الإسلامية**، ص 124.

([25]) المدرسية أو المكتبية أو السكولانية Scholasticism: هي تُطلَق عادة على مدرسة فلسفية سادت في أوروبا في العصور الوسطى، وكانت تستخدم منهجًا نقديًا في التحليل الفلسفي، بناءً على نموذج مسيحي ألوهي ولاتيني، وكانت هذه الفلسفة مسيطرة على أوروبا من 1100م إلى 1700م. وأُطلِقَ عليها (المدرسية) لأنها مشتقة من الكلمة اللاتينية التي تعني أي شيء متعلق بالمدارس، حيث يختار المُعَلِّمون كتابًا لمؤلف أو عالم معروف كموضوع مطروحًا للدراسة. ومن خلال قراءته بالكامل وبأسلوب نقدي، فإن الدارسين يتعلمون تقدير نظريات المؤلف. راجع: https://ar.wikipedia.org/wiki/مدرسية_(فلسفة)

العزيز ﷺ من الأمويين مشابهًا للخلفاء الراشدين، الذي لاذ بالفرار غربًا إلى إسبانيا، حيث وضع حجر أساس التقدم والنهضة لأجيال عديدة، فكان فضله على سائر الدول في الغرب إلى الآن.

ومن المهم للباحث في التاريخ أن يتذكر أن خلافة بني العباس مثَّلتْ حلًا وسطًا بين السُّنة من الأمويين والشيعة من الفاطميين. كان الأمويون والعباسيون أنفسهم من الشيعة؛ فعندما تقرأ في سجلات المسلمين الإسبانية عن الشيعة، ستجد أنهم ليسوا أولئك الذين نُسميهم شيعة؛ ولكن الأشخاص الذين نعتبرهم من السُّنة، أتباع بني العباس، ومعارضي بني أميَّة. كما أنه من المهم أيضًا أن يتذكر ذلك الباحث في التاريخ أن خلافة بني العباس ارتكبتْ جريمة الخيانة والغدر مرتين. المرة الأولى حين أقنعوا آل بيت سيدنا رسول الله ﷺ بأن واحدًا منهم سيجلس على عرش الخلافة، والمرة الثانية حين أقنعوا جمعًا غفيرًا من السُّنة – الذين كانوا حتى ذلك الحين – من أنصار بني أميَّة، لكنهم اعترضوا على توريث الخلافة، وأرادوا إعادة النظام الأصلي في اختيار الخليفة من بين المسلمين والأصلح لخدمة الناس أجمعين. لكنهم خانوا الطرفين: آل البيت النبوي وأنصار بني أميَّة، وقاموا بتوريث الخلافة، وقتلوا ذرية بني أميَّة بأكملهم، باستثناء فرد واحد لاذ بالفرار إلى إسبانيا. كانتْ ذرية الأمويين محبوبة في بلاد سوريا، ونجد، ومصر، وفي جميع أنحاء شمال إفريقيا، وإن أي فرد منهم ظلَّ على قيد الحياة سيكون منافِسًا قويًا؛ وذلك لأنهم اضطهدوا آل البيت النبوي بسبب مزاعمهم في الخلافة. وبالتالي؛ إنه من الخطأ أن نعزو الطابع الديني للصراع بين تلك الفصائل. لقد كان النزاعُ نزاعًا قبليًا في

شمال الجزيرة العربية في مواجهة جنوبها، ويعود تاريخ ذلك النزاع إلى عصور ما قبل الإسلام.

انتقل الصبغة العربية البسيطة والعقلانية إلى الحكومة الإسلامية مع آخر الأمويين إلى إسبانيا، ثم نُقِلَتْ خلافة الشرق إلى بني العباس، الذين كانوا بالفعل تحت النفوذ الفارسي، ثم نُقِلَتْ العاصمة من سوريا إلى بلاد ما بين النهرين. مدينة بغداد؛ تلك المدينة في السابق أكثر روعة مما عليها الآن؛ حيث ظهر إلى الوجود منها كيفية تخطيط المدن، والصحة العامة، والشرطة، وإنارة الشوارع. في تلك المدينة وصلت الثقافة الإسلامية إلى ذروتها، باستثناء إسبانيا، التي كانت مزيجًا من البساطة العربية والروعة الفارسية. وحسب ما عبَّر به السيد لي سرانغ Guy Le Strange: (كانت قرطبة، والقاهرة، وبغداد، ودمشق – في تلك الفترة من تاريخ العالم – هي المدن الوحيدة في العالم التي كانت بها أنظمة للشرطة ومصابيح لإنارة الشوارع). إن التبجيل وأسلوب الخطاب الذين كان الخلفاء الراشدون والأمويون يرفضونهما – باعتبارهما تجديفًا – تم قبولهما أولًا عند خلفاء بني العباس.

ثم اسْتُحْدِثَ نظام الزَنانة [26]، وأصبحت المرأة في طبقة عليا في الأمة الإسلامية، بدلًا من كونها شريك أساسي في حياة المسلمين الأوائل الحربية وغيرها. كان هناك اتجاه لتحديد دين الإسلام وفق منظور هذه الطائفة، إلَّا أن عقلاء المسلمين وحُكماءهم منعوا

[26] هو منزل النساء (الحريم) عند مسلمي الهند، أو مكان مخصص لتجمع النساء في المنزل.

ذلك لمكانتهم العلمية العالية في الدولة، فلم يكن من الخليفة إلَّا أن يخضع لهم؛ لأنه يعلم أن خضوعه لحُكماء المسلمين والعلماء سيُمْدَح، وستُرفع مكانته عاليًا بين المسلمين.

أصبح الناسُ، لفترة طويلة من الازدهار، غير محاربين. لم تخل الإمبراطورية من الحروب والنزاعات الصغيرة بين الحين والآخر في داخلها، لكنها لم تؤثر على جماهير الناس لأسباب سأعرضها لكم عندما أتحدث إليكم عن قوانين الحرب. كان كثيرٌ من دارسي القرءان الكريم، المشهود لهم بالحكمة والوقار، أشاروا إلى خطورة هذه الحالة التي تشهدها الإمبراطورية بين الحين والآخر، لكن – على الجانب الآخر – كانت الطائفة الكنسية المتشددة تتملق إلى الخليفة، وتؤكد له أن الله يحبه ويحميه، وأن مجد إمبراطوريته سيستمر إلى الأبد مهما حدث من نزاعات وحروب صغيرة بداخلها.

ثم أُسْنِدَ – بعد ذلك – أمر الدفاع عن الحدود إلى القبائل المتقاتلة، وعلى رأسهم الأتراك، الذين صاروا الحرس الشخصي للخليفة. كما أن هؤلاء الحرس سرعان ما أصبحوا أصحاب الرأي عند الخليفة؛ لأنهم يتمتعون بالبساطة، والصراحة، وكذلك القوة والرأي السديد، ولم يُضْمِروا كراهيتهم لترف الأمراء ورفاهيتهم، وللأمراء الضعفاء الذين نجحوا في الاستيلاء على عرش الخليفة المأمون وهارون الرشيد. ثم قاموا بقتلهم أو إبعادهم واحدًا تلو الآخر، لكنهم أوجدوا حالة من القوة للإمبراطورية المتدهورة، التي لولاهم لهلكتْ تمامًا، حتى ظلت العاصمة المركزية في حالة قوة. وأصبح حكم الخليفة في ذلك الوقت شكليًا على المقاطعات النائية، ثم أمر بتعيين الحاكم المحلي في حفل تنصيب الحاكم الجديد، والحفل له قيمة دينية في نظر الناس. ثم أعلنت بلاد فارس نفسها مستقلة، وقد غزا الفاطميون أو العُبيديون مصر، وهم ينحدرون من ذرية

سيدنا محمد ﷺ، إلا أن أهل السُّنة – في ذلك الوقت – نفوا ادعاء نسبهم إلى النبي ﷺ، وقالوا إنهم من نسل يهود كربلاء. فأقام الفاطميون دولة الخلافة المنافسة، ففتحوا فلسطين، وسوريا مرتين، والحجاز مرة واحدة.

استمرت دولة الخلافة العباسية في بغداد لمدة خمسمائة عام كاملة، لكنها كانت خلافة شكلية وحسب، لأن خلال آخر ثلاثمائة وخمسين سنة من تلك المدة، انتقلت السُّلطة الفعلية إلى الأتراك، وكانت هيبتها السياسية من مكانة الزعماء الأتراك: السلاجقة – طغرل بك، وألب أرسلان، وملك شاه. ثم جاء بعدهم: عماد الدين زنكي، وابنه نور الدين زنكي، ثم الأيوبيون، ومنهم: صلاح الدين الأيوبي (في فترة الصليبيين)، والملك العادل، والملك الكامل، وهكذا. كان التغيير في الحُكَّام والأمراء، أما الحضارة فظلَّتْ عباسية، فالحالة العامة للناس رغم تلك التغيرات، ظلَّتْ محتفظة بعلوها ومكانتها في جميع أنحاء الإمبراطورية الإسلامية؛ حيث شهدت تلك الفترة ازدهارًا في التعليم، وفي الصحة العامة، والأمن العام، والحرية أيضًا.

كان ازدهارها موضع حسد العالم الغربي، حيث تنافست شركاته التجارية مع بعضها البعض للحصول على امتياز التجارة مع الإمبراطورية الإسلامية. إن ما يجب أن يكون عليه هذا الازدهار في أوج ظهوره، يمكن للمرء أن يخمنه من هذا القول العَرَضي لكاتبة إنجليزية حديثة، والتي ليست في صالح المسلمين، بل كان قولًا يتعلق بإسبانيا المسيحية: (*بصرف النظر عن الازدهار الذي أثمر عن تجارتها المتميزة مع العالم الجديد في القرن السادس عشر، بدأت صناعتها وازدهارها الحقيقي، بينما كان ذلك الازدهار قد*

*اتخذ منحنى الهبوط والتدهور تحت حُكم الملوك الكاثوليك، واستمر ذلك الهبوط حتى طرد الموريسكيين [27]؛ أي آخر المسلمين المتبقيين، عن طريق فليب الثالث، الذي أكمل الخراب والدمار الذي بدأته إيزابيل لصالح المعتقد الديني المزعوم).*

فقد كان الفلاحون أقنانًا [28] – في بلاد أخرى – وكذلك في أوروبا في نفس الفترة، مرتبطين بالأرض التي يزرعونها، وكانوا في منزلة مستضعفة وحالة عبودية، وقد ظهرت بواكير المجتمعات التجارية بفِعل الرشوة للحصول على امتيازات معينة. وعلى النقيض تمامًا، كان التاجر والفلاح والحِرَفي – في العالم الإسلامي – جميعهم على قدم المساواة في الحرية. أجل؛ كان يوجد بعض العبيد في البلاد الإسلامية، لكنهم كانوا أكثر حظًا وحريةً من غيرهم في أوروبا.

فإذا تأملنا قول سيدنا رسول الله ﷺ: (فَأَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ وَأَلْبِسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ) [29]، سنجد أن هذا الحديث النبوي قد طُبِّقَ بحذافيره، وكذلك طُبِّقَ الأمر الإلهي بإطلاق سراحهم (عتق رقبة) بحذافيره بين المسلمين، فعلى سبيل المثال: عن طريق الكفَّارات، والتي تكون قد ارتكب المسلم ذنبًا، فعليه أن يعتق رقبة، حتى تنقرض العبودية في وقت مبكر، وهذا يعني أن حالة

(27) الموريسكيون أو الموريسكوس (باللغة القشتالية): هم الذين بقوا في الأندلس تحت الحكم المسيحي بعد سقوط الحكم الإسلامي، وأُجْبِروا على اعتناق المسيحية.

(28) القِنّ؛ عبد الأرض: رقيق يعمل على أرض سيدٍ إقطاعي، وتنتقل ملكيته إلى من هذا السيد إلى ملكية آخر.

(29) صحيح مسلم – كتاب الأَيمان – باب إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس ولا يكلفه ما يغلبه – رقم 4403، والحديث من طريق أبي ذر الغفاري ﷺ، وبدايته (فَقَالَ يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ ...).

العبودية الدائمة لم تكن في الإسلام؛ فالعبد كان يُعتبَر ابن أو ابنة المنزل، وفي عدم وجود ورثة شرعيين للميت، فإنه يرث. وبنفس الطريقة، كان عبيد الملوك والحُكَّام قد ورثوا الحُكم ذاته. ولم يكن شيئًا غريبًا أن يُزَوِّجَ رجلٌ، ليس له حسب ولا نسب، ابنته من أحد عبيده أو خَدَمه، ذلك العبد الذي سيحمل اسمه وفخر عائلته. فالعلاقة بين السيد والعبد في الإسلام علاقة مُثلى يُضْرَب بها المثل؛ لأن العبد كان مخلصًا في خدمة سيده، وكان السيد مُحسنًا في معاملته لعبده. لكن؛ عندما انتهى استيراد العبيد (سبايا) الحرب بعد أيام، وفُرِضَتْ قيود على شراء العبيد في بعض المناطق، مثل القوقاز، ضاق ببعض المسلمين ذرعًا من وقف شراء العبيد في الأسواق، وكانت حُجَّتهم أن حُسن معاملة العبيد وتحريرهم هو واجب قرءاني يجب العمل به في كل زمن، وبالتالي، فأنَّى لهم الآن – أي في ذلك الوقت – تأدية هذا الواجب القرءاني إذا لم يكن هناك عبيد؟! إن هذا الأمر في الحقيقة هو سوء فَهم منهم تجاه غاية الإسلام من إلغاء العبودية والرق، بحيث لا تحدث أية اضطرابات في المجتمع. أما عن حُجَّتهم، فقد سمعتُها بنفسي لتبرير تجارة الرقيق في السودان. قد كانت تجارة الرقيق أمرًا مُرعِبًا لم يكن له عقوبة إسلامية. لا أقولُ إنه لم يكن هناك انتهاكات في العالم الإسلامي، لكني أقولُ إنها لم تكن كما تتخيلونها لدى الأوروبيين؛ فليس هناك تشابه قط مع الأشياء المُسماة بالمثل في العالم المسيحي، كما أن العبودية التي كانت موجودة في العالم الإسلامي ليس لها أي تشابه بقضية المزارع الأمريكية.

إن الإسلام لم ينظر إلى لون البشرة، أو العرق، فقد اختلط الأسود والأبيض والأحمر والأصفر في أسواق المسلمين وقصورهم، وجميعهم على قدم المساواة؛ لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى. إن بعضًا من أعظم الحُكَّام والملوك والأولياء والحكماء في الإسلام كانوا من ذوي البشرة السوداء، مثل: جياش – ملك اليمن في فترة تدهور الدولة العباسية، وأحمد الجبرتي – مؤرخ مصر العظيم في زمن محمد علي باشا الأرناؤوط (مؤسس الأسرة الخديوية). وإذا اعتقدتم أنه لم يكن هناك حُكَّامًا أو ملوكًا من ذوي البشرة البيضاء، فاعلموا أنه لا يوجد أكثر بياضًا من الشراكسة وسكان جبال الأناضول الذين وجدوا مكانةً عظيمةً ورابطةً قويةً في أُخُوَّة المسلمين فيما بينهم وبين غيرهم. لقد كانت حضارة المسلمين مليئة بالاختلافات في المقامات والمناصب المتفاوتة والحالات الاجتماعية من حيث الغنى والفقر، لكنها لم تكن يومًا ما عائقًا في تحقيق مفهوم أخوة المسلمين، كما هو مشهور ومعروف في الغرب، ناهيك عن تلك الاختلافات الضاربة في الأعماق في بلاد الهند.

النظافة؛ إنها سمة من السمات البارزة للحضارة الإسلامية، في وقتٍ اقترنتْ فيه القذارة والنجاسة بالقداسة في أوروبا. كان في بلاد المسلمين حمامًا (حمامات عامة ساخنة)، ونوافير عامة للشرب والاغتسال. فكان الإمداد بالمياه النقية هو الاعتبار الأول في أي مكان تواجدَ فيه المسلمون، وأصبح الاغتسال المتكرر يوميًا مرتبط بدينهم، لدرجة أنه في الأندلس في عام 1566م، كان استخدام الحمامات ممنوعًا بموجب عقوبات قاسية وشديدة؛ لأن ذلك يُذَكِّرهم بأهل الإسلام ونظافتهم، حتى أنه من سوء الحظ الذي لحق برجل جنائني من إشبيلية، وتم التنكيل به لأنه ارتكب جريمة الاغتسال أثناء عمله.

وعندما كنتُ في الأناضول، سمعتُ بنفسي يونانيًا مسيحيًا يقول عن آخر: (هذا الرجل نصف مسلم؛ لأنه يغسل قدميه فقط!).

كانت إمدادات الغذاء والمياه العامة تخضع لفحص صارم في كافة المدن الإسلامية، وكان لا بُدَّ من تغطية اللحوم والأطعمة القابلة للتلف، المعروضة للبيع لحماية المسلمين والناس أجمعين من الغبار والذباب.

علاوة على أن العلاقات بين جميع طبقات المجتمع كانت منفتحة تمامًا دون تقييد، وكذلك كان التزاوج بين فئات الناس أمرًا سهلًا يسيرًا.

أتحدثُ إليكم الآن عن شيء حقيقي رأيتُه بالفعلِ وعرفتُه؛ لأن تلك الحضارة ما زالت موجودة إلى الآن، عندما ذهبتُ إلى مصر (لأول مرة) وسوريا والأناضول. وكذلك عندما قرأتُ (ألف ليلة وليلة) – معظم القصص التي كانت في فترة الخلافة العباسية رغم أنها جُمِعَتْ ونُشِرَتْ بعد عدة قرون في القاهرة – أرى الحياة اليومية في دمشق، والقدس، وحلب، والقاهرة، والمدن الأخرى كما هي في أوائل التسعينيات من القرن الماضي. إلا أن الذي رأيتُه كان واضح أنه في فترة التدهور. وإن ما أدهشني في تلك الحياة – رغم فسادها وفقرها – هو بهجة تلك الحياة مقارنة بأي شيء آخر رأيتُه في أوروبا. فقد كان واضح تمامًا أن هؤلاء الأشخاص مستقلين تمامًا عن اهتماماتنا بالحياة – نحن في أوروبا – وتشبثنا الشديد بالثروة، وخوفنا من الموت.

أما عن هؤلاء الذين رأيتُهم وقرأتُ عنهم في الحضارة الإسلامية، فقد كانت زكاتهم وصدقاتهم وأعمالهم الخيرية، أعطتْ قُبلة الحياة إلى فقرائهم؛ فلم يمتْ أحدٌ منهم جوعًا في أي مدينة من مدن الإمبراطورية الإسلامية.

وكان – بلا شك – لديهم شيئًا ما ينقصهم في حياة أوروبا الغربية، بينما كان من الواضح أنهم كانوا يفتقرون إلى كثيرٍ مما يمتلكه الأوروبيون. وفيما بعد، علمتُ أنهم قد امتلكوا الازدهار الحسي الحقيقي الذي يمكن أن تتباهى به أوروبا الآن وتفتخر، علاوة على تلك السعادة الداخلية التي كنتُ أحسدهم عليها. لمَّا يمضي وقت طويل، وبعد عشرين سنة من الدراسة والفحص والتمحيص، أدركتُ أنهم افتقروا إلى الرخاء المادي بعدما أهملوا ما يقرب من نصف الشريعة الإسلامية، وأن أي شخص يمكنه أن يجد تلك السعادة الداخلية من خلال تطبيق النصف الآخر من الشريعة.

والآن، دعوني لأكمل قصتي، وأخبركم كيف انهارت حضارة المسلمين.

لقد رأينا كيف صمدتْ حضارة المسلمين أمام تدهور الخلافة العباسية، وكان ذلك بالأذرع القوية للعبيد الأتراك الذين نهضوا بها. إن مناصبهم مكَّنتهم من ذلك بعدما انضموا إلى مساعدة الخليفة في الحُكم، وسرعان ما أن حصل رؤساؤهم على ألقاب: أمير الأمراء، والسلطان، والملك. وقد تتساءلون: كيف لم تتأثر حضارة المسلمين تمامًا لعدة قرون بهذا الانتقال للسُّلطة من عرق أو سلالة متحضرة إلى عرق أو سلالة من البرابرة؟ كلا؛ استمرت الحضارة في التقدم، رغم كل ذلك. كان البرابرة من المسلمين شديدي التحمس، فكانت معاملتهم لشخص الخليفة – أحيانًا – قاسية وصارمة، ومليئة

بالازدراء في أحيان أخرى، وكان ذلك نتيجة لرؤيتهم له، باعتباره لا يصلح أن يحمل لقب خليفة المسلمين.

وأنقل لكم ما قاله ابن خلدون في مقدمته:

(خليفة في قفصٍ بين وصيف وبغا؛ يقولُ ما قالا له كما تقولُ الببغا).

إن الخلافة لا تتمثل في شخص الخليفة، لأن الخلافة كقانون كان يحظى باحترام كل مسلم وتقديره، ولا سيما الجنود الأتراك البسطاء، أما الخليفة فقد يكون شخصًا لا قيمة له. وكان هناك عامل آخر في، حضارة المسلمين، احترمه الجنود الأتراك بأقصى درجات الاحترام والتقدير، ألا وهو رأي العلماء المعتمدين وفتاويهم. فيجب ألا نعتقد فيهم – كما نُطلق عليهم الآن – (علماء) على سبيل المجاملة، وإنما المصطلح العربي الصحيح المناسب هو (الفقهاء)؛ فلم يكن قد دخل إلى الاستخدام العام في تلك الأيام، عندما كان العلم الذي نعرفه الآن بـ (الفقه) ما زال في مهده.

ففي العصور الغابرة، كانت الجامعات الإسلامية هي صاحبة الراية في التعلم والبحث؛ فقد كانت المعرفة هي غايتها. قد استوعبت تلك الجامعات جميع أنواع المعارف والعلوم، وقدموا أقصى ما يمكن التوصل إليه في تلك العصور. إن كلمة (جامعات) ليس المقصود منها ما هو كائن في العصر الحديث، وإنما كانت – آنذاك – أكثر المؤسسات استنارةً في العالم. ربما كانت أكثر استنارة لأنها جزءًا من الدين، ونابعة منه.

كتب الأستاذ الألماني جوزيف هيل Prof. Joseph Hell في كتاب صغير بعنوان (الحضارة العربية) [30] – ترجمه إلى الإنجليزية السيد سي. خودا بوخش: (حتى أنه في الجامعات احتفظ الدين بأولويته. ألم يكن الدين هو الذي أفسح الطريق للتعلم؟! إن علوم القرءان والفقه حافظوا على أسبقيتهم هناك، كما أنه من فضل الإسلام أنه لم يحض على إهانة أو تجاهل فروع التعلم الأخرى؛ كلا، وإنما قدَّمَ نفس الشيء لفروع العلوم الأخرى، وكما أن علم الإلهيات يُدرَّس بالمسجد، كذلك العلوم الأخرى نفس الشيء. كان المسجد جامعة الإسلام حتى القرن الخامس الهجري، وكان لهذه الحقيقة السمة المميزة للثقافة الإسلامية، وهي من معالمها الكبرى "حرية التدريس الكاملة"، فلم يكن المُعَلِّمُ ليجتاز أي امتحان، ولم يُشترط أن يحصل على دبلوم أو أية شهادة رسمية – كما في عصرنا هذا – ليكون مُعَلِّمًا يقوم بتدريس العلوم. إن الأمر كله كان يكمن في الكفاءة والفاعلية وإتقانه للعلوم).

يمضي الكاتب ليوضح كيف كان الجمهور – رجالًا وطلَّاب علم – هم الحَكَم على كفاءة المُعَلِّم، وكيف أن المُعَلِّمَ الذي لا يتقن علمه، أو لم يكن في استطاعته دعم أطروحته العلمية بحُجج مقنعة ومنطقية، فإنه لم يتمكن من الصمود أمام نقد مَن يجلس أمامه للتعلم لمدة ساعة واحدة، ولسوف يفقد مصداقيته فورًا.

إن هؤلاء هم أكابر أساتذة مُعَلَّمي أوروبا الحديثة الآن. كان أحدهم، وهو كيميائي شهير، قال: (*إن الكيمياء لا تدعم كلامًا بلا دليل أو حجة قوية. فيمكن اعتبار ذلك قانونًا صارمًا لأي أطروحة علمية لا تدعمها الحجج والبراهين؛ فمجرد ادعاء شيء*

---

([30]) The Arab Civilisation, by Joseph Hell & S. Khuda Bukhsh.

*باعتباره حق، فهو مجرد ادعاء، أما عندما يطرح المتمرس أطروحته مدعومة بالحجج والبراهين، فإننا نقول له: "أطروحتك قويمة"* )[31].

لم يكن هؤلاء العلماء قادة بلا رؤية، ولا متعصبين، وإنما كانوا أساتذة تلك الجامعات أكثر المفكرين استنارةً في زمنهم، وكانوا يراعون سُنَّة الرسول ﷺ بكل دقة؛ لأنهم كانوا يراقبون أحوال الناس وحياتهم، وينصحون للخليفة إذا لاحظوا فِعلًا يخالف حقوق الإنسان التي كفلها الله ورسوله ﷺ. كان لهم دور كبير في كبح جِماح التعصب الديني القائم على الفقه الواحد، كما أَكْبَحوا جِماح الحُكَّام المسلمين الذين حاولوا أن يخوضوا صراعاتٍ ومعارك عسكرية غير إسلامية، وتصدوا لهم، ودعوا الناس لعدم طاعتهم، وأن القتال فقط مقتصر على عبيدهم الذين اشتروهم بأموالهم الخاصة. وبذلك؛ قد أنقذوا الثقافة الإسلامية من التدهور بألف طريقة. لقد استطاع هؤلاء العلماء بثُقْلِهم العلمي والثقافي والمعرفي أن يعاقبوا حتى الحُكَّام الذين عصوا الشريعة الإسلامية الغرَّاء، مما دفع الحُكَّام وولاة الأمور إلى التوبة، وأخذوا منهم تعويضات كبيرة عما ارتكبوه في حق الناس، وأعطوا تلك التعويضات إلى الناس.

وعلى النقيض مما سبق ذكره، فإن جيوش جنكيز خان وقادته، عاثوا في الأرض الفساد خلال سيطرتهم على البلاد والعباد، فدمروا أهم الجامعات، وذبحوا العلماء والمفكرين. حدث ذلك وقت أن كانت الحدود الشرقية للإمبراطورية الإسلامية غير مستقرة، ولم يُخَصَّصْ لها الحراسة الكافية لتأمينها، إلى جانب أنه تم سحب قوات الحُكَام

---

([31]) لم أتمكن من معرفة اسم ذلك الكيميائي الشهير الذي عناه المؤلف، ولم أتمكن من اقتباس ما قاله بالنص الأصلي العربي.

الأتراك إلى الحدود الغربية لصد التهديدات المستمرة للحملات الصليبية. وبمجرد أن تجاوزوا الحدود، لم يكن هناك مانعٌ أو عارضٌ ليصد هجمات هؤلاء الغزاة الأقوياء.

استعادت الإمبراطورية الإسلامية حيويتها بعد حملة جنكيز خان، وأحرزتْ تقدمًا جديدًا؛ أحرزتْ تقدمًا ملحوظًا إلى أن وصل إلى تهديد أوروبا مرة أخرى، وأحيتْ العداء الصليبي القديم على المسلمين في ثوبٍ جديد، والذي كان سببًا فرعيًا لسقوطها. أقول إنه سبب فرعي؛ لأن السبب الحقيقي لسقوط الإمبراطورية الإسلامية يجب البحث عنه في الشريعة، أي أن تلك القوانين الطبيعية التي أُهْمِلَتْ هي التي تتحكم دائمًا في نهضة الأمم وتدهورها.

كان من الواضح أن الإمبراطورية الإسلامية كانت تُحْرِزُ تقدمها ونهضتها على فِكرها المنصرم؛ أي كانت تعتمد على مقولة (اِطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ فِي الْصِّينِ)، فقد كان علماؤها – في ذلك الوقت – يطلبون العلم والمعرفة في حدود تلك الإمبراطورية وحسب وليس خارجها، فاتخذوا من مكانة العلماء الأوائل مكانةً لهم دون أن يطلبوا العلم والمعرفة في أرض غير أرض الإمبراطورية الإسلامية. أو بمعنى آخر: إن العلماءَ القدامى كانوا أكثر وأدق تقدمًا وعلمًا وفقهًا للإسلام من علماءِ المسلمين ما قبل الحملات الصليبية على الإمبراطورية الإسلامية. فطالبَ علماءُ المسلمين الناسَ بمكانةٍ تليق بهم كما كان العلماءُ القدامى، ولكنهم في الحقيقة جعلوا من علوم الإسلام قوقعة منحصرة في حدود منطقة الإمبراطورية الإسلامية، وهو عكس ما كان عليه العلماء القدامى. ذلك الأمر الذي لا يقره الإسلام في شيء.

إن الإسلام – وهو دين الفكر الحر – الذي ضرب بالمعتقدات الكهنوتية عُرضَ الحائطِ، واستعباد العقول الإنسانية لصالح آخرين، للأسف، صار الآن خاضعٌ لحُكم علماء كالكهنة – غفر الله لنا جميعًا!

لقد تخلى كثير من العلماء عن السعي وراء العلوم الطبيعية، وكانت حُجَّتهم أن كل علم يأتي من الخارج – أي خارج الإمبراطورية – هو شيء مشكوك فيه. لذا؛ أتسائل: هل كانت تلك العلوم الطبيعية مقتصرة على غير المسلمين وحسب؟! لقد كان المسلمون الأوائل يطلبون العلم ولو في الصين، رغم أن ذلك العلم – الذي كانوا يسعون لطلبه – كان يُطلَب من وثنيين. أما الآن، فكلما ازداد العُجب بالنفس، كان رفيقه الدائم هو تقديس الجهل وعبادته.

إن الشعوب المسيحية – التي حذت حذو المسلمين الأوائل في السعي وراء طلب العلم – قد تقدمتْ من الناحية الدنيوية كما تقدم المسلمون دنيويًا قبل ذلك، طالما أنهم أعلنوا إذعانهم للجانب الخاص بحرية الفكر في الشريعة الإسلامية أو القانون الإلهي، ذلك الجزء الذي يحث على السعي وراء طلب العلم والمعرفة ودراسة الإبداعات الإلهية في الكون في أي بقعة من بقاع الأرض. فالشعوب المسيحية تخلَّصتْ من القيود الكهنوتية للكنيسة، وتبنت الفكر الحر، حتى صار تقدمها في الجانب الدنيوي يماثل فتوحات المسلمين الأوائل.

وقبل أن أصل إلى ختام حديثي، يجب أن أذكرَ حقيقةً جازمةً من الجوازم التي رفعتْ شان الإسلام عاليًا، ولتأكيد على الطبيعة العالمية للإسلام، حيث حدث ذلك في

أحلكِ وقتٍ عرفه المسلمون على الإطلاق. ستجدون ما أذكره الآن في كتاب (الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية)، حيث يتحدث المؤلف عن أهمية العدالة بصفتها صفة للحاكم حسب شريعة الإسلام. فعندما استولى السلطان هولاكو على بغداد، وصار الخليفة العباسي في قبضته وتحت رحمته، طرح سؤالًا على العلماء الذين اجتمعوا في المستنصرية لكي يفتوا ويجيبوا عن سؤالٍ تتوقف إجابته على القدر. (الخلافة: أيهما أفضل: السلطان الكافر العادل أم السلطان المسلم الجائر؟).

فبينما كان العلماءُ مذهولين، نهض رَضِيُّ الدينِ علي بن طاووس، وهو أعظم علماء عصره وأكثرهم تبجيلًا، فأخذ ورقة السؤال، ووقَّعَ اسمه عليها، مُفتِيًا إياهم قائلًا: (السلطان الكافر العادل).

ثم تبعه الآخرون بعده؛ لأنهم جميعًا يعلمون أنها الجواب الصحيح، وأنه لم يكن في مقدورهم الكيل بمكيالين أن أحدَهما مؤمنٌ بالله، والآخرَ كافرٌ بالله، فعند الله ورسوله ﷺ معيارٌ واحدٌ فقط يسري على الجميع؛ ليس هناك استثناءات عند الله. وكما قلتُ إن الامتحان ليس من مهام العقيدة، ولا مراعاة طقوس طائفة معينة، بل إن الامتحانَ إجراءٌ ناتج عن سيء العمل أو حُسنه، فما يسري على الفرد، فإنه يسري على الحاكم. هذه هي شريعة الإسلام، ولم تتضح فضيلته وقيمته أكثر مما كان عليه في تاريخ نهضة الحضارة الإسلامية وتاريخ تدهورها.

وبأبشع نوع يُمكن أن تنتهي حياة شخص ما، فقد أُعْدِمَ آخر خليفة عباسيّ، ثم فرض المحتلون المغول سيطرتهم على غرب آسيا. وفي زمنٍ أقل من زمن جيل واحد من المغول، ظهرت اضطرابات في بلاد فارس بعيدًا عن المغول، مما سنح الفرصة للزعماء

الأتراك إحياء إمارتهم التي حاول سلطان مدينة قونية إعادتها بوجهٍ هزليٍّ. كان كل ذلك عندما ظهر الأتراك العثمانيون لأول مرة على الساحة.

علاوةً على أن صعود الأتراك العثمانيين – الذي أدى إلى استعادة الإمبراطورية الإسلامية على نطاق أوسع من أي وقت مضى – له تشابه مع تاريخ آل تيمور، وهم سلالة تركية أخرى. فلم تكن الإمبراطورية العثمانية – في أوجها – أقل شهرة من إمبراطورية جلال الدين محمد أكبر، وشهاب الدين محمد شاه جهان، ومحيي الدين محمد أورنكزيب. ففي ذلك الوقت، ازدهر أعظم ثالث لسان إسلامي، لكنه كان تركيًا، فكان يغطي جميع المجالات باستثناء الأدب العلمي؛ لأن لغته كانت صعبة للغاية. وربما كانت هذه النقطة هي مكمن تجاهل المستشرقين اليوم عنها بسبب صعوبة اللغة.، ومن ثم نهضت – بعد ذلك – أقمشة من نوع أرتشي، وكذلك المساجد والقصور.

فعلى المستوى الشخصي، فكنتُ أرى أن الشعر التركي العثماني كان له جاذبية غريبة. وفي العادة ما يكون الأمر محزنًا، كما هو الحال مع بعض الرجال منهم، لأنهم كانوا يفكرون بشيء من العمق، وكان عليهم دائمًا أن يُظْهِروا صورة الموت في أشعارهم؛ لأنه كان قريبًا منهم في حياتهم. وحسب اطلاعي على ما تُرْجِمَ من الأدب التركي والأدب الصيني، كان التركي أكثر إنتاجًا من الصيني. لكن هذه هي حياتهم المنزلية اليومية الجميلة، التي ينبغي أن أشير إليها للإشادة بمساهمة الأتراك في الثقافة الإسلامية. وفيما يتعلق بحديثي عما قبل الحرب – بوجهٍ عام فيما يتعلق بأشعارهم – فكان فيه عمقًا ونُبلًا اكتسبه أولئك الذين كانوا على استعداد للموت في أي وقتٍ من الأوقات من أجل قضية

قد اعتبروها شديدة الأهمية بالنسبة إليهم. وكذلك تلك الطريقة التي حاربوا بها، والطريقة التي حملتها نساءهم على عاتقهن، كانت بالنسبة لهن كرامة ونعمة في حياتهم اليومية. وعليه أقول إن هذه الإنجازات تجعل من العثمانيين محلًا للحسد والغبطة من كل دولة في العالم.

كان الأتراك العثمانيون عدة طبقات، حيث كانت العسكرية فيهم تحتل الطبقة الأولى، وفي الطبقة الثانية كان منهم الشعراء، وفي الطبقة الثالثة كانت السياسة، وكان علماء الدين منهم في الطبقة الرابعة. وبالتالي، كان الأمر طبيعيًا إذا تعلموا أمور الدين من غيرهم. إن لغة الدين هي اللغة العربية، وكان الْمُتَعَلِّمون منهم هم الذين يعرفون اللغة العربية، ورغم أنهم تعلموا تلاوة القرءان الكريم، إلا أنه كان هذا التعلم من أجل الحصول على البركة؛ أي تعلُّم دون تفكير أو تدبر وفَهم لمعنى الآيات القرءانية. وكانت العسكرية والجندية تطغى على كل ما فعلوه في حياتهم تمامًا، ونتيجةً لذلك؛ كانوا يثقون في المتمرسين الروحانيين تمام الثقة، كما كانوا يثقون في خبرائهم العسكريين. قد كان الناس – وقتئذ – على استيعاب كامل عما تشهده الحضارة الإسلامية من التدهور الصاعد، وكأنهم راضين عن ذلك، كما كانوا في أوجها؛ وذلك لأن التدهور جاء تدريجيًا وغير محسوس، ولم يكن له أثر على الجميع. علاوةً على أنهم لم يكونوا مدركين لذلك التدهور الذي حدث بالفعل؛ لأن كافة أمتعة الناس الشخصية ومستلزماتهم الحياتية كانت متاحة، كما لو كانوا في أُبَّهة العثمانيين الغابرة.

كانت مدارس المرحلة الابتدائية والثانوية ما زالت قائمة، وكذلك الأمر بالنسبة للجامعات، إلا أن نظام الأتراك العثمانيين يعتمد على تدريس القرءان الكريم، لكن دون

فَهم وتدبر، كما أنهم بلغ اهتمامهم بالفقه الإسلامي اهتمامًا بالغًا بطريقة تجعل من الفكر في سجن ضيق؛ أي أنه كان نظام قائم على الحفظ لا الفَهم. كانت المرافق العامة في زمنهم كالصرف الصحي والشرطة وغيرهما قائمة، لكنها توقفتْ فيما بعد تمامًا. إضافةً إلى ذلك؛ لم يدركوا أنهم قد بدأوا في انخفاض مستوى دولتهم عن مستوى زمنهم، ذلك الزمن الذي بدأت فيه بعض الدول الأوروبية في تحسين وضع رعاياها المسيحيين لدى الباب العالي. أما في أول حروبهم مع الجيوش الحديثة في ساحة القتال، أدركوا تمامًا أن نظامهم العسكري ومعداته أصبحتْ بالية وقديمة. ومن أجل حفظ ماء الوجه، حاول الأتراكُ استعادة الأرض المفقودة، لكن دون جدوى تُذكر.

وإذا ما كان القادة الأتراك قديمًا غير مدركين لِمَا تسببوا فيه من تدهور، فإنهم – فيما بعد – صاروا على قدر كافٍ من الوعي في النضال من أجل النهضة. فلو نظرنا إلى الأدب التركي خلال الخمسين سنة السالفة، سنجد أنه يختلف تمامًا عن الأدب التركي القديم، حيث الأعمال الشعرية لـ محمد نامق كمال، ورجائي زادة محمود أكرم، وهي أعمال شعرية مليئة بالحماسة والوطنية، مرورًا بالمقال المطول الرائع الملحوظ للأمير الراحل سعيد حليم باشا بعنوان (الجامعة الإسلامية) [32]، حيث شرح فيه مبادئ الشريعة بمصطلحات حديثة وبيَّنها. كان كل ذلك من أجل أن يكون الأدب التركي الحديث مختلف نوعًا ما عن الذي درسوه من قبل، وحُصدتْ نتائج مختلفة تمامًا عن الذي حصدوه قديمًا لا يتناسب مع العصر. فإن الأدب التركي الحديث هو الآن تقدمي وبنَّاء، فهو مليء بالأمل،

---

([32]) إسلاملاشمق: هي عنوان المقال المطول، وتعني بالعربية: الجامعة الإسلامية.

على الرغم من تلك المِحَنِ الهائلة التي واجهتها الأمة التركية والإمبراطورية الإسلامية. فكان يُلَقَّبُ محارب الإسلام بـ (الغازي)، وهم ما زالوا الأبطال، وكذلك (الكفن الدموي The Bloody Shroud) ما زال رمزًا يدل على أشجع الشجعان. لكن الجهاد الذي يُحْتَفَلُ به لم يعد دفاعًا عن إمبراطورية هي الآن تحتضر، إنه جهاد الإسلام الحقيقي، وجهاد الحرية الإنسانية، والتقدم الإنساني، والأخوة الإنسانية، والولاء لله.

كانت الثورة التركية بداية صغيرة لإحياء كبير للإسلام، يمكن الآن رؤية علاماته في كل بقعة من بقاع العالم الإسلامي. يمكن الآن لكل فرد أن يرى الكنيسة المدرسية (السكولاتية) كانت سبب التدهور والانحدار الحضاري، وأن الإسلامَ – كما غرس في عقول العالم – يستدعي كل ما هو متاح من المعرفة والعلم من أجل الإعاشة. فيجب على المسلمين حتمًا أن يسعوا وراء طلب العلم، حتى لو في الصين؛ لأنه لا يمكن للإسلام أن يزدهر في الظُلمة والجهل.





# المحاضرة الثالثة

# أُخُوَّة المسلمين

اليوم؛ سألقي على مسامعكم محاضرة عن أخوة المسلمين والتي تمثل بناءً مثاليًا في الإسلام. بادئ ذي بدء، أستشهدُ بآية قرءانية من بين مئات الآيات التي تتحدث عن الأُخُوَّة في هذا الصدد، وهي قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ۝١٠٢ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ۝١٠٣﴾ [آل عمران: 102، 103].

إن هاتين الآيتين الكريمتَين يؤكدان على التقدم الذي فاز به المسلمون في غضون أشهر قليلة بسبب ظهور الإسلام، وإنهما أمران لجميع المسلمين بالاستمرار في طريق التقدم من خلال الاعتصام بحبل الله جميعًا، وهو اعتصام مقدس في الإسلام. إنه قانون إلهي يؤكد على أنه يجب ألَّا يعود المسلمون إلى حالة تلك القبائل المتحاربة المتناحرة، وألَّا يعودوا إلى الطبقية التي وصلتْ إلى حد أنها تهدد الثقافة الإنسانية في شبه الجزيرة العربية بالدمار والخراب التام. وفي هذا الصدد، قال سيدنا رسول الله ﷺ: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) [33].

وفي خطابه ﷺ على جبل عرفات في (حجة الوداع)، ألقى خطبته الشهيرة إلى الناس، الذين كانوا مشركين منذ بضعة أشهر أو عدة سنوات، قال فيها ﷺ:

---

([33]) صحيح مسلم – كتاب البر والصلة والآداب – باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم – رقم 6751، والحديث من طريق النعمان بن البشير ﵁.

(أَيُّهَا النَّاسُ إني وَاللهَّ لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ يومي هَذَا بمكاني هَذَا، فَرَحِمَ اللهُّ مَنْ سَمِعَ مَقَالَتِي الْيَوْمَ فَوَعَاهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ وَلَا فِقْهَ لَهُ، وَلَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَدِمَاءَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ هَذَا الْيَوْمِ فِي هَذَا الشَّهْرِ فِي هَذَا الْبَلَدِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْقُلُوبَ لَا تَغِلُّ عَلَى ثَلَاثٍ: إِخْلَاصِ الْعَمَلِ للهَّ، وَمُنَاصَحَةِ أُولِي الْأَمْرِ، وَعَلَى لُزُومِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ) [34].

وقال: (الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ) [35].

وقال: (وَمَنِ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ أَوْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهَّ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) [36].

وقال: (فَاتَّقُوا اللهَّ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللهَّ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهَّ وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) [37].

---

[34] سنن الدارمي – باب الاقتداء بالعلماء – رقم 234، والحديث من طريق جُبير بن مُطْعِم بن عُدي رضي الله عنهما.

[35] صحيح البخاري – كتاب البيوع – باب تفسير المشبهات – رقم 2053، والحديث من طريق السيدة عائشة بنت سيدنا أبي بكر الصديق أم المؤمنين رضي الله عنهما.

[36] سنن الترمذي – كتاب الولاء والهبة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – باب ما جاء فيمن تولى غير مواليه أو ادَّعى إلى غير أبيه – رقم 2273، والحديث من طريق سيدنا علي بن أبي طالب أمير المؤمنين رضي الله عنه.

[37] صحيح مسلم – كتاب الحج – باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم – رقم 3009، والحديث من طريق سيدنا علي بن أبي طالب أمير المؤمنين رضي الله عنه.

وقال: (أَلَا إِنَّ كُلَّ رِبًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ أَلَا وَإِنَّ اللهَ قَضَى أَنَّ أَوَّلَ رِبًا يُوضَعُ رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ) [38].

وقال: (أَلَا إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ وَأَوَّلُ دَمٍ أَضَعُهُ دَمُ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ) [39].

وقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلاَ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ أَلاَ لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ وَلاَ لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلاَ أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلاَ أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلاَّ بِالتَّقْوَى) [40].

وقال: (فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ فَإِنَّهُ رُبَّ مُبَلِّغٍ يُبَلِّغُهُ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ) [41].

وفي ختام خطبته ﷺ، عندما رأى كل آذان مَن حوله مُصغية، قال:

(أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ؟)، قالوا: (قُلْنَا نَعَمْ!)، قَالَ: (اللَّهُمَّ اشْهَدْ) [42].

هل كان لديه هذا النجاح الكامل؟ أم هل كان أكثر تواضعًا لحظة انتصاره على المشركين؟

---

([38]) سنن الدارمي – ومن كتاب البيوع – باب في الربا الذي كان في الجاهلية – رقم 2591، والحديث من طريق عم أبي حرة الرقاشي رضي الله عنه..

([39]) سنن ابن ماجة – أبواب المناسك – باب حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم – رقم 3212، والحديث من طريق سيدنا علي بن أبي طالب أمير المؤمنين رضي الله عنه.

([40]) مسند الإمام أحمد – مسند الأنصار رضي الله عنهم – حديث رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم – رقم 23972، والحديث من طريق أبي نَضْرَة، قال: حدثني مَن سَمِعَ خُطبة رسول الله ﷺ.

([41]) صحيح البخاري – كتاب الفتن – باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض – رقم 7078، والحديث من طريق نفيع بن الحارث بن كلدة أبي بكرة الثقفي رضي الله عنه.

([42]) التخريج: نفس المصدر السابق.

لاحظوا أنه ﷺ لم يكتف بالوصية وحسب؛ بل ضرب الأمثلة أيضًا لتعزيز مكانة هذه الوصايا. وبالرغم أنه ﷺ قد صار – حقيقةً – إمبراطورًا للجزيرة العربية، لكنه لم يجلس على العرش وأصدر المراسيم والأوامر قط، بل كان دائمًا بين قومه، وكانت قيادته لهم كقيادة الإمام للمصلين، ثم ضرب مثالًا عندما أعلن أن المسلمين إخوة، ولم يستثن نفسه من ذلك قط. لقد كان – ولا يزال – بمنزلة الأخ الأكبر لجميع المسلمين. فقد كان مثالًا رائعًا في كل أمر يتعلق به.

إن موضوع الأُخُوَّة الإنسانية من الأمور التي لا ينكرها المسلمون أبدًا مهما كانت عقيدة الآخر، أو مهما كان المجتمع الذي يعيش فيه المسلمون. إنه من مناقب الإسلام العظيمة، وكما تحدث سيدنا رسول الله ﷺ في خطبة الوداع حتى يجعلنا قدوة للأمم.

إن بعض الطوائف الدينية الأخرى تعلن إيمانها بأبوة الله وأخوة الإنسان، لكنها لم تُظهِر أي نتيجة عملية لهذا الاعتقاد كي تساعد عالم يكافح ويتعثر في كثير من أمور دنياه، وكأن ذلك الاعتقاد قد أدار ظهره للدين كأحد مضطهديه، ثم التمس المساعدة من المعتقدات الإنسانية الأخرى كالإلحاد واللاأدرية، مثل: (الحرية، والمساواة، والأخوة)، ولم تلتمس تلك الطوائف المساعدة من الدين – الإنجيل المادي لكارل ماركس، وما إلى ذلك.

إنه لا يمكن تحقيق الحرية والمساواة إيجابيًا كما ينبغي؛ لأنهما أمر نسبي في المجتمع الإنساني، كما يجب أن تكون حرية الفرد أو الجماعة أو الأُمَّة مقيدة بحريات الأفراد

والدول المجاورة [43]. فالحديث عن حقوق الإنسان كأمر جوهري بعيد عن مكانته في المجتمع هو حديث غير منطقي من وجهة نظرنا الإسلامية؛ لأن الإنسان لم يُولَدْ بحقوقٍ ما، وإنما يُولَدُ الإنسانُ بغرائز ومواهب عديدة. أما بالنسبة لحقوقه، فإنه يكتسبها عندما يتعلم: كيف يكبح جِماحَ هذه الغرائز، وكيف يتحكم فيها، وكيف يستخدم مواهبه في خدمة الناس والصالح العام. إن حقوق الإنسان تتناسب تمامًا مع تلك الواجبات التي يؤديها، ولا خلاف على ذلك البتة.

إنه من العبث الفكري المطالبة بالمساواة لجميع الناس، والسعي لفرضه هو الرغبة المُلِحَّة في تعجيز الإنسانية، كما أن المطالبة بالحرية لجميع الناس هو ادعاء شيء يتعلق بمقاييس الناس وطبيعتهم، حيث التباين الكبير في الآراء، وهو مما يجعلهم ينافحون من أجل هذه الآراء. فربما كان لأحد الناس مثله الأعلى في الدستور البريطاني، وربما كان الآخر ينظر إلى النظام السوفيتي باعتباره المثل الأعلى له.

وفيما يتعلق بالحرية والمساواة، وما يجول بينهما من صراع، فإن مفهوم الأُخُوَّة يتلاشى تمامًا ويُنسَى كذلك أكثر من أي وقت مضى. فمن الناحية الدينية، فإنه يمكن تحقيق هذا الأُخُوَّة باتفاق الرجال ذوو النوايا الحسنة على الامتثال لمجموعة محددة من المواثيق الدينية. ورغم ذلك؛ إذا فحصنا التاريخ الماضي والوضع الحالي للعالم بنظرةٍ فاحصةٍ، فربما نظن أنه يمثل المدينة الفاضلة، لو لم يكن الإسلام كمثال على ذلك، وهذا

---

([43]) تطبيقًا للمقولة الشهيرة: (حريتك تقف عند بدء حرية الآخرين)؛ أي أن الحرية المطلقة هي مفسدة مطلقة.

الذي يجعل المرء يميل إلى تقديم البديهية القائلة بأنه لا توجد ديموقراطية حقيقية على شكل أُخُوَّة إنسانية في أي مكانٍ بعيدًا عن أنموذج الثيوقراطية.

وعندما جاء نبي الناصرة، فقد جاء ليمثل الأُخُوَّة الإنسانية الذي يعتمد عمليًا على الأنموذج الثيوقراطي السائد بين اليهود، وبالتالي، لم يُطَبَّقْ قط؛ لأن الثيوقراطية لم تكن نظامًا للحكم قط، ناهيكم عن ركائز المجتمع في العالم المسيحي.

وعندما جاء رسولنا ﷺ برسالة الإسلام، لم يعلن عن حقيقة الأُخُوَّة الإنسانية العالمية وحسب؛ بل – ولأول مرة في تاريخ العالم – جعل الأُخُوَّة مبدأ عام لجميع البشرية أيضًا. فجعل النبي ﷺ هذا المبدأ حقيقةً مشتركةً لكافة الناس من أجل التقدم الإنساني الحقيقي، وعلى هذا الأساس، فإن جميع تشريعات الإسلام تَجْنَحُ دائمًا إلى هذا الاتجاه. ما زالت الفوارق الاجتماعية مستمرة؛ أي أن تلك القيود على الحرية الفردية ما زالت موجودة كذلك، والتي يجب أن توجد في كل مجتمع مُنظَّم. لكن، أُقِيمَتْ العلاقات الأخوية بأسلوب دائم بين البشر والأمم، مهما كانت هناك فوارق اجتماعية، ومهما كان هناك اختلاف في المناصب، والثروة، والسُّلطة، بل والشخصية أيضًا. فقول النبي ﷺ: (إِنَّ إِخْوَانَكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَأَعِينُوهُمْ) [44]، لم يكن مجرد عبارة مقتصرة على النُصح الديني، بل إنهم عُومِلوا بالفعل معاملة أُخُوَّة على أرض الواقع. كما نشأت أخوة بين الدول، وما زالتْ قائمة حتى الآن؛ أي أن روح

---

([44]) صحيح البخاري – كتاب العتق – باب قول النبي صلى الله عليه وسلم العبيد إخوانكم فأطعموهم مما تأكلون – رقم 2545، والحديث من طريق أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

القومية العدوانية قد تلاشتْ بين المسلمين. وفي هذا الصدد قال نبينا ﷺ: (لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ) [45].

فأصبح الإسلام – بعد ذلك – قومية عظمى أطاح بمفهوم القومية المعروف والشائع بين الناس، وجعل فكرة نضال الإنسان من أجل (وطنه صحيحًا أو خطأ) في زمن الجهل أمرًا جنونيًا في شبه الجزيرة العربية قبل بعثة النبي محمد ﷺ. فقد أشار سيدنا رسول الله ﷺ إلى ذلك بقوله: (اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ) [46]. فإن خدمة الناس والمجتمع، ورعاية شئونهم، أعظم وأقوى من السعي وراء الثروة، أو السُّلطة التي تعاملهم بقوةٍ مُفرطةٍ.

قال النبي ﷺ: (وَأَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا) [47].

فلو نظرنا إلى الناس، نجد أن معظمَهم شردوا بعيدًا عن هذه الحقيقة الاجتماعية لمصلحة شخصية، ولن يدركوا هذه الحقيقة التي أشار إليها النبي ﷺ إلا إذا وقعوا في نفس

---

([45]) سنن أبي داود – كتاب الأدب – باب في العصبية – رقم 5123، والحديث من طريق ابن مُطعِم بن عُدي.

([46]) صحيح البخاري – كتاب الأحكام – باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية – رقم 7142، والحديث من طريق أنس بن مالك رضي الله عنه.

([47]) سنن الترمذي – كتاب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – باب مَن اتقى المحارم فهو أعبد الناس – رقم 2475، والحديث من طريق أبي هريرة رضي الله عنه. وبدايته: (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ يَأْخُذُ عَنِّي هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ فَيَعْمَلُ بِهِنَّ أَوْ يُعَلِّمُ مَنْ يَعْمَلُ بِهِنَّ).

قال أبو عيسى الترمذي: (هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ حَدِيثِ جَعْفَرِ بْنِ سُلَيْمَانَ، وَالْحَسَنُ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ شَيْئًا هَكَذَا رُوِيَ عَنْ أَيُّوبَ وَيُونُسَ بْنِ عُبَيْدٍ وَعَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ قَالُوا: لَمْ يَسْمَعِ الْحَسَنُ مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَرَوَى أَبُو عُبَيْدَةَ النَّاجِيُّ عَنِ الْحَسَنِ هَذَا الْحَدِيثَ قَوْلَهُ وَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ).

ما وقع فيه الآخرون؛ أي أن جيرانهم لا يعاملوهم بإحسان، أو لا يحبونهم، فكيف لهؤلاء الحمقى أن يستقبلوا هذا الهدي النبوي الرفيع؟! ومن ناحية أخرى، يبدو للوهلة الأولى أن الحدود في الإسلام هي قانون قاسي وعنيف، لكنها في الحقيقة ليستْ كذلك، وإنما هي رد الآخرين وترهيبهم من أجل الحفاظ على الناس وكافة ممتلكاتهم. كما أن النبي ﷺ (كَانَ يَحُثُّ عَلَى الصَّدَقَةِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُثْلَةِ) [48].

(إِيَّاكُمْ وَالْمُثْلَة وَلَوْ بِالكَلْبِ العَقُورِ) [49].

إن شرائع الله ﷻ هي ببساطة عبارة عن قاعدة عامة للناس أجمعين: (وَأَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا)، وهذه القاعدة العامة تشمل العمل الإنساني الجماعي، وكذا العمل الإنساني الفردي. إضافةً إلى أنها منطقية جدًا ومُوَضَّحَة تمامًا بحيث يستوعبها الجاهل والمُتعلم، حتى يتسنَّى للجميع (الأُمة والفرد) أن يعرف ما له وما عليه. فالربا هو معادٍ للمجتمع، وهو أمر يبعث على التشرذم لا على الإخاء؛ لأن الذي يرابي ماله يستفيد من حاجة أخيه، لذلك قال ﷻ في كتابه الكريم: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴿٢٧٦﴾﴾ [البقرة: 276].

كما أن اكتنازَ الثرواتِ يُعَدُّ أمرًا مُعاديًّا للإنسان أيضًا؛ فالمسلم مُلزَمٌ بإخراج جزء من ماله لله كالزكاة والصدقات، وهو في الأصل مال الله، أي يُخْرِجُ ما يزيد عن حاجته.

---

(48) صحيح البخاري – كتاب المغازي – باب قصة عكل وعرينة – رقم 4192، والحديث من طريق أنس بن مالك ﵁. وبدايته (أَنَّ نَاسًا مِنْ عُكْلٍ وَعُرَيْنَةَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَتَكَلَّمُوا بِالإِسْلاَمِ).

(49) طباطبا؛ محمد بن علي، **الفخري في الآداب السُلطانية والدول الإسلامية**.

وفيما يتعلق بالآية الكريمة السابقة التي ذكرتُها عن الربا، فإنها تحتوي على حقيقةٍ غائبةٍ عن كثيرٍ من الناسِ في هذه الأيام، حيث تكمن هذه الحقيقة الغائبة في أن الاتجاه بالكلية إلى الثروات لا يزيد من حصيلة الحضارة الإنسانية أو الرخاء البشري، لكنهما يتحققان فقط عن طريق التداول العادل والتوزيع المستمر للثروة؛ أي من خلال تثبيط جشع الأفراد والحث على السخاء والجود بما لديهم.

يتحدثُ كثيرٌ من الناسِ – منهم مسلمين – اليومَ عن التشريع الإلهي المتعلق بالربا، ويقولون إنه تشريع قديم. إن لمثل هؤلاء الناس لا يمكنهم أن ينظروا إلى الجمال بعين مُبصِرة. يبدو أن جزءًا كبيرًا من المعاملات التجارية في الحياة المعاصرة – التي يُحرمها الشرع الشريف إذا ما فُهِمَتْ كما ينبغي – ليست ضارة بما يكفي عند مقارنتها بأشكال الربا الذي هو أكثر شناعة في استغلال الآخرين. كما يبدو أن النظامَ المالي الحالي مرغوبٌ فيه كبديل عن الربا الفاحش، لكن كان تأثيره الاجتماعي العام في مواجهة مفهوم الأُخُوَّة العالمية. إذن؛ لماذا تعمل الاشتراكية والشيوعية والنقابية – في هذا الزمن – على تهديد البنية الكاملة للنظام الرأسمالي للمجتمع، ويسارع أنصاره لدعمه إغاثةً لمعاناة الأغلبية؟ لماذا كان أول شيء فعله النظام البلشفي عندما وصل إلى سُّدة الحكم في روسيا أن قام بإلغاء الفائدة (الربا)؟ لماذا أُدْرِجَ إلغاء الفائدة في كل برنامج اشتراكي وكل برنامج

طوباوي [50]؟ ذلك؛ لأن النظام الرأسمالي مبني على الربا، وهو ما يعتقده المفكرون المعارضون له على أنه السبب في أنه يُنتج كثير من الشر والظلم الاجتماعي.

فالشريعة الإسلامية التي حرمت الربا، هي ذاتها أباحت التجارة. وهنا يجدر بنا أن نتذكر أن التجارة التي أباحها الشرع الحنيف ليست التجارة التي تعاصرنا الآن في هذا الزمن، لأنها في رأيي الشخصي، ينبغي أن تُدْرَجَ على قائمة التجارة الربوية – حسب مفاهيم الشرع الحنيف – لأن كثيرًا منها تقوم على استغلال احتياج الرجال والنساء؛ أي أنه أمر غير عادل. فالمقامرة والعربدة مناهضان للمجتمع، وعليه فإن تناول الخمور محظور، وألعاب الحظ محظورة أيضًا. ومن ناحية أخرى؛ فالملكية الخاصة هي مكفولة تمامًا في الإسلام، إلا أنها لا تعني الملكية المطلقة للفرد؛ أي لا يعني أن الفرد يفعل ما يحب أو يترك ما لا يحب، فالأمر ليس على إطلاقه البتة؛ لأن الملكية المطلقة هي في حد ذاتها مناهضة للمجتمع. لذلك؛ فالملكية المطلقة للفرد لم تحظ بتأييد الشرع الحنيف. فجميع ممتلكات الفرد هي أمانة، أودعها الله عند الإنسان، وهذه الأمانة قد نصَّ الشرع الشريف على شروطٍ لحمايتها. فنجد أن الشرع أوجب على الإنسان جزءًا من ماله أن يُخْرِجَه للفقراء والمحتاجين، وجزءًا آخرًا للمجتمع كل عام، وعندما يموت الإنسان، فإن الله أوجب على ورثته أن يُقسِّموا تركة الميت على أقاربه حسب ما حدده الشرع.

---

([50]) طوباوية أو طوبائية: يقابلها (اليوتوبيا أو الحياة المثالية). من الناحية الاقتصادية: (الاشتراكية التي تحلم بمجتمع خال من الصراع وتسعى إلى تحقيق مُثُل عليا بعيدة عن الواقع. وهي نزعة في الحُكم لحياة مثالية خالية من العيوب.

المصدر: النجفي؛ حسن توفيق، **القاموس الاقتصادي (إنجليزي عربي)**.

فمفهوم القومية السلبي هو أمر معادٍ للمجتمع، لذلك ألغاها الإسلام كما ذكرنا من قبل. فإن مفهوم الأُخُوَّة في الإسلام يتلاشى في ثناياه جميع التحيزات والعصبات العرقية واللونية تمامًا، وتُمحَى الغطرسة أو الذل من الاختلافات الطبقية بين البشر، وتُحوَّل إلى اختلافات في الوظيفة وحسب. إن الحضارة الإسلامية هي نظام كامل شامل، يغطي كافة مجالات الفكر والعمل الإنساني، وقد مارسَ المسلمون هذا النظام، وأثبت نجاحه تمامًا.

لقد تتبعتُ تدهور الحضارة الإسلامية في محاضرتي السابقة، وأوضحتُ أن سببها يكمن في إهمال بعضٍ من الشريعة الغرَّاء. إن هذا النظام الحضاري لا يوجد مثيله إلى الآن في أي بقعة من بقاع الأرض كما هو في الإسلام. لكن، وجدتُ جانبًا واحدًا ما زال المجتمع المسلم يحافظ عليه إلى الآن، ألا وهو جانب الأُخُوَّة. هذا الجانب الذي يسبق بقية دول العالم، كما كان المسلمون في زمن سيدنا عمر بن الخطاب ﵁، أو زمن عمر الثاني [51]، أو زمن هارون الرشيد ﵁، أو زمن صلاح الدين الأيوبي، أو زمن سليمان القانوني.

ففي تاريخ العالم كله، هل سيجد أحدكم شيئًا يمكن مقارنته بهذه الأُخُوَّة في الإسلام التي شملتْ كافة البشر بأنواعهم وأحوالهم، وربطتهم برباط قوي متين؟ هل سيجد أحدكم هذه الأُخُوَّة التي هزمتْ الجيوش الشرسة المعادية وكسرتْ شوكتها وهزمتها شر هزيمة؟ إنها أخوة لا تتكون من طبقة واحدة، ولكنها تتكون من طبقات متعددة لا حصر لها، وهذه الطبقات الاجتماعية مترابطة بقوة.

---

([51]) يقصد المؤلف: سيدنا عمر بن عبد العزيز ﵁.

وقد بدأت عصبة الأمم في محاولةٍ منها لتحقيق جزء من هذه الأُخُوَّة التي جاء بها الإسلام، وذلك من أجل التأليف بين قلوب الدول الأوروبية المختلفة، ووضع إطار لقانون دُّوَلي يفضي إلى السلام والتقدم. لكن كانت باكورة عصبة الأمم معيبة؛ لأنها تقر بمبادئ القومية العدوانية والإمبريالية. لذلك؛ عليها أن تتعامل مع الدول التي تعتبر تلك المبادئ المعادية للإنسان بمزيد من الاحترام. فبدايتها معيبة، أي لا تصلح لتحقيق الأُخُوَّة كما في الإسلام، فمن الصعب جدًا أن نرى كيف يمكن أن تصل إلى الحل الحقيقي للمشكلة، وهو أن تتمتع عصبة الأمم بنفس الحقوق التي يتمتع بها الأفراد. علاوةً على أنه يجب تطبيق نفس القوانين والمعايير الأخلاقية كما هي مطبقة على الأفراد. فإذا ما أرادتْ عصبة الأمم أن تنهض فعلًا، فعليها أن تتخذ من الأُخُوَّة التي جاء بها الإسلام أنموذجًا لها؛ فالناس هنا – في العالم الإسلامي – على قلب رجل واحد، على الرغم من ضعف العالم الإسلامي. فإن تضامن الشعوب وترابطهم لا يضعف حتى ولو ضَعُفَتْ الحالة السياسية في العالم الإسلامي. وقد نرى أن بعضًا من النقَّادِ صاحوا في كل مكان بقولهم: (*حتى لو ادَّعى المسلمون بأنهم قوميون، فهذا ليس من باب الحب الوطني؛ بل إنه من باب التشدد الديني*). إنهم يريدون أن نتبادل وجهات نظرنا المستقبلية في مقابل وجهة نظرهم المستقبلية للقومية العدوانية؛ أي بمفهومها السلبي. فإذا فعل المسلمون ذلك، فإنهم بذلك يُحقِّقون قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ

بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴿٦١﴾ [البقرة: 61]، فإنهم سيفعلون مثل ما فعل بنو إسرائيل قديمًا. أما الإسلام فهو متقدم بثلاثمائة سنة عن أوروبا في مثل هذه الأمور.

هناك بعض التشريعات التي يميل أصحابها إلى الحفاظ على هذه الأُخُوَّة العالمية للإسلام وتوسيع نطاقها؛ فقد ربطتْ هذه الأُخُوَّة الأبيض بالأسود، والأحمر بالأصفر، وساوتْ بينهم تمامًا، كما ساوتْ بين حقوق الأغنياء والفقراء، والحاكم والمحكوم، والحر والعبد. ومن أهم هذه التشريعات وأبرزها هي صلاة الجماعة التي تُقام خمس مرات يوميًا، ومرة أسبوعيًا في صلاة الجمعة، حيث يقف جميع المسلمين من كل درجة ورتبة دنيوية على قدم المساواة؛ لأنهم جميعًا إنسان واحد، واختيار الإمام في الصلاة لا يكون على أساس منصبه، بل على أساس التقوى وحسب. وهناك تشريع آخر هو الحج، وهو الذي يُؤدَّى في موسم محدد كل عام، وهو تشريع مهم للغاية في بناء الثقافة الإسلامية. أما معارضو هذا التشريع الإسلامي، فيتخذون منه دليلًا على أن الإسلامَ متأخرٌ إلى درجة اليأس! ففي الحج، يرتدي الملوك والفلاحون والنبلاء والعظماء والعمال والأغنياء والفقراء زيًّا مُوحَدًا خشنًا، ويؤدون مناسك واحدة بطريقة واحدة، كما لو أنهم في يوم الحشر. فعلى المسلم القادر أن يؤدي هذا الركن مرة واحدة في الحياة، دون أن يقترض من غيره؛ أي من ماله الخاص، وألا يترك بيته وعمله دون ترتيب سابق. حقًا؛ إنها رحلة طويلة وشاقة دون مكسب دنيوي. فمن هذا الباب اعتقد أناس حول العالم أن الحج تشريع إسلامي عبثي، وهو في الحقيقة ليس كذلك، وأنا كذلك لا أعتقد بما يقولون.

ثم ركن صيام شهر رمضان، وهو الشهر الخاص بتدريب النفس. ذلك الذي يصوم فيه المسلم غير المريض وغير المسافِر من الفجر حتى غروب الشمس، فالملك والفلاح وجميع الناس يصومون شهرًا كاملًا. ذلك الشهر الذي اعتقد فيه أناس حول العالم بأنه لا معنى لصيام شهر كامل، وأن صيام رمضان تشريع إسلامي عبثي، وهو في الحقيقة ليس كذلك، وأنا كذلك لا أعتقد بما يقولون. إن هؤلاء الذين يعتقدون أن الصيام تشريع عبثي ليس في مقدورهم أن يفكروا قليلًا في التقلبات القاسية في الحياة البشرية، ولو فكروا قليلًا لوجدوا أن الناس تحتاج إلى تدريب كي يعينهم على الحياة. فإذا ما كانوا يدافعون عن المبادئ الأساسية لتقدم الإنسانية، فعليهم أن يتأهلوا لذلك.

في حقيقة الأمر؛ كل هذه التشريعات الإسلامية تدور في فلك قوله ﷺ: (مُوتُوا قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا) [52]. فتسليم إرادة الإنسان إلى إرادة الله، كما أوحى الله بذلك في القرءان الكريم، هذا هو الإسلام. ففي الصلاة اليومية، تشير السجادة إلى القبر، والركعة تعني الخضوع لإرادة الله بصفته مالِك هذا العالم، والسجود يعبر عن موت رمزي؛ أي أن الإنسان يقدم لله كامل إرادته ونفسه والاستسلام التام الكامل للإله الواحد مالك هذا العالم، ومالك يوم الدين.

ففي شهر رمضان؛ يغير المسلم مجرى حياته بأكملها، حيث يتحمل الغني والفقير آلام الجوع والعطش حتى يحين غروب الشمس، فكلاهما يشكر الله ويحمده على شربة ماء، وهو أبسط شيء يشترك فيه الغني والفقير على مائدة الإفطار.

---

([52]) أشرتُ إلى هذه المقولة في المحاضرة الأولى: الثقافة الإسلامية.

أما في موسم الحج؛ فيذهب المسلم إلى الحج كما لو كان يذهب إلى وفاته، بعد أن قام بتسوية جميع أعماله الدنيوية، وسدد كافة ديونه، وصار خاليًا من أي شيء قد يعيق طريقه إلى الحج.

إن الحياةَ – بجميع ملاذها وملذاتها – تُفَرِّقُ بين البشر، وتخلق فيهم العداوة للتنافس على الحياة دائمًا. أما الموت، فهو الشيء الوحيد الذي ينزع تلك العداوة والمنافسة من البشر، ويخلق فيهم الأُخُوَّة الحقيقية؛ لأن الموت ما هو إلا تحذير يجول بين أعيننا دائمًا حتى لا ننسى أبدًا أن الجميع عند الله سواء. كما أنه يُسْقِط عنا الكبرياء والطموح والثروة، بل وطعامنا وشرابنا أيضًا، فهو الحقيقة الوحيدة التي تعامل الجميع دون تفرقة. فالموت في ذاته هو أهم حقيقة في الحياة، وهو المانِع الوحيد لِمَنْ أراد أن يتجاهله أو يقلل من شأنه، وفي نفس الوقت، إذا ما أراد الإنسانُ أن يقضي حياته كلها في التأمل في حقيقة الموت، فهذا يعني أنه سيُهْمِلُ في واجباته تجاه هذا العالم. إن الإسلام يقدم لنا أسلوبًا للحياة، من خلاله ننزع من قلوبنا الخوف من الموت، وننظر إليه من منظور آخر حقيقي. هذا الأسلوب هو أي شيء عدا الكآبة والحزن، وهذه أشياء بسيطة بالنسبة للبسطاء، لكنها عميقة بالنسبة للمفكرين والمثقفين. فالموت بالنسبة للجميع هو أقوى دافع حقيقي للأُخُوَّة بين البشرية جمعاء.

وكما قلتُ سابقًا إن موضوع أخوة المسلمين ليس له مثيل في أي أُمَّة أخرى من الأمم، وهو ما جعل المسلمين في هذا الأمر متفوقين على غيرهم، فضلًا عن أمجادهم السابقة، وهذا لا يعني أنه لم يكن هناك تدهور في الحضارة الإسلامية؛ بل أعني أنه مهما

حاول الآخرون إيجادَ ما يُماثل أخوة المسلمين، فلن يستطيعوا أبدًا. فلقد كان هناك فترات تراجع وتدهور في الثقافة الإسلامية، وهذا يؤول إلى إهمال بعض من جوانب الشريعة، كالزكاة والصدقات. وكلمة (الزكاة) في العربية تعني النمو والزيادة.

ففي الأزمنة التي كان فيها جمع أموال الزكاة وتوزيعها بانتظام، وكان أي فائض منها يتم إيداعه فيما يُسمَّى بـ (بيت المال)، هذا في حد ذاته يعتبر نوعًا من أنواع البنوك التي تدعم جهود المجتمع ككل. ففي تاريخ المسلمين، قرأنا جميعًا أنه كان لا يوجد من المسلمين مَن يحتاج إلى مال قط. والآن، نجد أن بعضًا من البلاد لا يزال تقوم بجمع أموال الزكاة – مثل: نَجْد – فلا يوجد بها الآن فقراء. أما في بعض البلاد التي أهملت هذا الجانب من الشريعة الإسلامية، كَثُرَ فيها عدد المسلمين الفقراء، وهذا الإهمال كان سببًا في التضييق على حال الأخ المسلم المحتاج. إن هذا التضييق عليه ليس ذنب الناس، ولكنه خطأ وقع من الحكومات الاستبدادية وسوء تقديرها في السابق؛ لأن هذه الحكومات ساعدت بأسلوب ما في حرمان الناس بعض الوقت من الأموال. تلك الأموال التي ينتظرونها من المسئولين الحكوميين، وبالتالي هذا التقصير من الحكومات أثَّر تأثيرًا مباشرًا على الأخ المسلم الفقير، فلم يستطع الناس إيتاء الزكاة أو التصدق بما هو فائض لديهم على الفقراء والمحتاجين.

من الأفضل أن يدرسوا النظام المالي في الإسلام برمته؛ لأنه يبدو أن الناس يظنون أنه لم يكن هناك شيء من هذا القبيل في الإسلام أصلًا، وأن المسلمين بطبيعتهم غير جادين في هذا الأمر، وأنه لا يوجد خبيرٌ مسلمٌ البتة في هذا المجال، إلى أن قدَّم لنا التأهيل الإنجليزي السيد أكبر حيدري.

كان هناك العديد من كبار الخبراء الماليين المسلمين، وكان النظام المالي الإسلامي نظامًا كاملًا، إلا أنه كان من الصعب على مَن هم في المناصب العليا أن يفهموا هذا النظام المالي في الإسلام؛ لأن هذا النظام لم يكن هدفه هو الربح الخاص، أو ربح الدولة، وإنما المنفعة العامة التي تصب في مصلحة أخوة المسلمين ورفاهيتها وتقدمها بأكملها. لقد كان هذا النظام المالي عاملًا مؤثرًا في نجاح الحضارة الإسلامية، حيث تزامنَ انحدار تلك الحضارة مع الإهمال التدريجي له. ولأهمية هذا النظام المالي، أَلَّفَ مستشرقون غربيون فيه كُتُبًا كثيرةً، لا سيما ذلك الكتاب الضخم الذي أَلَّفَه واحد من الأساتذة الجامعيين الأمريكيين، وتعامل معه بجدية على أن هذا النظام كان من أقوى العوامل المساهمة في الفكر الحضاري للمسلمين. لذا؛ فإن النظام المالي الإسلامي القديم، الذي يراه كثير من المسلمين اليوم هو النظام الذي يتوافق مع الشريعة الإسلامية بحذافيره، جعلهم في حيرة من أمرهم حول النظام المالي الحالي.

إنها الطريقة المُثلى والأبسط، بل والأكثر فعالية لبناء مجتمع قوي، أو لاستعادة مجتمع قد فسد بطريقة أو بأخرى، لكنها تتطلب نوعًا من التضحية من كافة طبقات المجتمع. فإذا ما جعلنا الشريعة الغرَّاء نُصب أعيننا، فعلينا أن ننفق من مال الله الذي بين أيدينا، ليس فقط بالمال، وإنما علينا أن ننفق مما أعطانا الله من النِعَمِ التي وهبنا الله إياها بالطريقة التي شرَّعها الله، وليس بطرق أخرى من عند أنفسنا. إن أسلوب العالم المعاصر يقول: (ادخر كل ما تستطيع ادخاره، واستثمر أموالك، ثم اجعل ذلك كله في مصلحتك). أما القرءان الكريم فقد هذَّبَ ذلك، وقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ

الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴿٢١٩﴾ [البقرة: 219]؛ أي يُنْفِقُ ويتصدق بعد أن يفي الإنسانُ احتياجاته، واحتياجات مَن يعول، ثم يُنفِق من ماله للمسلمين المحتاجين والفقراء؛ لأن الصدقة مُتَنَفَّسُ الفقراء والعمود الفقري للعمل الجماعي، وبالتالي يزداد الشعور بالأُخُوَّةِ الإنسانيةِ. وعلى النقيض من ذلك؛ فإن الله ﷻ يُحَرِّمُ الربا بكافة صوره وأنواعه؛ لأنه يجني الربح من حاجة الأخ المسلم واستغلاله، فيزداد الفقراء بؤسًا واحتياجًا في سبيل إسراف الشخص الذي أعطى أموالًا بالربا للمحتاج. وهذا يعني تبديدًا لمال الله الذي هو بين أيدينا، وهذا التبديد لا فائدة منه إطلاقًا، فالربا مُحَرَّم، والإسراف مثله تمامًا. وربما تبدو بعض أوامر الشريعة الإسلامية عجيبة في الوقت الحالي، ستظل هكذا حتى يدرك المرء أنها تشير إلى حالة من المجتمع التي لا تقوم في الأصل على المنافسة والصراع، وإنما على فكرة الأُخُوَة؛ تلك الحالة التي لا يُسمَح فيها بتجويع أحدٍ أحدًا، وتلك الحالة التي إذا وُجِدَتْ، ازدهر المجتمع وصار أكثرَ نجاحًا وتوفيقًا. وبالنسبة لي، فإنني أرى أنه من الضروري أن يدرس مسلمو اليوم بعناية النظام المالي المناسب لهم في هذا الزمن.

أضف إلى هذا التدهور الملحوظ، إهمالًا آخر قد تسبب في تدهور الحضارة الإسلامية، ألا وهو التعليم. قد أُهْمِلَ التعليم لكل مسلم – ذكرًا كان أو أنثى – بأسلوب يُرْثَى له. فلو نظرنا إلى حال التعليم في الإمبراطورية التركية ومصر – مثلًا – في السابق، نجد أنه كان هناك تعليمٌ شاملٌ، وكان ذلك النظام التعليمي متقدم بمراحل كثيرة على المستوى العالمي، وكانت هناك مدارس لكافة الناس قبل أن يحتل التعليم الحديث مكان التعليم القديم. أما الآن، فصار متأخرًا في حالة من الركود. وفي بلاد الهند، لا يوجد مَن

يعرف عن الدين الإسلامي غير الكلمات الست [53]. كما أنه في كل بلد مسلم نرى أن كثيرًا من المسلمين على حذر من قبول أي نوع من أنواع العلم والمعرفة الأوروبية، وبالتالي تخلفوا عن الرَكْبِ. ونرى بعضًا من المسلمين يرددون أشياءً اعتبروها أسبابًا من أسباب التخلف عن رَكْبِ الحضارة والتقدم، وهي أسباب في حد ذاتها ليست مفهومة، وهذا كله مصدر مثمر جدًا للفقر المعرفي عند كثير من المسلمين. كما يمكنني القول إن كل هذا يمكن معالجته في الوقت المناسب، وبالفعل يوجد مَن يعمل على علاج هذا التراجع الحضاري، وذلك على المسلمين أن يُبْرِزوا الأنموذج العظيم لمفهوم الأُخُوَّة الذي قد سادوا به العالم أجمع.

ودائمًا ما نرى أن مَن ليس على دين الإسلام ينظر إلى أن الحروب بين الحكام المسلمين، والاختلاف في الآراء السياسية، والاختلاف في العرق واللون، هي كلها من الاختلاف الحقيقي بين المسلمين. إن نظرة مَن ليس على دين الإسلام بهذه الطريقة دائمة

---

([53]) تُعرَف بالتقاليد الست، وهي عبارة عن ست عبارات إسلامية يتلوها مسلمو الهند وبلاد جنوب آسيا. وكانت تُدَرَّسُ قديمًا في الهند وباكستان وبنغلاديش، والمدارس الدينية الأخرى في دول جنوب آسيا. وهذه الكلمات هي: (1) كلمة الطَّيِّبَة: لَا إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللَّهِ. (2) كلمة الشهادة: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. (3) كلمة التمجيد: سُبْحَانَ ٱللَّهِ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱللَّهُ أَكْبَرُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْعَظِيمِ. (4) كلمة التوحيد: لَا إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ أَبَدًا أَبَدًا، ذُو ٱلْجَلَالِ وَٱلْإِكْرَامِ بِيَدِهِ ٱلْخَيْرُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. (5) كلمة الاستغفار: أَسْتَغْفِرُ ٱللَّهَ رَبِّي مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ أَذْنَبْتُهُ عَمْدًا أَوْ خَطَأً سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَأَتُوبُ إِلَيْهِ مِنَ ٱلذَّنْبِ ٱلَّذِي أَعْلَمُ وَمِنَ ٱلذَّنْبِ ٱلَّذِي لَا أَعْلَمُ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ وَسَتَّارُ ٱلْعُيُوبِ وَغَفَّارُ ٱلذُّنُوبِ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْعَظِيمِ. (6) كلمة رد الكفر: ٱللَّٰهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ شَيْءً وَأَنَا أَعْلَمُ بِهِ وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ بِهِ تُبْتُ عَنْهُ وَتَبَرَّأْتُ مِنَ ٱلْكُفْرِ وَٱلشِّرْكِ وَٱلْكِذْبِ وَٱلْغِيبَةِ وَٱلْبِدْعَةِ وَٱلنَّمِيمَةِ وَٱلْفَوَاحِشِ وَٱلْبُهْتَانِ وَٱلْمَعَاصِي كُلِّهَا وَأَسْلَمْتُ وَأَقُولُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللَّهِ.

تفشل في فَهم طبيعة هذه الاختلافات، فالحقيقة ليس كذلك البتة. فالاختلافات بين المسلمين ناتجة عن اختلاف الطرق المؤدية إلى الغاية التي يراها الإسلام. فنحن المسلمون عندنا نقول: (أنا مسلم)، وكذلك نقول: (السلام عليكم)، أي أننا جميعًا مسلمين. إن الوسائل تختلف بين المسلمين، والغاية التي يراها كل مسلم هي الغاية التي يراها الإسلام، وهي بناء قوي للأخوة البشرية في جميع أنحاء العالم. نحن نختلف فقط في الطريقة التي يتم بها ذلك، ونشر التعليم الإسلامي المناسب لذلك، والسماح لكافة الناس أن يقرأوا القرءان الكريم، ومقارنة تعاليمهم بمتطلبات العصر الذي نعيش فيه، فإذا فعلنا ذلك، فلسوف تخف حدة الاختلاف فيما بيننا، وتُزال المفاهيم الخاطئة فيما يتعلق بمفهوم الأخوة العالمية بين بني آدم – مسلمين وغير مسلمين – وكل مَن يسعى لإقامة ملكوت الله على الأرض؛ أي الاستخلاف في الأرض على مراد الله وحده.





# المحاضرة الرابعة

# العلم والفن والآداب

أتحدثُ إليكم اليوم عن إنجازات المسلمين في مجالات: العلم، والآداب، والفن.

واسمحوا لي أن أقدم لكم عينة موجزة من السنة النبوية، ليستْ من القرءان الكريم، لأن القرءان في ذاته ليس إنجازًا من إنجازات الثقافة الإسلامية، ولكنه هو مصدر الإلهام الأول والسبب الرئيس لكل هذه الإنجازات.

فلنبدأ بالحديث عن إنجازات المسلمين في العلم أولًا:

كانت المناشدات المتكررة للعقل البشري، وتعظيم الجوهر الإنساني في القرءان الكريم، من أجلِّ الأوامر النبوية وأوضحها التي استشهدتُ بها في المحاضرات السابقة، مثل: (طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ) [54]، (اِطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ فِي الْصِّينِ) [55]، (تَفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ ستِّينَ سنةٍ) [56]، فقد بدأت الحضارة الإسلامية على أساس من الفكر الحر والبحث الحر، وكلاهما كانا باسم الله وبركته.

إن قضية البحث عن الأطروحات العلمية في القرءان، أو في أي كتاب مقدس يدَّعي أنه كلام الله، أمرٌ لا فائدة منه؛ فالوحي الإلهي هو فقط عبارة عن تشريعات وقوانين لا يستطيع الإنسان أن يستكشفها بنفسه [57]. لكن يستطيع الإنسان أن

---

([54]) أشرتُ إلى تخريج الحديث في المحاضرة الأولى: الثقافة الإسلامية.

([55]) أشرتُ إلى تخريج الحديث في المحاضرة الأولى: الثقافة الإسلامية.

المصدر: الغزَّالي؛ أبو حامد محمد بن محمد، **إحياء علوم الدين**، الجزء الخامس، صفحة 74. أخرجه ابن حبان في كتاب (العظمة) من حديث أبي هريرة بلفظ (ستين سنة) بإسناد ضعيف، ومن طريق ابن الجوزي في (الموضوعات)، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند (الفردوس) من حديث أنس بلفظ (ثمانين سنة). وإسناده ضعيف جدًا، ورواه أبو الشيخ من قول ابن عباس بلفظ (خير من قيام ليلة).

([57]) أي لا تخضع للتجربة.

يستكشف قوانين الطبيعة الفيزيائية بنفسه عن طريق البحث والفحص والتجربة، وهذا جزء من تطور الإنسان ونموه، لأنه قد بذل جَهدًا للوصول إلى ذلك بعد المعرفة. فعندما يتحدثُ الإدراك اللانهائي إلى الإدراك المحدود، فيجب أن تكون في حدود ما يفهمه البشر (أصحاب الإدراك المحدود)، فيما عدا ذلك، فالأمر سيكون برمته هراءً للناس، مما ينتهي بهم الأمر إلى الابتعاد عن الوحي الإلهي.

وهناك آيات قرءانية، إذا ما اقْتُطِعَتْ من سياقها، فُهِمَ عكس مرادها الصحيح، فإذا ما اقْتُطِعَتْ الآيات التي تتحدث عن العلم، نُظِرَ إليها باعتبارها ضد العلم الحديث. إنهن – أي هذه الآيات القرءانية – جزء من اللغة المعقولة والمنطقية في ذلك الوقت، أما بلغة اليوم، فتبدو وكأنها غير معقولة وغير منطقية. من ناحية أخرى؛ يوجد كثير من الآيات التي تأخذنا إلى أعلى مستويات المعرفة الإنسانية.

سأستشهدُ بثلاثٍ منهن:

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: 38].

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴿٣٦﴾﴾ [يس: 36].

إن أحدث الاكتشافات العلمية تقول إن كل شيء موجود في هذا الكون هو ذكر وأنثى، حتى بلورات الصخور، والشحنة الكهربائية كذلك.

وفيما يتعلق بي، فإن ثمة كلمات هن الأكثر أهمية لي على الإطلاق، رغم أن هذه الكلمات تفوق فَهمي وإدراكي لها تمامًا: (*لن نُحْكَمَ عليك إلا كروح واحدة*). إنها روح البشرية جمعاء، وربما روح كل ما فيه روح من مخلوقات الله!

ومما لا شك فيه أن القرءان حثنا بقوة بالغة في آياته كي نطرق باب التعلم والدراسة، خاصةً في مجال العلوم الطبيعية. وكما أعلن بعض الكُتَّاب المعاصرين أن الطريقة الاستقرائية – التي تؤول إليها جميع الاكتشافات العلمية الحديثة بطريقة أساسية – يمكن أن تُعْزَى إليها، فيمكن عندئذٍ تسميتها بسبب التقدم العلمي والمادي الحديث.

انطلق المسلمون في البحث والتعلم والدراسة باسم الله في وقتٍ كان المسيحيون يدمرون فيه كل ما تعلَّمه القدامى باسم المسيح عليه السلام. لقد دمروا مكتبة الإسكندرية، وقتلوا عديدًا من الفلاسفة بما فيهم هيباتيا [58]. فكان التعليم في نظر المسيحيين، وقتئذٍ، شرك، وأنه شيطان أحبَّه الوثنيون. لم يكن لديهم أي أمر أو تشريع كما عندنا (اِطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ فِي الصِّينِ). أضف إلى ذلك؛ إحراق الكهنة لمخطوطات التعليم اليوناني والروماني ودراساتهم علانيةً. إن الرومان الغربيين قد أخضعوا أنفسهم تمامًا للهمجية والوحشية في التعامل مع التعليم والعلماء، لكن على الجانب الآخر، حافظ الأباطرة الرومان الشرقيون بمكتبتهم، واستقبلوا بعض العلماء داخل أسوار قصورهم. كل شيء تحت سيطرة الكهنة! ومن جانب المسلمين، نجد أن الخليفة المأمون شنَّ حربًا على الإمبراطور

---

[58] هيباتيا السكندرية (360: 415م) هي فيلسوفة تخصصت في الفلسفة الأفلاطونية المحدثة، وتعتبر أول امرأة يلمع اسمها كعالِمة في الرياضيات عبر التاريخ، كما لمعت في تدريس الفلسفة والفلك. وأعدمتها الكنيسة المسيحية بالسلخ لعدم التزامها بمبادئ الدين المسيحي، مما سبب حرجًا بالغًا للكنيسة المسيحية.

المسيحي حاكم القسطنطينية، كانت حربه من أجل الحصول على بعض الكتب القديمة وبعضٍ من العلماء ممن هم على دراية بالعلوم القديمة. تم الأمر فعلًا، وأغلقوا أبواب قصر إمبراطور القسطنطينية من أجل الحفاظ على حياتهم من القتل، وعندما أتوا إلى بغداد، نفعوا البشرية كلها بعلومهم فيما بعد. ثم تعاون هؤلاء العلماء مع علماء المسلمين في ترجمة الكتب القديمة. وهكذا، أنقذ المسلمون التعليمَ القديمَ وكتبه ومخطوطاته المتبقية من الدمار والحرق، ونقلوا كنوزه إلى العصر الحديث.

كان العلماء المسلمون الكيميائيون يقومون بتجاربهم العلمية باستمرار، والأكثر من ذلك، أنهم قاموا بتسجيل نتائج تجاربهم ومقارنتها ببعضها البعض. وقبل ذلك الوقت؛ كان هذا العلم موجودًا في الشرق، إلا أنه كان سريًّا؛ لأن الناس قديمًا كانت تعتقد فيه أن المشتغل به يأتي بالعجائب والسِحر. وفيما بعد، نشر العلماء المسلمون ما توصلوا إليه في تجارب الكيمياء، وقد رحبوا بنصائح غيرهم من العلماء ومساعدتهم. ونلاحظ أنهم لم يدونوا ملحوظاتهم العلمية ونتائجهم في خطوة واحدة، وإنما اتبعوا الطريقة الاستقرائية في علم الكيمياء خطوة تلو الأخرى، تلك الطريقة التي كانوا هم أول مَن يعتمدها، فقاموا بتسجيل كافة ما توصلوا إليه من ظواهر ونتائج وغيرهما. كما أن المعطيات التي حصلوا عليها كانت هي الأساس المعترف به لعلم الكيمياء الحديث.

وكتب أحد علماء المسلمين في الكيمياء في القرن الثالث الهجري: (*إن الكيمياء لا تدعم كلامًا بلا دليل أو حجة قوية. فيمكن اعتبار ذلك قانونًا صارمًا لأي أطروحة علمية لا تدعمها الحجج والبراهين؛ فمجرد ادعاء شيء باعتباره حق، هو مجرد ادعاء،*

*أما عندما يطرح المتمرسُ أطروحته مدعومة بالحجج والبراهين، فإننا نقول له: "أطروحتك قويمة")*.

لم يكن ذلك الكيميائي استثناءً، وإنما كان ضمن مجموعة من العلماء المفكرين الأفذاذ الذي درسوا وتعلموا علمي الكيمياء والفيزياء في القرن الثامن أو التاسع الهجري، لكنه سبقهم زمنيًا. استخدموا نفس الطريقة في علم الفيزياء؛ أي الطريقة الاستقرائية، ثم دونوا نتائجهم وتجاربهم كاملة.

كما أنهم قد أبدعوا في علمي الرياضيات والهندسة، وابتكروا علم الجبر الذي نعرفه الآن على هيئته، وكان من المسلمين علماء متمرسون في علم النباتات أيضًا، والدليل أن أي قاموس (عربي أو فارسي أو تركي) ستجدون إسهامات علماء المسلمين العلمية في هذا المجال. أما اليوم، فلو سألت شخصًا عربيًا على قدر قليل من الثقافة عن اسم بعض النباتات البرية، فمن المرجَّح جدًا أن يكون رده: (إنه نوع من العشب)، أو ربما يرد بأسلوب فيه استخفاف: (إنه نبات بري)! إن غالبية الناس اليوم لديها دراية فقط ببعض النباتات أو الأعشاب المنزلية التي تُستخدم في صناعة العطور المميزة.

وفي التاريخ الطبيعي، بدأوا باتباع أرسطو اتباعًا أعمى لخدمة الفكر المعاصر، لكن أفضل ما يمكن أن يُفْعَلَ تجاه أرسطو احترامه وتقدير جهوده الفكرية، فيما بعد راقب العلماءُ أنفسَهم، ودونوا ملحوظاتهم العلمية، وبالتالي قاموا بتصحيح ما كان عليه أرسطو، وعزَّزوا المعارف العلمية.

وفي علم الجغرافيا حققوا تقدمًا عظيمًا. كان العرب من أعظم التجار والرحَّالة والملَّاحين في ذلك العصر، وقد كتبوا كل ما لاحظوه بدقة في مؤلفاتهم ومصنفاتهم، مما دفعهم إلى رسم هذا الجزء من الكرة الأرضية خلال سفرهم وترحالهم. أما من الناحية التعليمية، فكانت الجغرافيا تُدرَّس في مدارس المسلمين، وكذلك كان طلبة العلم على وعي بالحالة السياسية والاجتماعية والتجارية، مع دراسة كل ما يخص الحيوانات والنباتات والصادرات والواردات؛ أي كل ما يتعلق بأمور الدنيا كان محط أنظار الدارسين.

وفي علم الطب، من الناحية النظرية والتطبيقية، كانت إنجازاتهم ملحوظة جدًا لدرجة أن نظام الطب اليوناني – أي الطب العربي اليوناني الذي كُتِبَ بالعربية وبُنِي في نهجه على مبادئ الطب اليوناني القديم – استقبلته جميع الدول الأوروبية واهتمت بتعليمه كذلك، ويشار هذا المصطلح اليوم إلى الطب الشعبي في آسيا. ويمكنني القول: إنه لولا جهود المسلمين في هذا العلم اليوناني الأصل، لضاعت الإسهامات العلمية اليونانية، وذهبت سُدى.

كان الأطباء المسلمون أول مَن أَصَّلُوا لفكرة الهواء الطلق النقي والنظافة الكاملة للمريض، وكانوا أول مَن أقاموا المستشفيات التي قُسِّمَتْ إلى أجنحة منفصلة، كل مريض يُعالَج في قسم محدد حسب نوع المرض الذي أَلَمَّ به، حيث شكلت فكرة الهواء الطلق النقي والنظافة جزءًا من العلاج؛ فقد كان اهتمامهم الأول هو راحة المريض ورعايته.

وفي زمن لاحق – أي في أواخر القرن الثامن عشر – أعاد الأتراك إلى أوروبا المعارف والخبرات التي يمكن الحصول عليها من الينابيع المعدنية والتغيرات المناخية والمائية. إضافة إلى ذلك؛ كان من الأتراك – في القرن الثامن عشر – مَن نقل فكرة التطعيم لأول مرة إلى أوروبا. كما كان من بين الأشياء المجدية والمثمرة التي أعادها السيد ستيوارت وورتلي مونتاغو Stuart Wortley Montagu، زوج السيدة ماري، التي كانت كتاباتها الأدبية القائمة على محو كافة الأفكار والمفاهيم الخاطئة المتعلقة بالبربرية المنسوبة إلى الأتراك في ذلك الوقت.

وفي علم الفلك، كانت بعض أمور التنجيم جزءًا من الفلك، وكانت مراصدهم الفلكية مزودة بأدوات دقيقة في ذلك الوقت. كما أنهم سجلوا جميع ما استكشفوه في كتبهم ومصنفاتهم. إن أشهر هذه المراصد الفلكية هي التي في إسبانيا، كما يوجد مرصدٌ آخرٌ في مدينة سمرقند.

فكان الجغرافيون وعلماء الرياضيات يشاركون علماء الفلك في تدوين ما قد توصلوا إليه، كلٌ في فنِّه وتخصصه، وكان للرحالة دور في ذلك الأمر، لأن ذلك من صميم عملهم وعلمهم. كان الكل مشارك في النتيجة التي توصلوا إليها وهي أن الكرة الأرضية تدور حول نفسها، وأن كافة المعدات التعليمية متاحة لطلبة العلم في الجامعات الإسلامية الإسبانية. ذلك الوقت نفسه الذي حُوكِمَ فيه على العالِمِ الفذ فيليبو برونو [59] بالهرطقة، ثم أصدرتْ محاكم التفتيش الرومانية أمرًا بإعدامه حرقًا بالنار؛ لأنه كان يتبنى

---

([59]) فيليبو برونو Filippo Bruno: (1548: 1600م) كان فيلسوفًا إيطاليًا، وراهبًا في بداية حياته، ثم انتقل من الدراسات اللاهوتية إلى الفلسفة.

نظرية كوبرنيكوس عن دوران الأرض، والتي كانت تخالف المعتقد الكاثوليكي. وكان بعده جاليليو الأكبر الذي اضْطُّهِدَ على أن يرجع عما كان قد اعتنقه على حق بما يخالف الكنيسة الكاثوليكية، والتي تقول إن الأرض ثابتة لا تدور، كما يقول الكتاب المقدس. وعندما أُجْبِرَ على ذلك، وأصدروا له مرسومًا كي يكتب اسمه عليه يفيد رجوعه إلى معتقد الكنيسة الكاثوليكية، كان يُتَمْتِمُ بقوله: (*ومع ذلك – أي الأرض – تتحرك*). وكان يُدَرَّسُ في الجامعات الإسلامية الإسبانية أن كولومبوس توصل إلى أن العالم كروي، رغم أنها حقيقة علمية، لكنه اضْطُّهِدَ هو الآخر حتى يرجع عن قوله. فعندما نتذكر أن الجامعات الإسلامية الإسبانية في عهد الخليفة عبد الرحمن الثالث، والجامعات الإسلامية الشرقية في زمن الخليفة المأمون – وأذكر هذين الخليفتين تحديدًا لأن في زمنها سُمِحَ بطلبة العلم من المسيحيين واليهود، وكانوا جميعًا على قدم المساواة مع طلبة العلم المسلمين – ليس ذلك وحسب، وإنما كان الجميع يدرس على نفقة الدولة أيضًا. فكان مئات من طلبة العلم المسيحيين الوافدين من جنوب أوروبا قد استغلوا هذه الفرصة للهروب من التحكم الكنسي الشديد والكهنوتية. لذلك؛ يمكننا أن ندرك بسهولة أن أوروبا بأكملها مَدِينَةٌ للإسلام بما فيها من تقدم وازدهار حقيقي، في حين أنه لا يدين الإسلام بأي شيء للكنيسة المسيحية إطلاقًا، والتي قد اضطهدت العلماء وعذبتهم، بل وأحرقتهم أيضًا.

والآن، سننتقل إلى إنجازات المسلمين في الفن:

إن حركة الرسم والنحت قُيِّدَتْ بموجب القبول العام للتصاميم التقليدية (التماثيل)، وذلك يؤول إلى أن الناس دائمًا تربط بين صور الكائنات الحية وأشكالها

بالوثنية. أما بالنسبة لي، فلم أجد أي أمر مباشر من القرءان الكريم أو في السُّنة النبوية ترفض أو تمنع هذا النوع من الفن. لم أجد شيئًا غير أن النبي ﷺ رفض طلبًا من رسَّامٍ فارسيٍّ أراد أن يسمح له النبي ﷺ برسم صورته ﷺ على لوحة من أجل عرضها على بلاد فارس والدول التي تحت سيطرتها، خوفًا من أن وثنًا يُعْبَدَ من دون الله. وبعد تدهور الحضارة الإسلامية، بدأت مثل هذه اللوحة، وغيرها، من الرسومات والأعمال الفنية بين المسلمين. وعلى الرغم من أن بعضًا من هذه الأعمال الفنية كانت رائدة – في ذلك الوقت – إلا أنها لم تُصنَّف إسلامية لارتباط أذهان الناس بعبادة الأوثان. ولهذا السبب؛ أصبحت الموسيقى والأعمال الدرامية من الفنون المهملة والمُحتقَرة أيضًا، على الرغم من أن عامة الناس حافظوا عليهما. ومن مظاهر حفاظهم عليهما، كانت الموسيقى والأعمال الدرامية، وما زالت، يتلذذ الناس بالاستماع إليها ويشاهدونها في الولائم والمواسم المتعددة، وبالكاد صارت فنًا من الفنون. وإذا نظرنا إلى المؤذنين، نجد أنهم هم المنشدون الوحيدون الذين لهم مكانة خاصة جدًا في العالم الإسلامي، والجميع يوقرهم ويبجلهم، وكل آذانهم مُصغية إذا ما دُعوا إلى حفلات أو مناسبات اجتماعية. علاوةً على ذلك أنهم كانوا يحصلون على أجور عالية تقديرًا لجهودهم وإنشادهم وعذوبة أصواتهم، وكانت تلك الأجور أعلى من المغنيين أو المطربين العاديين. قد كانت الموسيقى والأغاني موجودة في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وكانت موجودة في العصور السالفة للمسلمين في أوج مجدهم، كما كانت راقية ومحببة إلى النفوس، ويعزف الناس على العود من أجل المتعة، وليست مثل فن الموسيقى الثقيل الممل المعروف الآن في أوروبا الحديثة.

وأما ما يتعلق بالدراما، أُهْمِلَتْ أيضًا بسبب أنها تقلل من وقار المسلم ومكانته وهيبته، فيتظاهر بما ليس منه. وأما فيما يتعلق بالمرأة المسلمة، فهو أشد. وبالتالي؛ أُهْمِلَتْ الأعمال الدرامية حتى انخفض مستواها، وصارت ألعوبة في أيدي المتلاعبين؛ اليونانيين والأرمن. ويمكن لي أن أقول إن الشيء الوحيد الذي يقترب في أدائه من الدراما، وهو المعتاد في العالم الإسلامي، هو مسرحيات الظل [60]، والتي قُدِّمَتْ في جميع الاحتفالات والعامة والمحلية، وشملتْ على مجموعة كبيرة ومتنوعة من الموضوعات، حيث اعتُنِي بها اعتناءً كبيرًا حتى وصلت إلى درجة عالية جدًا من الاتقان. ويشار إلى هذا النوع من العروض كما في (رباعية عمر الخيام) الشهيرة، والذي يعمل على ترجمتها فيتزجيرالد [61]، فقال واصفًا إياها:

*(لسنا سوى صف متحرك من أشكال الظل السحرية التي تأتي وتذهب في فلك مشكاة مستمدة نورها من الشمس، يحملها ربُّ العرض المسرحي في منتصف الليل).*

وتذكرنا كلمة عمر الخيام – صانع الخيمة – بفن آخر متطور للغاية في الحضارة الإسلامية، ألا وهو فن زخرفة الخِيام من داخلها بعديدٍ من تصاميم الأرابيسك الملونة، والنصوص المتشابكة والتطريزات المعقدة. كان سانت بول أحد الخيَّامين اليهود الذي لم يكن مجرد تاجرٍ كبقية الخيَّامين، ولكنهم جميعًا كانوا يتمتعون بقدر عظيم من المهارة والإبداع.

(60) مسرحيات الظل: أو تُسمَّى بـ(خيال الظل) أو (ظل الخيال): هو فن شعبي انتقل إلى العالم الإسلامي من الصين أو الهند، وازدهر في العصر المملوكي.

(61) إدوارد فيتزجيرالد Edward FitzGerald: (1809: 1883م). شاعر وكاتب إنجليزي، ومن أشهر أعماله ترجمة (رباعية عمر الخيام) إلى الإنجليزية.

وشاهدتُ بنفسي عديدًا من مسرحيات خيال الظل، والتي لا تزال تعمل إلى الآن في آسيا الصغرى وسوريا ومصر في تسعينيات القرن الماضي، وعلى الرغم من هبوطها إلى مستوى العوام، لكن يمكنني أن أشهدَ وأؤكدَ على مهارة مَن يقومون على عرضها على المسرح وذكائهم وإتقانهم. لم يكن هناك أي شاهد أو علامة على وجود دراما حقيقية في الحضارة الإسلامية إلا في مطلع القرن التاسع عشر. وإذا انتقلنا إلى بلاد فارس وتركيا، نجد أن المسلمين كتبوا بعض المسرحيات الجيدة، لكن لم يقم أحد من المسلمين بأدائها، لكن كان الفنانون من الأرمن أو اليهود. وفي دمشق؛ كتب أحد العلماء [62] بعض المسرحيات القوية، وصُنِّفَتْ على أنها من الأدب، وكان موضوعات هذه المسرحيات تدور حول حياة المسلم وتاريخه، مثل: مسرحية (عفيفة).

وكان يحتل الروائي – في الحضارة الإسلامية – نفس المكانة التي كان يحتلها الممثل أو الفنان في الحضارة الغربية الحديثة. فقد كان إنتاج الروائيين يغلب عليه الاستلهام من واقع الحياة، ثم نسجها وكتابتها في كتب، ورغم ذلك، لم يحتل الأدب في الشرق مرتبة الأدب قط، حتى ولو كان المؤلف من العلماء البارزين. ثم ظهر نوع غريب من الروايات أو القصص العربية المعروفة باسم (المقامات)، وهي تقترب من كلمة (السمر)؛ أي حديث مجموعة من الناس مجتمعين في مكان واحد ليلًا يتسامرون. إن (المقامة) فهي الحضور في قصور العظماء والأمراء من أجل الترفيه، و(السمر) فهو الحضور في مجالس عامة كالمقاهي أو الأزقة أو غيرهما من أجل الترفيه وليال الأنس. ولأول مرة عرفتُ

---

([62]) أحمد أبو خليل القباني الدمشقي (1833: 1903م): هو العلَّامة الفاضل، والأديب الكامل، والأستاذ الجليل – من أعلام سوريا؛ رائد المسرح العربي ورائد المسرح الغنائي العربي.

المقامات والسمر اللذين كانا رائجين في القاهرة ودمشق. فأخذ الحريري [63] فكرة عمله العظيم (مقامات الحريري)، حتى أنه اقتبس اسم بطل المقامات (أبا زيد السروجي) من قصة أبي زيد الحجازي، التي كانت تعتبر مرجعًا عظيمًا لدى الروائيين الرحَّالة. وأشهر روايات الرحَّالة (ألف ليلة وليلة)، والتي ينظر إليها الناس في الغرب نظرة تقدير واحترام باعتباره عملًا أدبيًا عربيًا عظيمًا.

كما في كتاب ويلفريد بلنت [64] (The Stealing of Mare) الذي ترجمه من العربية إلى الإنجليزية، نجد أنه ذكر قصة أبا زيد أيضًا. ولكن، هناك عديد من المجموعات القصصية الضخمة التي نُشِرَتْ في السنوات الأخيرة باللغة العربية، مثل عنترة بن شداد العبسي – شاعر وفارس قبل الإسلام – الذي أُطْلِقَ عليه اسم (هرقل الجزيرة العربية)، وكذلك سيف بن ذي يزن، وذلك البطريرك الذي أتى إلى القاهرة عبر النيل، وهلم جرا.

وتعتبر قصة حب عنترة بن شداد من النتاج الأدبي العربي (حسب ما وصل إلينا من التراث العربي). ويقال إنه كان هناك فضيحة هزَّت الرأي العام في قصر مَن يحكم مصر، فذاع صيتها بين الناس في شوارع القاهرة، حتى أنهم كانوا يتجمعون لكي يتسامرون ويتحاكون عنها، إلا أن حاكم مصر – وقتئذ – فكَّر في شيء آخر يلهيهم عما حدث في القصر، فأمر كاتبًا من الكُتَّابِ البارعين أن يؤلف قصةً، ثم يقوم بتوزيعها على القصَّاصين من أجل أن يقصوها على الناس بدلًا من الفضيحة المروعة التي حدثت في

---

([63]) أبو محمد القاسم بن علي الحريري البصري (446هـ: 516هـ): واحد من أكبر أدباء العرب، وصاحب (مقامات الحريري) الشهيرة في الأدب العربي.

([64]) ويلفريد بلنت Wilfrid Scawen Blunt (1840: 1922م): شاعر ورحَّالة ومستشرق إنجليزي. طاف بلاد الهند والشرق، وكان مسيحيًا كاثوليكي، ويقال إنه كان يميل إلى الإسلام، لكنه لم يعتنق دين بعينه.

قصر الحاكم المصري. فاختار ذلك الكاتب البارع أسطورة عنترة بن شداد – ذلك البطل العربي والشاعر – الذي بدأ قصيدته الجميلة بهذا البيت الشعري:

هَل غادَرَ الشُعَراءُ مِن مُتَرَدَّمِ ❋ أَم هَل عَرَفتَ الدارَ بَعدَ تَوَهُّمِ

وهذه القصيدة هي واحدةٌ من المعلقات السبع بشبه الجزيرة العربية، حيث كُتِبَتْ القصة بالأرقام؛ أي أن انتهاء كل رقم كان يعبر عن أكثر اللحظات إثارة في الأبيات الشعرية. فقد كانت تُوَزَّعُ على القصَّاصين واحدًا تلو الآخر، وكانوا يرددونها ليلًا على الذين يتسامرون حول مشاعل التدفئة. وبهذه الطريقة، سرعان ما نسى الناس ما حدث في قصر الحاكم. ولاحقًا، اهتم الناس بمثل هذه القصص والحكايات. إن مثل هذه الحكايات من التراث الشعبي والأدب في العالم الإسلامي نُظِرَ إليه بنظرةٍ فيها احتقار تارة، ونظرة اللامبالاة تارة أخرى؛ وذلك باعتبارها مرتعًا لكل مَن هبَّ ودبَّ من الدهماء. على النقيض من ذلك، فإننا في العصر الحديث لا يمكن لنا أن ننظر إليه مثل هذه النظرة، بل يمكن أن نعزو لهم بوضوح أصل أهمية شكل أغلب الأدب في الغرب في العصر الحديث، ألا وهو (فن الرواية).

ثم ماذا بقي لي أن أتحدث عنه فيما يتعلق بإنجازات حضارة المسلمين؟ مجال العمارة! أقول: من كاتدرائية قرطبة إلى ساحة سمرقند، ومن قصر الحمراء إلى تاج محل، ومن القبر الصغير للقديس الذي يتوج التل المرتفع المطل على مدينة بشت عبر نهر الدانوب إلى قباب القيروان والقاهرة، وقبة الصخرة في القدس – التي أطلق عليها عالِم ألماني أكثر المعالم الأثرية روعة على وجه الكرة الأرضية اليوم – هناك عديد من أنماط

الهندسة المعمارية مثل العديد من البلدان في التاريخ الإسلامي، وجميعها إسلامية خالصة.

إن العمارة الإسلامية أبدعت جمالًا معماريًا لا حصر له، فنجد هذا الإبداع المعماري في المساجد، والقلاع، والمدارس، والمستشفيات، وحتى بيوت اللهو. كل هذا الإبداع دالٌ على أن المسلمين – في العصور السابقة – كانوا عاشقين للجمال؛ جمال الشكل، وجمال التصميم المتشابك، وجمال الألوان. وبسبب تحريم الأشكال المرتبطة بالوثنية، فقد صبَّ المسلمون جُلَّ اهتمامهم على جمال الطبيعة، مما أدى إلى تناغم أعمالهم وفَنِّهم بدقة بالغة مع الطبيعة، مما لم يتعارض قط مع محيطهم البيئي. ومن علامات العمارة الإسلامية التي تتفرد بها عن غيرها في جميع أنحاء العالم: المباني ذات القباب الفريدة، والأسواق الكبيرة المغطاة مثلها مثل الكهوف الشاهقة على التلال أو على شاطئ البحر، والشموخ، ومزج القوة مع الرقة في البنيان، وهلم جرا. لم يكن هناك مثل الخلفاء العرب أو السلاطين الأتراك أو أباطرة المغول في روعة هندستهم المعمارية، وجمال صناعة الحدائق العامة. جميعكم يعرف قصة (تاج محل)، لكن أظن أن بعضَكم قد لا يعرف قصة (المعتمد بن عباد) – ملك إشبيلية – وما فعله من أجل زوجته لتحيا حياة سعيدة. ونظرًا لما أُعْجِبَتْ زوجه (اعتماد) أثناء سفرها بعاصفة ثلجية على قمم الجبال، غرس زوجها – ملك إشبيلية – التلَّ كله أعلى قرطبة بأشجار اللوز، حتى تراها زوجه مغطاة بثلج الأزهار في فصل الربيع من كل عام. لذا؛ لن ينسى أحد منكم جمال الحدائق التركية والفارسية، والتي أدرجتُها في إطار الهندسة المعمارية؛ لأنها مثل الحدائق اليونانية القديمة، فهي بالفعل مخطط هندسي.

ولم يكتف المسلمون بالجمال والبراعة في العمارة وحسب، بل في فن الخط العربي أيضًا. هذا الفن (التزويق) أو (الزخرفة العربية) عبارة عن نماذج معقدة تُستخدم

للتزيين؛ لأن زخارفه متداخلة ومتقاطعة، وهو ما نُطلِق عليه (الأرابيسك)، وهو جميل جدًا، لأنه يميز الفن الإسلامي، ويمثل أشكالًا هندسيةً وزهورًا وأوراقًا وثمارًا. كما أن كلمة (أرابيسك) تنطبق على فسيفساء البلاط الملون بأسلوب جميل.

وقبل مجيء الإسلام، في شبه الجزيرة العربية، كان هناك نمط واحد فقط من أنماط التأليف الأدبي الشعري. فلقد برع العرب الوثنيون في اللغة والشعر، مما دفع كثير من المستشرقين دفعًا قويًا إلى الميل تجاه شعراء الجاهلية – قبل الإسلام – القلائل المعروفين، فتأثروا بهم أكثر من مئات وآلاف الشعراء فيما بعد الإسلام، حيث كانت المعلقات السبع واحدةً من تلك الدوافع القوية. إن هذا هو رأي الذين يُفضِّلون موسيقى عود الراعي على موسيقى الأوركسترا الرائعة، وأعتبر نفسي واحدًا منهم؛ أي أعتبر نفسي من الذين يُفضِّلون شعر ما قبل الإسلام على شعر ما بعد الإسلام. أما من الناحية الثقافية، فإنه لا توجد مقارنة ممكنة بين أشعار امرؤ القيس، أو عنترة، أو كعب بن زهير – على سبيل المثال – وأبي الطيب المتنبي، أو أي مِن شعراء المسلمين الآخرين. إن الله لم يمنح الشعر لفئة قليلة من الناس دون الآخرين، فهذا غير معروف في حضارة المسلمين، وإنما كان الشعر هواية لكل مَن لديه موهبة الشعر. وإذا نظرنا إلى أسماء شعراء العرب وشعراء فارس وشعراء الأتراك، سنجد أن أسماءهم فقط قد تملأ عدة كتب.

يمكنني أن أستبعد من هذه العينة – التي تكلمتُ عنها – العملَ المُترجَم للمؤلفين اليونانيين واللاتينيين القدماء، وكذلك الحواشي والتعليقات المكتوبة عليه، والتي ملأت عديدًا من الكتب الشهيرة، رغم أنها كانت دليل على خدمة البشرية، حيث تحمل شعلة

التعليم القديم للغرب لأكثر من ألف سنة. فلم يستطع أحد أن يدَّعي بأن تلك الأعمال المُترجَمة هي نتاج الحضارة الإسلامية. إضافةً إلى ذلك أن المؤلفات حول الأخلاق والآداب شكَّلتْ طبقة من طبقات الأدب، فكان العرب مغرمين بها جدًا، وبلغ الولعُ بها مبلغًا عظيمًا. وأما بالنسبة للمنطق والبلاغة، فقد ملأت عديد من الكتب، ورغم ذلك لم تكن لتجذب القارئ المعاصر، وذلك بخلاف مؤلفات الفلسفة التي جذبت انتباه القارئ المعاصر جذبًا مثيرًا، مثل: مؤلفات الإمام أبي حامد الغزَّالي (65) التي تستحق الدراسة إلى وقتنا هذا.

كان علم التاريخ من العلوم التي اهتم بها المسلمون اهتمامًا بالغًا، كما هو الحال في أوروبا. فهناك مجموعة من التواريخ والحروب لها ترتيب معين حتى يسهل على الباحث في التاريخ أو دارسه أن يتذكره. ورغم ذلك إلا أن هناك عددًا من المؤلفات التاريخية لها طابع مختلف، والتي تعرض تفاصيل دقيقة، وتلقي الضوء على الطبيعة البشرية والأخلاق في عصرنا الحالي. فمن بين كُتَّاب التاريخ العرب الذين جذبوني بأسلوبهم وأُعْجَبْتُ بهم: عمارة (66)، وهو مؤرخ عرَّاب الحروب بين مدينتي زبيد وصنعاء اليمنيتين، ثم كتاب (الفخري) (67)، ثم ابن الأثير، ثم ابن خلدون الذي تُعتبر وجهة نظره

---

(65) حجة الإسلام بركة الأنام أبو حامد؛ محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزَّالي الطوسي (450هـ: 505هـ): كان فقيهًا شافعيًا أصوليًا، ومُتكلِّمًا سُنيًا أشعريًا، وقطبًا صوفيًا، وفيلسوفًا. مجدد المذهب الشافعي في الفقه، ومجدد المذهب السُّنّي الأشعري في القرن الخامس الهجري.

(66) نجم الدين أبو محمد عمارة بن أبي الحسن بن علي بن زيدان بن أحمد الحكمي اليمني (515هـ: 569هـ): هو كاتب ومؤرخ وشاعر يمني من منطقة تهامة، واشتهر بارتباطه بالحُكَّام الفاطميين في مصر. ومن مؤلفاته: (أرض اليمن وتاريخها)، (المفيد في أخبار زبيد)، (النُكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية).

(67) أشرتُ إليه في المحاضرة الثانية: عوامل النهضة وعوامل التدهور.

للتاريخ حديثةً جدًا لدرجة أنه من الصعب تذكره، حيث عاش قبل عدة قرون. كما يجب ألا أنسى أحمد الجبرتي – مؤرخ مصر العظيم – الذي كان في زمن الاحتلال الفرنسي لمصر، ثم جاء بعد زواله محمد علي باشا الأرناؤوط إلى سُّدة الحُكم، وأطلق عليهم الأوروبيون اسم (المؤرخون العَلمانيون) [68].

إلى جانب ذلك؛ هناك فئة كبيرة من المؤرخين الذين لهم تعامل مباشر مع تاريخ الإسلام، من بين هؤلاء إسماعيل أبي الفداء [69]، ومجد الدين [70] مؤرخ مدينة القدس المجيدة.

ثم هناك عديدًا من مؤلفات الرحَّالة، من أشهرها مؤلفات ابن بطوطة، لكنها ليست بأي حال من الأحوال هي الأكثر فائدة في زمننا هذا.

والآن، أتحدث إليكم عن نوع من الأدب الإسلامي الذي لا مثيل له أبدًا في الثقافات والحضارات الأخرى. إنه عدد ضخم من أحاديث النبي ﷺ مضاف إليها الشروح أو بدونها، حيث تكمن خصوصية هذا النوع الفريد جدًا من العمل الأدبي في

---

(68) عَلماني (بفتح العين) ليست هي عِلماني (بكسر العين)، والفرق بينهما كبير. وكلمة (عَلماني): انتساب الشخص إلى العالَم الآني؛ أي الدنيا في مقابل العالَم الآخر والغيبي والديني. وهي في الأصل ترجمة رديئة تداولناها فيما بيننا بسبب عوج الألسنة وانحرافها الذي أدى إلى هذا التحريف. للاستزادة يُرجى قراءة (العلمانية جذورها وأصولها) للدكتور محمد علي البار.

(69) عماد الدين الملك المؤيد أبو الفداء؛ إسماعيل بن علي بن محمود بن أيوب (672هـ: 732هـ): هو مؤرخ جغرافي، وقرأ التاريخ والأدب وأصول الدين والطب والفلسفة، وعلم الهيئة. وُلِدَ في دمشق، وتُوفِّي في مدينة حماة السورية.

(70) مجد الدين مؤيد الدولة أبو المظفر؛ أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكِناني الكلبي الشّيزَرِي (488هـ: 584هـ): هو أمير وفارس من بني منقذ، ومؤرخ وشاعر وأديب.

حرص المُحَدِّثين حرصًا شديدًا معقدًا من حيث التدقيق والتحقيق، وعدم قبول أي شيء غير موثَّق. وكان المُحَدِّثُونَ الأوائل قاموا على مراجعة هذا النوع من العمل الأدبي وتمحيصه جيدًا. ففي كل زمن يأتي الخلف لينقحوا وليمحصوا أعمال السلف [71]، فإذا وجدوا حديثًا أو قولًا يُنسب إلى سيدنا رسول الله ﷺ غير مكتمل فيه شروط أهل الحديث، فإنهم يصنفونه على أنه (حديث ضعيف)، حتى استقر مسلمو أهل السُّنة والجماعة على ستة كتب تضم كافة الأحاديث النبوية الشريفة، وأشهرها (صحيح البخاري)، و(صحيح مسلم).

ثم هناك ذلك الذي لديه النصيب الأكبر من الأدب، وهو نوع فريد جدًا أيضًا لا مثيل له في الثقافات والحضارات الأخرى، إنه (الفقه الإسلامي)، والذي يتضمن قوانين فن الحُكم، والقوانين السياسية، والاجتماعية، وقواعد عمل الإنسان اليومي. كما يهتم هذا العلم بقواعد عبادة الله، ففي الصلاة – مثلًا – يعلمنا كيف تقوم بثني الذراعين في تكبيرة الإحرام، وإرسالها، وكيفية وضع القدمين في التشهد، وانحناء الرأس، وهلم جرا. علاوة على أنه يُعَلِّمُنا كيف تكون علاقة الرجل بزوجه، وعلاقة المرأة بزوجها. إن هذا العلم الفريد من نوعه (بمفرده) مثل ما أنتجته المبادئ الكنسية وطقوسها، وكذلك

(71) وهو ما يُعرَف باسم (شرح فلان على كتاب علان) كما في (إحياء علوم الدين) – على سبيل المثال – للإمام أبي حامد الغزَّالي، حيث خرَّجَ الإمامُ الحافِظُ العراقيُّ أحاديثَه مُذيَّلة في نفس الكتاب بعنوان (المُغني عن الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار). فالإمام الغزَّالي يعتبر خاتمة سادتنا السلف الصالح المُتوفَّى سنة 505 هجرية، والإمام الحافِظ العراقي من سادة الخلف في علم الحديث الشريف ومصطلحه، ... وهكذا في كافة الكتب والمؤلفات بمنهج علمي معين ومعتمد عند مذهب أهل السُّنة والجماعة.

الفلسفة السكولائية أو المدرسية، التي كانت سببًا وجيهًا في تفسُّخ المؤسسات الدينية الإسلامية؛ لأن الهدف الذي سعى إليه مؤلفوه هو إظهار القرءان للناس باعتباره كل شيء دون فِكر إنساني. كما أن الفقه متمثل في الأحكام الشرعية فقط، وتمجيد المتون الفقهية بغض النظر عن روحها، ويحتوي على كثيرٍ مما يبدو بسيطًا جدًا ولا قيمة له، إذا ما قرأه العقل الإنساني المعاصر. إن هذه الأمور البسيطة جدًا التي اهتم الفقه بشأنها ليست – في الحقيقة تافهة أو لا قيمة لها، لكن العقل الإنساني المعاصر ينظر إليها من هذا المنظور.

إن هذا العلم يرسم دقائق ما لا يسع للمسلم جهله، إذا ما ابتغوا الفلاح الحقيقي في عبادة الله. إن مثل ذلك كمثل مَن ابتغى أو سعى وراء علم الكيمياء، واكتشاف أسراره المكنونة، ثم تمجيد تلك الأسرار على مدى القرون المستقبلية، فهو سعي أو ابتغاء انحرف عن طريقه الصحيح، حيث يكمن الانحراف عن الطريق الصحيح في أن ذلك يستعيد الحاجز بين كل ما هو ديني وما هو دنيوي، وهذا الحاجز الذي ألغاه الإسلام أصلًا، حيث أن أكابر علماء المسلمين وفقهاءهم جمعوا وصنَّفوا لنا كل ما هو في فقه المذاهب الإسلامية. وهناك شيء واحد وحسب هو المطلوب لجعل الفقه من أغنى ما ورثه المسلمون على الإطلاق، وهو أن نُدْرِكَ أن أحكام الفقه لم تكن جامدة قط، وإنما كانت ديناميكية؛ أي غير مُخصصة لزمن ما دون الآخر.

ثم إن هناك فئة كبيرة جدًا مِن الذين كرسوا جهودهم للاهتمام بعلوم اللغة العربية ونحوها وصرفها – التي تُصنَّف واحدة من العلوم المهمة للغاية لدى المسلمين، فهي

ليست من العلوم التقليدية التي تبعث على الملل والرتابة (كما يظن ذلك بعض الناس) – بل هي علوم في قمة الروعة، والتي تطرق إليها الغربيون، وربما قد أفنوا حياتهم في دراستها وإتقانها. ومن الأمور التي تزيد ممن يتعرض لدراستها، أنه لا توجد لغة أخرى من لغات العالم تحتوي على ما تحتوي عليه اللغة العربية من الجذور اللغوية؛ لذلك لا يمكن لأي لغة أخرى أن تحتوي بلاغة العربية وفصاحتها، وهذا هو سر قوتها وإعجازها الذي لا مثيل له. كان الأتراك وحدهم مَن لهم القدرة على حل المشكلات المستحدثة من خلال نحو اللغة العربية وصرفها، ويرجع ذلك أساسًا إلى منظومة اللغة المذهلة من الأفعال وصيغ أسماء الأفعال. كما أن هذا العلم يرتبط ارتباطًا وثيقًا بدراسة القرءان الكريم، مما عزَّزَ مكانة علوم اللغة العربية بين الشعوب الإسلامية. وبالتالي؛ فإن تعظيم براونغ [72] للنَحْوِيِّ في قصيدته (تأبين النَحْوِيّ) [73]، سيجعل الأمر طبيعيًا بالنسبة لأي شاعر مسلم في تعامله مع أي عالِمٍ نَحْوي عربي؛ أي أنه بمقارنة علم اللغة لدى العرب بنا – نحن الأوروبيين – يتضح أننا في أوروبا – وتحديدًا كوني إنجليزيّ – يُشعرني أنه لا توجد لدينا قواعد نَحْوية على الإطلاق.

---

([72]) روبرت براوننغ Robert Browning (1812: 1889م): شاعر وكاتب إنجليزي. وُلِدَ في لندن – المملكة المتحدة، تُوفِّي في إيطاليا. اتقانه للمونولوج الدرامي جعله أحد أهم الشعراء الفيكتوريين، حيث تُعرف قصائده بالسخرية والتوصيف والفكاهة المظلمة والتعليق الاجتماعي.

([73]) قصيدة (تأبين النَحْوِيّ): بالإنجليزية (The Grammarian's Funeral)، وترجمة عنوان القصيدة من اجتهادي الشخصي، ويمكن أن تُتَرجَم إلى (مأتم/ نهاية النَحْوِيّ)، أو أية ترجمة أخرى أبلغ من ترجمتي وأدق منها.

لقد تطرقتُ لبعض النقاط البارزة فقط في هذا الموضوع الواسع، والمثير للاهتمام. وفي الختام، سأعرض على مسامعكم نوع آخر من العلم عند المسلمين، وهو علم التصوف. ذلك العلم الذي يعتبر الوسيلة التي يمكن من خلالها أن يصل الإنسان إلى القرب من الله ﷻ. وكما نعلم أن معظم كُتَّاب الغرب المعاصرين على عقيدة أن وجودَ اللهِ أمرٌ قابلٌ للجدل، أما في عقيدة المسلم، فهو ليس كذلك؛ لأن إيمانه بالله ﷻ لا يقوم على الإيمان وحده وحسب، بل على تجربته الشخصية أيضًا. وقد وصف السادة الصوفية هذه التجربة بدقة بالغة، حتى أقنعت بها جمعية الأبحاث النفسية [74]. ففي الوقت الذي يهتم فيه العالَمَ الغربي كثيرًا بمحاولات إثبات وجود عالَمَ الأرواح وكيفية التواصل معه، فإن هذا العِلم – وأعتقد فيه أنه عِلمٌ حقيقيٌ مثل بقية العلوم؛ لأنه يهدف إلى تحسين حالة الإنسان الفردية، ووضعه، وتوسيع مداركه العقلية – قد أنتجته الثقافة الإسلامية، وسبق الغربيين بفكر أعمق مما يحاول الغربيون أنفسهم التفكير فيه الآن. أتحدثُ إليكم عن الجزء الذي أعرفه، وهو الجزء العربي والتركي. ورغم أن اللغة الفارسية وثقافتها الصوفية مشهورة على نطاق واسع، إلا أن العرب يرفضون كثيرًا منها بحجة أن ما أنتجته الثقافة الفارسية خيالي جدًا، ولا تتميز برصانة الفكر والمنهج العلمي للتعامل مع علم التصوف الذي هو مِن أرفع العلوم وأعظمها شأنًا. فقد انحرف عديد من الصوفية

---

([74]) جمعية الأبحاث النفسية Society For Physical Research: تأسست في لندن سنة 1882م، تعتني بفَهم الأحداث والقدرات ذات الطابع النفسي أو الخارق من وجهة نظر علمية. وبما أن علم التصوف في الإسلام يهدف إلى تربية النفس وترقيتها إلى أعلى درجات الكمال الإنساني، فإن في حد ذاته قدرة ذات طابع نفسي أو خارج للعادة، وهو ما يُعرف في ثقافتنا بكرامات الأولياء والعارفين بالله.

الأوائل في بلاد فارس، وضللوا أتباعهم، وهو ما لم يحدث قط في التاريخ العربي. إن الحقيقة تخبرنا أن بلاد فارس كانت دائمًا مصدرًا من مصادر الإسلام المزيف، رغم أنها بلاد الشعر والثقافات المتنوعة، وذلك يعود إلى أن العقلَ الفارسيَّ يسعى إلى الوَجْدِ والجذب الصوفيِّ على حساب الحقيقة، بينما يبحث العقل العربي والعقل التركي عن الحقيقة بغض الطرف عن الغرق في الوَجْدِ والجذب الصوفي الذي لو لم يُحْكَمْ بالشريعة فإنهما يؤديان إلى الأوهام والضلال. ويمكنني أن أقول إن التصوف الحقيقي هو روح الدين الذي يعمل على تهذيب عبادة المسلم الظاهرية، لذلك نرى أن السادة الصوفية حافظوا على هذه الروح النقية في الوقت الذي طغى على المسلمين العبادة الظاهرية دون تذوُّق أو تدبُّر أو تفكُّر؛ أي صارتْ العبادة بين المسلمين شكلية لا روح فيها.

لذلك؛ أنصحُ المهتمين من الأوروبيين بالروحانيات – الذين يبحثون عن أدلة حقيقية على الحياة بعد الموت، ويسعون إلى اجتماعهم مع أرواح الموتى – بدراسة علم التصوف، فإن هذا العلم العربي له من الرصانة الفكرية والعقلية والعلمية ما يُمَكِّنَه من تحقيق ما ينشدونه، كما أن التصوف سيساعدهم كثيرًا في تجنب خيبات الأمل المتكررة.

ومن هنا يتبين لنا أن استمرار الفن الإسلامي وآدابه لم ينقطع، حتى في أحلك الفترات الزمنية، بينما توقفت العلوم الطبيعية تمامًا بين المسلمين لمدة قرنين تقريبًا. ففي منتصف القرن التاسع عشر، بدأت العلوم الإسلامية وآدابها تزدهر وتنتعش بالتزامن مع انتشار الطباعة في تركيا وسوريا ومصر، وقد تحدثتُ بالفعل في محاضرةٍ سابقةٍ عن الأدب الحديث، وهو أدب ممتع جدًا، في تركيا. وكان الأمر نفسه في مصر وسوريا قد ازدهر أكثر فأكثر على المستوى الأدبي بأكمله، كما تناولنا جانبًا منه في الفقه والتصوف، ثم إلى روائع

الروائيين من جانب آخر، بالإضافة إلى عديد من ترجمات الأعمال الأدبية الحديثة في أوروبا سواء أكانت حسنة أو سيئة. ومن ناحية أخرى؛ كانت الكتب التي كان لها التأثير الأكبر هي الكتب التي تشرح أحكام الفقه بأسلوب معتدل وحكيم، وتحديدًا تلك الرائعة التي أَلَّفها الأمير سعيد حليم باشا بعنوان (الجامعة الإسلامية) [75] – وهذه هي ترجمتها من التركية إلى العربية – وذلك الكتاب يحدد ويوضح ما يجب أن تكون عليه الدولة الحديثة وفقًا للشريعة، ويُخبر المسلمين أن طريقهم الوحيد للنهوض هو العودة إلى صحيح الإسلام؛ لأن ابتعادهم عن الدين كان سببًا في ضياعهم. وهنا في الهند – أيضًا – نرى إحياءً للعلوم الإسلامية، والتي تتمحور حول المسائل الفقهية المُختَلَف عليها. وفي حيدر آباد، وُضِعَتْ أسس عصر جديد بلغة جديدة، وهي اللغة الأردية؛ لذا، فمن المحتمل أن تصير الأردية لغة المسلمين الرابعة بفضل حاكِم المسلمين هنا، ومن دواعي اعتزازي وسعادتي أن أكون في خدمته، وذلك من أجل خدمة المسلمين. ففي أي مكان من العالم، إذا ما وُجِدَتْ إشارات تدل على بداية نهضة عظيمة لوجه الله، فإن ذلك سيضع الإسلام ثانيةً في الموقع الذي يمكن أن يُحَقِّقَ رسالته في العالم أجمع.

۞۞۞

---

([75]) أشرتُ إليه في المحاضرة الثانية: عوامل النهضة وعوامل التدهور.



# المحاضرة الخامسة

# التســـــــامح

هناك مستوى رفيع في الإسلام يرتبط بدرجة عالية من الثقافة الإنسانية، ألا وهو مستوى (التسامح). إن من أكثر التُّهَمِ شيوعًا التي يطلقها الكُتَّاب الغربيون على الإسلام تاريخيًا ودينيًا أن الإسلامَ دينٌ متعصبٌ. إن هذا الأمر يقلب الوضع رأسًا على عقبٍ ضد كُتَّاب الغرب، وليس لصالحهم البتة، عندما نتذكر هذه الحقائق: - عندما نتذكر أنه لم يبق مسلم واحد على قيد الحياة في إسبانيا، أو صقلية، أو منطقة بوليا الإيطالية، وأنه لم يبق مسلم واحد على قيد الحياة، ولم يبق مسجد واحد قائمًا في اليونان عقب حرب استقلال اليونان عام 1821م، وأنه قد خُفِّضَ عدد مسلمي شبه جزيرة البلقان – الذين كانوا يومًا ما يشكلون الأغلبية – بصورة ممنهجة بمباركة الدول الأوروبية بأكملها. كما يتذكر الإنسان كيف حثَّت أوروبا المسيحيين الذين هم تحت حكم المسلمين – بصورة ممنهجة – في الآونة الأخيرة على التمرد وقتل المسلمين، وكيف أدانت الدول الأوروبية ردة فعل المسلمين تجاه قتلهم بسهولة بأيدٍ مسيحية، ويعتبرونها ردة فِعل غير مُبررة، وكيف تعرض اليهود للاضطهاد في كافة أرجاء أوروبا في العصور الوسطى، وكَمّ المعاناة التي تعرضوا لها في إسبانيا عقب طرد الموريين [76]، وكذلك ما عانوه في روسيا القيصرية وبولندا حتى أيامنا هذه. وعلى النقيض تمامًا مما سبق؛ كان للمسيحيين واليهود كامل حقوقهم الدينية، وحرية الاحتكام إلى شرائعهما في كافة شئونهم الخاصة.

---

[76] الموريون: مفردها (المور): يُطلق على كل سكان شمال إفريقيا؛ أي المنطقة المغاربية. وحسب الموسوعة البريطانية هم السكان المسلمون لشبه الجزيرة الإيبيرية أي الأندلس، وهو ما يُعرَف اليوم بـ (إسبانيا والبرتغال).

وفي زمن الدولة الأموية في إسبانيا، وزمن الدولة العباسية في بغداد، كان حقوق المسيحيين واليهود محفوظة، وجميعهم مع المسلمين على قدم المساواة في التعليم في المدارس والجامعات، ليس هذا وحسب؛ بل قد كانوا يسكنون في بيوت على نفقة الدولة أيضًا. وعندما طُرِدَ الموريين من إسبانيا، قام المحتلون المسيحيون باضطهاد اليهود اضطهادًا مُرَوَّعًا، أما الذين حالفهم الحظ، فقد هربوا إلى المغرب، كما أن المئاتَ منهم هربوا إلى الإمبراطورية التركية. إن هؤلاء ما زالوا يعيشون في مجتمعات منفصلة، حيث كانت الإمبراطورية الإسلامية ملجأ لكل الذين لاذوا بالفرار من اضطهاد محاكم التفتيش، وما زال منهم مَن يتحدث الإسبانية إلى الآن. وعلى الرغم من المناصب التي تقلَّدها اليهود والمسيحيون وقتئذ، كانوا أدنى درجة من مناصب المسلمين في الدولة، ورغم ذلك، فإن تلك المناصب التي تقلَّدوها في الدول الإسلامية أفضل بكثير جدًا من تلك المعاملة التي عُومِلوا بها في أوروبا الحديثة.

والأمر المثير حقًا أن مسيحيي الغرب لم يكونوا على معرفة أو دراية بعقيدة المسلمين مطلقًا، ولم يلقوا لذلك بالًا، حتى وقت قدوم الموسوعيين [77] في القرن الثامن عشر الميلادي. ولم يَسْعَ مسيحيو الغرب إلى معرفة وجهة نظر مسيحيي الشرق، وفيما يتعلق بهم من فكر وعقيدة، ولذلك؛ انقسمتْ المسيحية إلى مسيحية شرقية ومسيحية غربية. وفي نهاية المطاف (كما يوضح المؤرخ الإنجليزي إدوارد جيبون) أن المسيحيين

(77) الموسوعيون: مفردها (موسوعيّ) وهو مصطلح يشير إلى عالِم في عصر النهضة (من القرن الرابع عشر إلى القرن السابع عشر الميلادي) والعصر الذهبي للإسلام (يمتد من منتصف القرن الثامن إلى القرن الرابع عشر والخامس عشر الميلادي).

الشرقيين فضَّلوا العيش تحت حكم المسلمين على أن يعيشوا تحت حكم إخوانهم المسيحيين الذين هم من نفس دينهم؛ لأن المسلمين سمحوا لهم بممارسة شعائر دينهم وطقوسهم بحرية تامة، وعدم إكراههم على أية معتقدات أخرى، حيث إن إخوانهم المسيحيين كانوا سيجبرونهم على اختيار أحد الأمرين: إما الإيمان بعقيدة الرومان الكاثوليك، أو البطش بهم والقضاء عليهم. ولقد زاد الطين بِلَّةٍ أن قام المسيحيون الغربيون بوصف المسلمين بالوثنيين والمشركين، فهناك عديد من الكتب التي وصفوا فيها المسلمين بأنهم يعبدون صنمًا جديدًا يُدعى (محمدًا). وكما جاء في سرد غزو غرناطة أن هناك من الأوصاف التي وُصِفَ بها المسلمين وصفًا لا يليق البتة. كل هذا وأهل الغرب وأوروبا لم يقرأ أحدهم، ولم يهتم بالاطلاع على هذا الدين الحنيف حتى من باب التثقيف العام لنفسه. وعلى النقيض تمامًا؛ كان المسلمون قد درسوا ماهية المسيحية، وقرأوا عنها، وماهية الخلافات الجوهرية بين المسيحية والإسلام. فيا ليت شِّعري لو كانت أوروبا تعرف حقيقة هذا الدين، ويا ليتها كانت على قدرٍ كافٍ من معرفته عن قُرب، كما فعل المسلمون عن العالَم المسيحي. ففي تلك الأيام؛ لو فعلت أوروبا ذلك، لَمَا ظهرتْ تلك الظواهر الجنونية، والتي تُوصَف أحيانًا بالبطولة – لكنها في الحقيقة هي ظواهر متعصبة عمياء تمامًا – والتي عُرِفَتْ في التاريخ باسم (الحروب الصليبية)؛ لأنها قامت على سوء فَهم هذا الدين. ولنقتبس مقولة من كاتب، وهو عالِم فرنسي:

*(كان ينظر كل شاعر في العالَم المسيحي أن [الُمحَمَّديَّ] [78] كافرٌ ومشركٌ، وأنه يعبد ثلاثة من الآلهة، وهي كالآتي بالترتيب: الأول [مَحُمِتْ Mahomet أو مُحَمَّد Muhammad أو مَحُند Mahound]، والثاني [أَبُولِّيُون Apollyon] [79]، والثالث [تِرماغنت Termagant] [80]. وقيل إنه عندما تغلَّبَ المسيحيون على المحمديين في إسبانيا، ثم أبعدوهم إلى أبواب مدينة سرقسطة الإسبانية، عاد المحمديون وقاموا بتكسير أصنامهم. وفي ذلك الوقت، قال شاعر مسيحي إن أَبُولِّيُون [إله] المحمديين، الذي كان موضوعًا في حجرةٍ ما، تعرَّض للهجوم الشديد، وأساء المحمديون إليه بأن ربطوا يده وقدمه، فصلبوه على عمود، ثم ركلوه بأرجلهم، فانهالوا عليه ضربًا بالعِصِيِّ. أما عن ثاني آلهتهم فهو مَحُنْد، الذي أُلقِي في حفرة مليئة بالكلاب والخنازير، فمزَّقوه إربًا؛ فأي تعامل هذا مع الآلهة بمثل هذه المعاملة المخزية الشنيعة! لا حقًا، تاب المحمديون عن خطاياهم، ثم أعادوا آلهتهم مرة أخرى للعبادة. وعندما دخل الإمبراطور تشارلز مدينةَ سرقسطة،*

---

([78]) مُحَمَّديٌّ أو المُحَمَّدِيُّون: تعني (عُبَّاد مُحَمَّد)؛ أي أن المسلمين يعبدون سيدنا ومولانا رسول الله محمد ﷺ، هكذا في نظر الغربيين نظرًا لجهلهم الشديد بالآخر، حيث تنتمي هذه الكلمة إلى معجم القذف والسب والشتم والسخرية، حيث أن الكُتَّابَ اللاتينيين أخذوا على عاتقهم توجيه اتهاماتهم العدائية تجاه المسلمين، وذلك فقط من أجل إشباع حاجة الإنسان الغربي دون أن يترك لنفسه فرصة للتعرُّف على المسلمين وعقيدتهم ودينهم. ومن ضمن هذه الأوصاف والنعوت: السارسين أو الساراكينوس Saracens، الوثنيون Pagans، الكفار Infidels.

([79]) أَبُولِّيُون Apollyon: باللغة العِبرية تُكتب (أَبَدُّون Abaddon)، وتعني إله الجحيم والدمار أو الهاوية. وقبل أن تستخدمها التقاليد اليهودية المسيحية لوصف إله المسلمين ونعته بإله الدمار والجحيم، كانت تعني (الحفرة) أو (الكهف).

([80]) تِرماغنت Termagant: هو إله مصطنع نَسَبَه منتقدو الإسلام الأوروبيون في العصور الوسطى، وزعموا أن المسلمين عبدوه، حتى صار مشهورًا في الأدب الأوروبي بأنه الإله الرئيسي للمسلمين.

*فَتَّش كل مساجد المدينة، ثم أمر بتكسير وهدم وثن الإله [مُحَمَّد] وجميع آلهة المسلمين بمطارق حديدية).*

كانت هذه عينة من التاريخ التي كانت مصدرًا من مصادر المعرفة لسكان أوروبا الغربية، وكانت تلك الأفكار التي كانت المصدر الرئيس المُلْهِم الذي اتخذه الصليبيون في الحملات الصليبية على المسلمين أكثر الشعوب تحضرًا ورُّقِيًّا. وعلى ذلك؛ فقد كانت نظرة العالَم المسيحي لغيره مشحونة باللعن وعدم أحقيته في الحياة، لكن كانت – ولا تزال – نظرة الإسلام لغيره مشحونة بالاحترام وأحقية الآخر أن يعيش في سلام. وكان هناك ثمة فئة من المسيحيين كانت الرحمة والرأفة قد مَسَّتْ قلوبهم وعقولهم، فاعتقدوا أنه من المؤسف والمُحزِن أن يُدان أي شخص إلى الأبد، كما أنهم نظروا إلى مَن هو خارج عالَمهم المسيحي نظرة بها شفقة، وأنه يجب إنقاذهم بالطريقة التي يعرفونها؛ أي أنه على المسيحيين أن يُقْنِعوا المسلمين بالعقيدة المسيحية. ويمكنكم الرجوع إلى رسالة القديس فرنسيس، قديس مدينة أسيزي الإيطالية، للمسلمين التي توضح الخلاف بين وجهتي النظر. وكذلك الحال بالنسبة لتاريخ الحملة الصليبية التي شنَّها القديس لويس على مصر، والتي كان هدفها الرئيس هو تحويل المسلمين إلى المسيحية. يوجد شرح لهذه النقطة المهمة للغاية في سجلات (جمعية الأصدقاء الدينية) [81]، والتي يُطلَق عليها عادةً (الكويكرز Quakers)، كتبَ هذا المقال مابل برايلسفورد Mabel Brailsford في جريدة الغارديان البريطانية في نوفمبر 1912م.

---

([81]) جمعية الأصدقاء الدينية The Religious Society of Friends: هي مجموعة من المسيحيين البروتستانت نشأت في القرن السابع عشر في إنجلترا على يد جورج فوكس.

وأثناء فترة ولاية تشارلز الثاني، كان هناك شابة خادمة إنجليزية عضوًا نشطًا في الكويكرز، والتي عانتْ من الاضطهاد لكونها عضوًا في تلك الجمعية، ثم أُمِرَ بجلدها مرتين في إنجلترا، وقد تم ذلك، بسبب احتجاجها على تقاليد الكنيسة. ثم ذهبت إلى إقليم نيو إنجلاند الأمريكي للتبشير والوعظ برفقة اثنين من الجمعية، والتي تُسمَّى بالمستعمرات الأمريكية، وهناك زُجَّ بهم في السجن بتهمة ممارسة السِّحر، ولم يُطلَق سراحهم إلا بعد معاناة شديدة. وعقب عودتها إلى إنجلترا مرة أخرى، انطلقت مع خمسة آخرين من جمعية الأصدقاء الدينية بهدف تحويل الصدر الأعظم إلى المسيحية. وفي رحلتها إلى أوروبا، وقع مَن كان في رفقتها في قبضة محاكم التفتيش، ثم لم يُسْمَعْ بعد ذلك عن أي فرد منهم سوى فرد واحد. وبعد سنوات عديدة، عاد إلى إنجلترا رجلًا مجنونًا يهذي. أما بالنسبة للشابة الإنجليزية، فقد تابعت رحلتها بمفردها بعد كثيرٍ من الاضطهاد، واستقلَّتْ سفينةً إلى مدينة البِنِدُقة الإيطالية، حتى وصلتْ إلى أحد الشواطئ على ساحل موريا – بعيدًا عن المكان الذي كانت ترغب في الذهاب إليه – لكن في الأراضي الإسلامية. ومن هناك، سارتْ على طول الطريق إلى مدينة أدرنة التركية، ولم تكن مضطرة للذهاب سيرًا على الأقدام. فمنذ اللحظة التي وطأت فيها قدمها الإمبراطورية الإسلامية، انتهى الاضطهاد، حيث كان يتعامل معها الجميع باحترام، كما أن المسئولين قد ساعدوها للوصول إلى بر الأمان بسلام. وعندما وصلتْ إلى أدرنة، أي في المكان الذي كان يتواجد فيه السلطان بايزيد، طلبتْ من الحضور قائلةً لهم إنها تحمل رسالة من الله تعالى، فاستقبلها السلطانُ استقبال السفراء، ثم استمع هو ورجال حاشيته ما كان بجعبتها حتى أنهتْ كلامها تمامًا، وكل آذان مُصْغِيَّة. قالوا لها إنهم على هذا الإيمان؛

أي أنهم يؤمنون بالسيد المسيح ﷺ. ثم طلب منها السلطانُ البقاءَ في بلاده كضيف شرف، أو على الأقل إذا ما رغبت في المغادرة أن تغادرَ في حراسة تليق بسفيرة، لكنها رفضت، وغادرت بنفس الطريقة التي أتت بها – سيرًا على الأقدام – حتى وصلت إلى القسطنطينية دون أن يمسها أحد بسوء قط، ثم اتجهتْ إلى السفينة المُتَّجِهة إلى إنجلترا. ومن هنا نلاحظ أن الغرب لم يبتعد عن شريعته الدينية، لذلك؛ كان مفهوم التسامح واضحًا في تعاملاتهم. ونفس الأمر ينطبق على المسلمين، فإذا ما ابتعدوا عن شريعتهم الدينية، فلسوف نلاحظ أن مفهوم التسامح يتلاشى، وهناك أدلة أخرى كثيرة تدل على رِفعة الثقافة الإسلامية. فإن الاختلاف الواضح في تلك القصة أن التسامح لا يُؤخَذ من منظور أخلاقي وحسب؛ بل من منظور ديني أيضًا. فقد كان التسامح قديمًا موجودًا هنا وهناك على هيئة أفراد مستنيرين، لكنهم كانوا في اتجاه مضاد للدين السائد. أو بكلمات أخريات، كان التسامح من الأمور اللادينية قبل مجيء الإسلام، فلما جاء الإسلام برسالته العالمية، صار جزءًا جوهريًا من الدين.

وفيما يتعلق بعقيدة المسلمين، فإنهم يؤمنون أن اليهودية والمسيحية والإسلام جميعهم دين واحد خرجوا من مِشكاةٍ واحدةٍ، وهو دين سيدنا إبراهيم ﷺ؛ أي قبل التحريف، ودين سيدنا إبراهيم ﷺ بالمعنى العام يعني الاستسلام التام لله ﷻ، وهو أساس الحكم الإلهي. أما اليهود بعد سيدنا موسى ﷺ، حصروا رحمة الله على أُمَّتهم المُختارة وحسب، بل واعتقدوا أن ملكوت الرب هو أن يسود اليهود على كافة الناس والأعراق والأجناس.

حتى أن السيد المسيح عليه السلام - كما ورد عنه - على سبيل المثال - في العهد الجديد: («21ثُمَّ خَرَجَ يَسُوعُ مِنْ هُنَاكَ وَانْصَرَفَ إِلَى نَوَاحِي صُورَ وَصَيْدَاءَ. 22وَإِذَا امْرَأَةٌ كَنْعَانِيَّةٌ خَارِجَةٌ مِنْ تِلْكَ التُّخُومِ صَرَخَتْ إِلَيْهِ قَائِلَةً: «ارْحَمْنِي، يَا سَيِّدُ، يَا ابْنَ دَاوُدَ! اِبْنَتِي مَجْنُونَةٌ جِدًّا». 23فَلَمْ يُجِبْهَا بِكَلِمَةٍ. فَتَقَدَّمَ تَلاَمِيذُهُ وَطَلَبُوا إِلَيْهِ قَائِلِينَ: «اصْرِفْهَا، لأَنَّهَا تَصِيحُ وَرَاءَنَا!» 24فَأَجَابَ وَقَالَ: «لَمْ أُرْسَلْ إِلاَّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ». 25فَأَتَتْ وَسَجَدَتْ لَهُ قَائِلَةً: «يَا سَيِّدُ، أَعِنِّي!» 26فَأَجَابَ وَقَالَ: «لَيْسَ حَسَنًا أَنْ يُؤْخَذَ خُبْزُ الْبَنِينَ وَيُطْرَحَ لِلْكِلاَبِ». 27فَقَالَتْ: «نَعَمْ، يَا سَيِّدُ! وَالْكِلاَبُ أَيْضًا تَأْكُلُ مِنَ الْفُتَاتِ الَّذِي يَسْقُطُ مِنْ مَائِدَةِ أَرْبَابِهَا!») [82]. وبهذا نرى أن السيد المسيح عليه السلام يعتبر أن رسالته للعبرانيين وحسب [83]. وعقب طيف خُيِّلَ في منام القديس بطرس، رأى أتباعه أنهم مؤهلين للتبشير بالإنجيل لغير الأميين [84].

وعليه؛ فقد خصَّصَ المسيحيون رحمةَ اللهِ على الذين آمنوا بعقائد معينة، واعتبروا أن ملكوت الله هو لتلك الجماعة التي يجب أن تسود على كافة الناس والأعراق والأجناس في هذا العالم؛ ذلكم المسيحيون المتدينون. وإن كل مَن انحرف عن ذلك المعتقد، صار منبوذًا أو فاسدًا، ثم يُضطهد. وعلى النقيض تمامًا في دين الإسلام، ففيه تظهر الطبيعة الحقيقية لملكوت الله.

---

([82]) العهد الجديد، **إنجيل مَتَّى**، الإصحاح 15، فقرات من 21 إلى 27.

([83]) أي أن كل رسول أو نبي بُعِثَ لقومه خاصة، وأن سيدنا رسول الله ﷺ أُرْسِلَ إلى العالمين كافة.

([84]) أممي: غير يهودي، أو وثني مشرك.

قال الله في كتابه الحكيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: 62]. وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴿١١١﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: 111: 112].

وقال أيضًا مُؤكِدًا لما سبق: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة: 135، 136، 137].

ثم قال في نهاية الأمر: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴿٢٥٥﴾ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: 255، 256].

ففي الآيتين الكريمتين السابقتين تكامل عظيم، حيث ربط رب العِزَّة ﷻ في الآية الأولى بين الإدراك لعظمة الله وسلطانه، وعدم الإكراه في الدين في الآية الثانية. فالناس يختارون الطريق الذي ارتضوه: الخضوع لله، أو عدم الخضوع له، ويكفي لِمَنْ لم يخضع لله وسلطانه وعظمته أنه يبتعد أكثر فأكثر عن نور الحقيقة.

والمسلمون – في وقتنا الحالي – لا ينظرون إلى أن هذا القانون الإلهي ينطبق على مجتمعنا تمامًا، كما ينطبق على الناس في الخارج؛ فإن قوانين الله وشريعته عالمية لا محلية، وأن عدم تقبُّل المسلمون للآخر ومعتقداته، دليلٌ على أنهم أنفسهم قد تجاهلوا الربط بين الآيتين الكريمتين السابقتين؛ أي الربط بين عظمة الله وسلطانه وحرية الناس في عبادته، كما أنه دليل على تجاهلهم لرحمة الله التي منحها لعباده في القرءان.

أما الآن، فسيعترض الناس على أن مسلمي اليوم متشددون، وأنهم يصفون كل مَن يخالفهم بأنه كافر. ويا للحسرة والأسف الشديد أن مسلمي اليوم هم كذلك بالفعل! والأمر الذي يُزيد الطين بِلَّة أنهم يُبررون هذا الفَهم السيء والمغلوط بالقول إن في القرءان نفسه أدلة كثيرة تفيد بأنه ينبغي ألَّا يتعاملوا مع غير المسلمين، وأنه ينبغي على المسلم أن يحارب غير المسلم! وسأتطرق إلى هذه النقطة المهمة للغاية، وأشرع في شرح مَن هو الكافر حقًا.

وجدتُ في آيات القرءان الكريم معنيين لحقيقة (الكافر) التي أرادها الله. ففي المقام الأول؛ (الكافر) هو ذلك الشخص الذي لا يتبع أي دين سماوي البتة، والمناوئ لمشيئة الله التي أرادها للبشرية. لذلك؛ فهو كافر بحقيقة جميع الديانات السماوية، وكافر بكل ما في الكتب السماوية، وهو الذي يصل بكفره إلى الدرجة التي وصل إليها (إبليس)

– ذلك الذي كان من الملائكة المقربين – ورفض الانصياع للأمر الإلهي بالسجود لأول إنسان في الكون آدم عليه السلام تنفيذًا لأمرٍ من أوامر الله.

قال تعالى حكاية عن ذلك: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: 34].

وبصفة دائمة يؤكد القرءان مِرارًا وتَكرارًا على حقيقة وجود ديانات سابقة؛ وذلك راجع إلى أن تحريف الكتب السماوية المقدسة السابقة، مما أدى إلى أن يظهر الأنبياء السابقين بصورة أسطورية خرافية بسبب ما قيل في حقهم من غلو وتقديس. إن كل ذلك برمته أدى إلى تشكيك الناس في وجود أي حقيقة في الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد). لكن الأمر في القرءان حقيقيٌّ لا ريب فيه البتة، ودليل ذلك أن القرءان أخبرنا أنه كان بينكم نبي؛ يعيش بينكم، ويعظكم، ويُرشدكم. فلولا وجود هذا الكتاب العظيم، وهذا النبي الكريم ﷺ، لالتمسنا العذر للناس إذا ما ادَّعوا أن هداية الله للبشرية عن طريق أنبيائه ورسله كلها خرافة أو أسطورة من أساطير الأولين. إن القرءان الكريم والنبي ﷺ يؤكدان حقيقة كل ما أُنْزِلَ من قبل على الرسل السابقين من شرائع سماوية. لذلك؛ مَن كفرَ بهما وجحدهما وأنكر وجود هذا النبي الكريم ﷺ، فهو يكفر بهداية الله للبشرية؛ أي أنه يُنكِر تمامًا حقيقة الديانات السماوية السابقة.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة: 97، 98].

وأما الآيات القرءانية التي تشير إلى الحرب، فإن مصطلح (الكافر) يُطلق على مَن يُقاتِل المسلمين، فهو بذلك عدو لدود لهم، لكنه لا يُطلق على غير المسلم في حد ذاته، ولا حتى المشرك على هذا النحو، وأن ذلك يتضح تمامًا مما ذكره الله في آيات كتابه الكريم، حيث إعلان حماية المسلمين لغيرهم من تلك القبائل التي عقدتْ معاهدات مع المسلمين. كما يتضح أيضًا كيف يتعامل المسلم مع غير المسلم إذا ما انتهك المعاهدة في قوله ﷻ:

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ۝٢ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝٤﴾ [التوبة: 1 : 4].

وبوجه عام؛ يتضح هنا أن هناك فرقًا دقيقًا بين المشركين (أولئك الذين ينسبون الشركاء إلى الله) والكافرين. فالمشركون الذين أبقوا على عهدهم مع المسلمين لم يكونوا كافرين – كما أوضحتُ سابقًا – فقد قال نبينا الكريم ﷺ بنفسه إن مصطلح (الكافر) لا يُطلق على مَن قال (السلام) على المسلمين. أما الكافرون، كما جاء في القرءان، هم الأشرار المؤمنون بأنهم يفعلون الشر على الحقيقة، والإضرار بأي إنسان من أي عرق أو عقيدة أو مجتمع.

قمتُ باستطراد طويل، لكن يبدو أنه ضروري فعلًا؛ فأقابلُ كثيرًا من الأفكار المشوهة بين المسلمين حول هذه النقطة، وذلك بسبب خلل ما أو تقصير في دراسة الآيات القرءانية وحياة النبي ﷺ وفحصهما فحصًا دقيقًا. كما أنه من الواضح أن كثيرًا من المسلمين اليوم نسوا أو غفلوا عن أنه كان لنبينا الكريم ﷺ حلفاء من المشركين حتى بعد أن انتصر الإسلام في الجزيرة العربية وانتشر، وأنه ﷺ أوفى بمعاهدته معهم تمامًا حتى النهاية.

كان كثيرٌ من مشركي الجزيرة العربية مَن ليس لديهم أية اعتراضات على شريعة الإسلام، وكانوا يعتقدون أن ما يُفْعَل أمام الأصنام ما هي إلا خرافات وأفعال لا يقبلها عقل أو منطق قويم. أما غيرهم فقد كانوا يتوسلون إلى آلهتهم لنجدتهم وطلب المعونة منهم وقت الحرب فقط. ففي بداية الأمر، كان المشركون متفوقين على المسلمين، وعندما ظهر الإسلام وانتصر المسلمون عليهم، أصابهم الفزع والرعب. ومن هنا؛ دُحِضَتْ جميع حُجَجهم التي تقول إن قوتهم الدائمة مُستمدَّة من آلهتهم إلى الأبد. ثم دخل الناسُ أفواجًا في دين الله بطريقة طبيعية. كانت مسألة وقت فقط بالنسبة لأعند مشركي الجزيرة العربية، ثم اعتنقوا الإسلام.

كان الأمر بخلاف ذلك مع مَن سمَّاهم القرءان بـ (أهل الكتاب)، وهم الذين تلقوا وحي بعض الأنبياء السابقين، كاليهود والمسيحيين والزرادشتيين، هؤلاء هم الذين تواصل المسلمون معهم وقتئذ. وكان موقف نبينا محمد ﷺ تجاههم موقفًا طيبًا. وأذكرُ هنا أن الميثاق الذي أعطاه النبي ﷺ إلى رهبان سيناء المسيحيين ما زال موجودًا حتى الآن.

فإذا ما اطَّلعَ أحدكم عليه، سيجد أنه يقرأ كلمات تنطق بالحب الحقيقي. ونفس الأمر كان مع اليهود في المدينة المنورة، أعطاهم ميثاقًا أوفى هو به، طالما كانوا مخلصين في الوفاء بهذا الميثاق. فلم يكن سيدنا النبي ﷺ رجلًا عدوانيًا أو مُحارِبًا لأي شخص أو فئة من الناس، ولم يشن أية حرب تُذكَر على أي شعب من شعوب الأرض على أساس العقيدة، وإنما كانت حروبه على أساس سلوك غير المسلمين تجاه الإسلام والمسلمين. ويمكنكم الاطلاع على روايات استقبال الرسول ﷺ للمسيحيين والزرادشتيين، فإنها مكتوبة ومسجَّلة. إن كل ما أذكره لا يوجد فيه أي أثر للتعصب الديني، ويجب أن نتذكر دائمًا – فالمسلمون في غالب الأمر ينسون هذا الأمر عظيم الشأن في وجهة نظري – أن نبينا ﷺ لم يطلب من أهل الكتاب أن يعتنقوا الإسلام، وإنما طلب منهم قبول (ملكوت الله) [85]،

---

(85) ملكوت الله أو ملكوت السماء أو ملكوت السماوات أو المملكة السماوية: هو مفهوم لاهوتي مسيحي، مفهوم أساسي من مفاهيم المسيحية. ووفقًا لمعناه في اللاهوت الأرثوذكسي يقول إن ملكوت السماوات ليس هو السماء، بل هو دائرة حكم الله على الأرض والسماء، أي هو نطاق سلطان الله الذي يشمل بطبيعة الحال كل ما في الوجود. وبحسب الإيمان المسيحي فإن السماء أو العالم الروحي تعترف بحكم الله وتخضع له، أما الأرض أو العالم المادي فهي ولوقت محدود بحاجة لمعرفة سر الله لتخضع له وتعترف بملكه، وهذه هي مهمة الكنيسة أن تعلن السر الذي استلمته من المسيح ورسله لكل الخليقة، وهو أن ملك الله سيحل قريبًا على العالم ليكون الله الكل في الكل. الملكوت هو حدث قد جاء فعلاً إلى الإنسان بشخص المسيح، وأيضا محتّم حدوثه في المستقبل. هو المكان الذي يظهر فيه سلطان الله، هو المجازاة وثمرة حياة القداسة، الّتي ينالها المؤمن حاضرًا وفي الدهر الآتي، هو بر وسلام وفرح في الروح القدس. (ملك الله) في الإيمان المسيحي هو السيد المسيح عليه السلام، بخلاف الإيمان المسيحي لدى طائفة (شهود يهوه) التي تعتقد في التوحيد، وترفض تمامًا المعتقدات الثالوثية، وتعتقد أن السيد المسيح عليه السلام هو رسول ونبي. وملكوت الله على هذا الإيمان هو: حكومة أقامها يهوه الله واختار هو مَلِكها. ومن هو هذا الملك الذي اختاره الله ليرأس ملكوته؟ إنه يسوع المسيح. ويسوع المتوَّج ملكًا هو أعظم من كل الحكام البشر، فهو يُدعى «ملك السائدين كملوك وربّ السائدين كأرباب». (1 تيموثاوس 6:15) وفي وسعه أن يفعل الخير للبشر أكثر من اي حاكم بشري مهما كان صالحًا.

وإلغاء الكهنوت، وإعادة دياناتهم إلى نقائها الأصلي دون تحريف. كما أنه ﷺ في عام الوفود طرح سؤالًا: (*هل أنتم جميعًا هنا من أجل أن يشملنا الله في ملكوته أم تتعصبون إلى طوائفكم ومعتقداتكم دون النظر إلى الآخر؟*). فمن الواضح أن هذا هو طريق السلام، والتقدم البشري، وما سواه هو طريق الفتنة، والقهر، والبلاء. إن الرسائل التي وجهها النبي ﷺ إلى الملوك والرؤساء والأمراء عُومِلَتْ كما لو أنها أُرْسِلَتْ من مجنون أو متعصب أو مغرور! حتى أن مبعوثيه ﷺ تعرضوا للإهانة وربما القتل في بعض الأحيان! لا يسع الإنسان إلا أن يتساءل متعجبًا: *ما هو رد أية سفارة من سفارات اليوم في أي بلد إذا استقبلتْ رسائل مثل تلك التي أرسلها نبينا ﷺ؟ هل سيقبلون أن يتخلصوا من فكرة الكهنوت، وهل سيقبلون أن يكونوا جزءًا لا يتجزأ من الأخوة الإنسانية التي رسَّخها الإسلام؟!*

هكذا تكلَّم القرءان الكريم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: 64].

فلو وافق أهل الكتاب على هذا العرض القرءاني، لكانوا من أولئك الذين استسلموا لله وخضعوا له خضوعًا كاملًا؛ أي مسلمون، فكان هدف سيدنا النبي ﷺ الوحيد أن يُبلِّغَ رسالة الله إلى جميع البشرية، ولم يكن هدفه أو أمنيته أن يُعَظَّمَ أو يُقَدَّسَ.

---

ارجع إلى الرابط أدناه:

https://www.jw.org/ar/المكتبة/كتب/يعلّم-الكتاب-المقدس/ما-هو-ملكوت-الله/

فإذا فعلت ذلك الطائفة المسيحية ستكون مسلمة بالنسبة للنبي ﷺ، وكذلك الجالية اليهودية إذا ما رفضت فكرة الكهنوت وأساطير الحاخامات.

ورأينا كيف أن نبينا ورسولنا ﷺ لم يُغيِّر موقفه من المسيحيين واليهود والزرادشتيين الذين رفضوا رسالته ودعوته، بل كان حُكَّامهم يوجهون أشد الإهانات إلى مبعوثي رسول الله ﷺ أيضًا، وإنما ظلَّ موقفه كما كان في بداية الأمر، وإن ميثاق رهبان سيناء يشهد على ذلك، كما سبق ذِكره من قبل. وفيما يتعلق بمعاملة المسلمين اليوم مع الآخرين من أتباع الديانات الأخرى، فإنهم يعاملونهم معاملة خاصة تشير إلى احترام عقائدهم الدينية، رغم أن مسلمي اليوم ليسوا في نفس درجة التسامح النبوي الشريف؛ أي أقل من تلك الدرجة التي عاملَ بها الرسول ﷺ المسيحيين واليهود في زمنه.

ففي مصر، كان – وما زال – الأقباط المسيحيون على علاقة وطيدة مع المسلمين منذ الفتح الإسلامي لمصر إلى هذه اللحظة. وكذلك الأمر في سوريا؛ فقد عاشتْ الطوائف المسيحية المختلفة وهم على علاقة وطيدة مع المسلمين إلى هذه اللحظة أيضًا، وقد أعلنوا أنهم لا علاقة بهم بالمحتل الأجنبي الذي هو من نفسه دينهم وعقيدتهم.

كانت هناك دائمًا مجتمعات يهودية في حالة من الازدهار في العالم الإسلامي، لا سيما في إسبانيا وشمال إفريقيا وسوريا والعراق، وفيما بعد تركيا، فرَّ اليهود من الاضطهاد المسيحي إلى البلاد الإسلامية بحثًا عن ملاذ آمن للعيش الكريم. فاعتنقت طوائفُ يهوديةٌ كاملةٌ الإسلامَ طواعيةً، وقد اتبعوا في ذلك حاخامًا يهوديًا اعتبروه المسيح المخلص المنتظر، وبقي كثير منهم على عقيدته اليهودية، ولم يتعرض أحد منهم للاضطهاد كما كان الحال في العالم المسيحي. وإذا نظرنا إلى يهود تركيا اليوم، سنجدهم

مندمجين تمامًا في المجتمع التركي مع المسلمين دون تمييز. ومن الجدير بالذِّكرِ أن يهود فلسطين الناطقين بالعربية، المهاجرين القدامى من إسبانيا وبولندا، مندمجون كذلك مع المسلمين والمسيحيين، ويقفون صفًا واحدًا معهم معارضين تحويل فلسطين إلى وطن قومي لليهود.

وبالعودة إلى الحديث عن المسيحيين، فغالبًا ما ستأتي في أذهاننا قصة دخول الخليفة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى القدس، لكنني سأرويها مرة أخرى؛ لأنها تُبين الموقف الإسلامي الصحيح تجاه أهل الكتاب. طلبَ القائدُ الذي استولى على القدس من الخليفةِ الحضور شخصيًا لاستلام مفاتيح المدينة المقدسة. وتلبيةً لطلب ذلك القائد، سافر الخليفةُ من المدينة المنورة دون تردد، وفي صحبته خادمه ولديهما بعير واحد فقط، فكانا يمتطيان البعير بالتناوب. لكم أن تتخيلوا الدهشة التي أصابت المسئولين عن شئون العبيد والخَدَم في الإمبراطورية الرومانية عندما شاهدوا بأعينهم كيف أن حاكم إمبراطورية عظيمة مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأتي إليهم بلا موكب ولا حرس، وإنما أتى إليهم وهو يُمسِك بعِقَالِ البعير، مما دفعهم لتبجيله واحترامه احترامًا شديدًا، وتوجهوا جميعًا إلى كنيسة القيامة باعتبارها مجد مدينتهم وعظمتها. وعندما وصلوا إلى الكنيسة، حانت وقت صلاة العصر، فعرض المسيحيون عليه أن يَبْسُطَ سجادته لإقامة الصلاة في الكنيسة نفسها، لكنه رفض مُعَلِّلًا ذلك بأنه ربما يأتي بعده بعض المسلمين الجهلة فيطالبون بالكنيسةِ ويُحولونها إلى مسجدٍ مُحْتَجِّين بصلاته هناك. فأمسك بسجادته وخرج من الكنيسة، ثم أقام صلاة العصر في المكان الذي بُنِيَ فيه مسجده المعروف باسمه الآن،

حيث يُطلِق عليه السائحون (مسجد عُمر). في الحقيقة هو ليس مسجد، إنما هو مزار داخل حرم المسجد الأقصى ثاني الأماكن الإسلامية المقدسة.

منذ ذلك اليوم، وإلى الآن، صارت كنيسة القيامة مكانًا لعبادة المسيحيين، ولم يتعرض لهم المسلمون بشيء قط سوى أنهم كانوا يرون كل طائفة من طوائف المسيحيين وهم يقيمون شعائر المعتقد المسيحي بحرية تامة. وينطبق الشيء نفسه على كنيسة المهد في بيت لحم، وعلى كافة المباني الأخرى المقدسة الخاصة بالمسيحيين. كان كل ذلك في ظل حكم الخلفاء الراشدين والأمويين، ولم يتعرض أحد من حُكَّام المسلمين للمسيحيين وغيرهم بسوء عبر العصور، واستمر ذلك إلى فترة لاحقة بكثير تحت الحكم الأموي بإسبانيا. في تلك الأيام لم يكن من المألوف أن يقيم المسلمون والمسيحيون شعائر أديانهم في مكان واحد، ومن هذه النقطة، يمكن لي أن أشيرَ إلى عشرات المباني في سوريا، حيث يخبرنا الأثر أنها كانت تُقام فيها شعائر الديانتين معًا في مكان واحد؛ ورأيتُ في مدينة اللد الفلسطينية، في سهل شارون، كنيسة مار جرجس ومسجدًا تحت سقف واحد في مبنى واحد، ولا يفصل بينهما سوى جدار فقط. لم يكن ذلك الجدار موجودًا من قبل، وصدق كلام سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ حيث ادَّعى بعض من جهلة المسلمين أن المسلمين الأوائل كانوا يصلون في ذلك المكان، لكن في نفس الوقت كانت هناك حرية مطلقة للمسيحيين في إقامة شعائرهم الخاصة. أضف إلى ذلك؛ أنهم شيدوا كنائس أخرى، ولم يعترض أحد قط. لكن بسبب ضجيج أجراس كنائسهم، فقد سُلِبَتْ منهم بقرار من الدولة، لأنها كانت تُزْعِجُ المسلمين، ولم يبق سوى جرس كنيسة القبر المقدس (كنيسة القيامة). لذلك؛ اعتادوا على استعمال الناقوس، ويُقال إنه نفس الآلة التي كان قد

استخدمها النبي نوح ﷺ حين طلب من جميع الكائنات الحية أن تركب الفُلْك. ولم يهتز معنى المساواة بين المسلمين وغيرهم إلا بعد الحروب الصليبية، فكانت هناك قليل من الغطرسة الاجتماعية من جانب المسلمين. أما مسألة اضطهاد المسيحيين، فلم يتعرضوا لها قط إلا لفترة قصيرة عندما غزا الفاطميون في مصر جنوبَ سوريا لبعض الوقت. في ظل حُكم الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (الذي كان يعبده الدروز إلى يومنا هذا باعتباره الإله المتجسد)، عانى المسيحيون من اضطهاد شديد، حيث أمر بقتل مئات النُسَّاك المسيحيين الذين كانوا يعيشون في الكهوف بين صخور صحراء يهودا. ورغم تدخل عوام المسلمين ومساعدة المسيحيين في الهروب، رغم ذلك كله، عانوا كثيرًا من الاضطهاد حتى أن خِدْمَات كنيسة القيامة انقطعت تمامًا لبعض الوقت، مما أدى إلى الحملة الصليبية الأولى على بلاد المسلمين، وذلك بعد أن تداول خبر الاضطهاد إلى أوروبا، وتناقَل عن طريق الحجاج العائدين. وفي الوقت الذي وصل فيه الجيش الصليبي إلى سوريا، طُرِدَ الفاطميين، وعلى إثر ذلك؛ عادت حالة المسيحيين إلى طبيعتها التي كانت عليها من قبل.

لم يرغب مسيحيو سوريا في الحروب الصليبية، كما لم يلق الصليبيون لهم بالًا أصلًا، أو لمشاعرهم، باعتبارهم مهرطقين ودخلاء. تبدو أن الكلمة الأخيرة غريبة على مسامعكم في هذا الصدد، لكن هناك سبب لاستخدامها في هذا السياق. ذات مرة، أهدى الخليفة العباسي العظيم هارون الرشيد مفاتيح كنيسة القيامة ضمن عدة هدايا قد أهداها

إلى الإمبراطور الفرنجي شارلمان [86]. من الناحية التاريخية؛ أخطأ مسيحيو سوريا – الذين لا ينتمون إلى الكنيسة الغربية – لم يطلبوا أية حماية سوى الحكومة الإسلامية. ومن الناحية السياسية؛ فقد ثبت أنه مصدر لا نهاية له من المتاعب التي أَلَمَّتْ بالإمبراطورية الإسلامية. أجل؛ قد كانت المفاتيح التي أهداها هارون الرشيد إلى الإمبراطور الفرنجي من نسختين، كما كانت الكنيسة مفتوحة يوميًا تستقبل المسيحيين بطريقة طبيعية. كان القصد من ارسال الهدية على سبيل المجاملة فقط، كأن هارون الرشيد أراد أن يقول للإمبراطور شارلمان: (*يمكنك أنت وشعبك الوصول إلى الكنيسة بحرية تامة، والتي هي مركز إيمانك، ففي أي وقت يمكنك الحج إليها وزيارتها*). لكن فُهِمَتْ الهدية على محمل الجد، واعتبرها المسيحيون الفرنجة حق التملك الحر، وكانوا ينظرون إلى مسيحيي البلاد على أنهم مجرد دخلاء، كما قلتُ سابقًا، فضلًا عن كونهم زنادقة.

كانت هذه الهدية من الخليفة هارون الرشيد إلى الإمبراطور شارلمان هي أساس لكافة الادعاءات الفظيعة التي ادَّعتها فرنسا فيما بعد وقتئذٍ. وكانت – بطريقة غير مباشرة – هي أساس المزاعم الروسية في أحقيتها لحماية الكنيسة الشرقية من انتهاكات الروم الكاثوليك؛ وكان هذا السبب الرئيس لكافة المشاعر السلبية والمضطربة التي كانت موجودة بين المسلمين وأهل الذمة من المسيحيين. فعندما استولى الصليبيون على القدس، قاموا بذبح مسيحيي الشرق ومسلميهم وقتلهم دون تمييز، علاوة على أنهم في فترة

---

([86]) قارلة (كما سماه قدماء العرب): ملك الفرنجة وحاكم إمبراطوريتهم بين الأعوام 768م: 800م، وهو إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة بين الأعوام 800م: 814م.

احتلالهم للقدس، حُرِمَ مسيحيو الشرق من كافة الامتيازات التي منحها الإسلام لهم، وعُومِلُوا معاملة المنبوذين. ووصل بهم الحال والمآل إلى أن تحولوا إلى معتقد الروم الكاثوليك كي يحصلوا على الامتيازات التي وضعها الروم لِمَنْ على الكاثوليكية. وبعد أن أعاد المسلمون فتح القدس، وعاد المهاجرون المسيحيون، وجد أتباع الكنيسة الشرقية أن عددًا كبيرًا من المسيحيين يدينون بالولاء والطاعة لبابا روما، ولكن، وعقب أن أُعِيدَ الأمر كما كان قبل الاحتلال الصليبي للقدس، تمتع جميع الذميين بامتيازاتهم التي كانوا يتمتعون بها قبل الاحتلال حسب الشريعة الإسلامية. فعلى المستوى العام؛ كان تأثير ذلك الاحتلال على مسيحيي الشرق قويًا على المسلمين؛ أي أن المسلمين قد غضبوا من الأمر ذاته، فَعَلا الاحتكار الفكري للمسيحيين، الأمر الذي أضرَّ بالجانبين على السواء؛ لأنه جعل من الجانب الأول مُستعليًا على الجانب الثاني من الناحية الاجتماعية، وازدادتْ حدة الازدراء الفكري، مما أدى – في نهاية المطاف – إلى إغفال المسلمين عن التقدم العلمي الغربي حتى وقت متأخر. فلم يكتف المسلمون بهذا الاستعلاء وحسب؛ بل بعدما استولى إبراهيم باشا على سوريا، في العقد الثالث من القرن التاسع عشر الميلادي، انتظره وفدٌ من مسلمي دمشق يشكونه من أن المسيحيين في عهده كانوا يمتطون الخيل. فتظاهر إبراهيم باشا بصدمة كبيرة عند سماعه ذلك الأمر، فطلب من مسلمي دمشق أن يمنحوه ليلةً للتفكير في شكواهم. وفي صباح اليوم التالي؛ أبلغ ذلك الوفد بأنه من المؤسِف على المسيحيين أن يمتطوا الخيل مثل المسلمين، ثم سمح لجميع المسلمين من

تلك اللحظة بركوب البعير. ربما كانت هذه المرة الأولى التي واجه فيها مسلمو دمشق سخافة ما كانوا يشتكونه.

وبحلول بداية القرن الثامن عشر الميلادي؛ كان المسيحيون قد تعرضوا لبعض المعوقات الاجتماعية، لكنها لم تكن قط قاسية أو تمثل مصدرًا للإزعاج بالنسبة إليهم؛ تلك المعوقات التي تعرض لها نبلاء الروم في فرنسا في نفس الفترة التي أخضعت فلاحيي الروم الكاثوليك، أو مثل تلك التي فرضها البروتستانت على الروم الكاثوليك في أيرلندا، لكنهم كانوا يُثْقِلون على الفئة الثرية من المجتمع وحسب. فقد كان الفقراء من المسلمين والمسيحيين على قدم المساواة، وكانت صداقتهم جيدة للغاية. فلم يتدخل المسلمون في دين المسيحيين وطقوسهم قط؛ لأنه لم يكن هناك محاكم التفتيش في بلاد المسلمين أو الحرائق البشعة التي جرت في مدينة سميثفيلد Smithfield الأمريكية على يد القديس أوغسطينوس. أضف إلى ذلك؛ أن المسلمين لم يتدخلوا في الشئون الداخلية لطوائف المسيحيين قط. وهكذا، فإن عددًا من الطوائف المسيحية الصغيرة (والتي يُسمِّيها الطوائف الكبرى بالطوائف المُهرطِقة)، كانت ستُبادُ نهائيًا إذا ما تُرِكَتْ تحت رحمة الطوائف المسيحية الكبرى في العالَم المسيحي. تلك الطوائف المسيحية الصغرى عاشت في أمان تام تحت حكم المسلمين.

تمتعتْ الأديرة التي لا تُعد ولا تُحصى بثروة من الكنوز المالية التي حُسِبَتْ قيمتها بما لا يقل عن مائة مليون جنيه إسترليني، وذلك كان سببه ميثاق سيدنا النبي الكريم ﷺ الذي منحه لرهبان سيناء، ومن ثم وضعها المسلمون موضع الاحترام والتقدير من الناحية الدينية. ثم مَثَّل البطاركةُ طوائفَ المسيحيين المختلفة في مجلس الإمبراطورية،

وذلك على مستوى المقاطعات عن طريق أساقفتهم، وفي المجالس القروية عن طريق كهنتهم. وفيما يتعلق باحترام خصوصية الأديرة، فمما زلتُ أتذكره أنه في عام 1908م تمردتْ أبرشية الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية بكنيسة القبر المقدس أو كنيسة القيامة ضد طغيان رهبان دير القديس جاورجيوس المجاوِر لها. كان الدير ثريًا للغاية، حيث كان جزء كبير من عائداته مستمدة من الأراضي التي نقلها إليه أسلاف الأبرشية العرب كي يتمتعوا بالأمن والأمان، وذلك في وقتٍ كانت الملكية فيه غير آمنة، لكنهم كانوا معتمدين على تقديس المسلمين للثوابت الدينية وتبجيلها. كانت الأموال المُدَّخرة تُدفَع إلى المودعين وذريتهم، بعد اقتطاع جزء منها لصالح الدير، ولم يدفع الرهبان أي جزء من الأموال لأي شخص لقرن أو يزيد، ثم طالبت الأبرشية بإنفاق جزء على الأقل من تلك الثروة غير المشروعة لصالح تعليم الطائفة والناس. فوقف البطريرك إلى جانب الأبرشية، لكن قام الرهبان بأسره، مما دفع الأبرشية أن يقتحموا الدير، إلا أن كياسة الرهبان وفطنتهم للموقف أن قاموا بنقدهم نقدًا لاذعًا. انطلق الأبرشية لطلب العون من الحكومة التركية لإطلاق سراح البطريرك، لكن الحكومة التركية لم تستطع أن تُجبِرَ الرهبان على أن يدفعوا أي جزء من ثرواتهم؛ وذلك يؤول إلى أن الشريعة الإسلامية قد كفلت حرية تصرفهم في أموال الأديرة وثرواتها كما يشاءون.

ومما أتذكره أن أحدًا من أعيان دير القديس جاورجيوس قام باختلاس مبلغًا من أموال كنيسة القيامة – ذلك المبلغ يبلغ قيمته حوالي أربعين ألفًا جنيهًا إسترلينيًا – وحاول الهروب به إلى أوروبا. لكن لسوء حظه أن أُلْقِيَ القبض عليه من ضباط الجمارك الأتراك

في مدينة يافا، ثم أعادوه ثانيةً إلى القدس. وأثناء التحقيق معه، سقط المُختلِس يُمرغ وجهه على الأرض مُتوسِّلًا إلى الضباط، وعيناه تذرف الدموع، كي يحاكموه حسب القانون التركي، إلا أن جاءه الجواب: (*ليس لدينا سُّلطة قضائية على الأديرة*). ومن ثم؛ سُلِّمَ ذلك المُختلِس ليكون بين أيدي أقرانه من الرهبان.

هذا غيضٌ من فيضٍ من الأدلة الشاهدة على تسامح المسلمين، والامتيازات التي أعطوها لأناسٍ ليسوا من دينهم، لكن وأسفاه، استخدمَ خصومهم السياسيين هذا كله ضدهم في النهاية مثلما استُخْدِمَتْ هذه الامتيازات في فترة قوة الخصوم السياسيين.

ويمكنني الآن أن أضربَ لكم مثالًا نموذجيًا عن (الامتيازات). قبل ثلاثمائة عام، كان الرهبان الفرنسيسكان هم المبشرون الأوروبيون الوحيدون الذين كانوا من شعب الإمبراطورية الإسلامية. وكان هناك وباء الطاعون، وكان – وقتئذ – قد أخلص هؤلاء الفرنسيسكان في تقديم الرعاية الطبية والمساعدات لكافة فئات المجتمع دون تمييز، وبالأخص في مسألة دفن الموتى. وتقديرًا لهذه المساعدات والرعاية الطبية التي قدمها هؤلاء، أصدرت الحكومة التركية مرسومًا يقضي بإعفاء كافة ممتلكات الرهبان الفرنسيسكان من الرسوم الجمركية إلى الأبد. وقد كانت الكلمات المُستخدمة في المرسوم التركي – على سبيل المثال –: الفرنجة (أي؛ أوروبا الغربية)، (المبشرون)، وفي وقت لاحق، عندما كَثُرَ المبشرون الغربيون الغربيين – وكان سوادهم الأعظم من طوائف أخرى غير الروم الكاثوليك – ادَّعوا جميعًا هذا الامتياز، فسمحتْ الحكومة التركية بذلك؛ لأن شروط ذلك المرسوم قد شملتهم فعلًا. ليس هذا وحسب، بل ادَّعوا أن هذا الامتياز حق كما لو حصلوا عليه بقوة السلاح أو بمعاهدة دُّوَليَّة بدلًا من أن يكون هدية

أو منحة من السلطان، فتواصلوا مع قنصلياتهم وسفرائهم كي يساندوهم بقوة إذا اعتُدي عليهم من جانب المسلمين.

ولم يكن الأمر كذلك وحسب، بل أُجيزَ للمسيحيين أن يحتفظوا بلغاتهم وعاداتهم الخاصة بهم، والسماح للمبشرين من العالَم المسيحي بزيارتهم في بلاد المسلمين. وهكذا صاروا كتلة كبيرة من الأخوة العالمية؛ لأن التسامح هو حجر الزاوية لقوة الإسلام، وكما سبق أن قلتُ، كانت – ولا تزال – الأخوة الإسلامية لم يسبقْ ولن يسبقَ لها مثيل في التاريخ، فإن الطبقة والعرق واللون لا تمثل حواجز في الإسلام مطلقًا.

في سوريا ومصر وبلاد ما بين النهرين، نجد أن جنسية شعوبهم ولغتهم هي ذاتها؛ أي جميعهم من أهل تلك البلاد، لم يكن هناك صراع بينهم، لكن في تركيا كان هناك اختلاف في لغات مَن يقطن فيها، حيث يتحدث المسيحيون بلغات مختلفة تمامًا عن المسلمين، مما أدى إلى اختلاف الفكر والغايات. وبما أن القومية في تركيا كانت بمعناها الإيجابي، رضي المسيحيون بذلك تمام الرضا، طالما كانت الإمبراطورية الإسلامية تُحكم بأسلوب أفضل وأكثر استنارة وازدهارًا من دول العالَم المسيحي. ويمكن القول إن هذا هو الحال حتى بداية القرن السابع عشر الميلادي، وما بعد ذلك تدهور الحُكم في الإمبراطورية الإسلامية لمدة ثمانين عامًا. فالمسيحيون لم يعانوا من الحُكم السيء أو من معاملة المؤسسات الإسلامية لهم، لكنهم كانوا يعانون من إهمال هذه المؤسسات التي كانت مصدر أمن وأمان لهم. ذلك الإهمال الذي استغلته روسيا لأكثر من قرن من

الزمان، وهي تعمل سرًا لإثارة روح القومية العدوانية فيما يتعلق بالمسيحيين، ثم بعد ذلك، بدأت تلعب على وتر الدين بعدما غُرِسَ في نفوسهم التعصب الديني البغيض.

وبعد ثمانين عامًا من فترة تدهور الحُكم في الإمبراطورية الإسلامية، جاء عصر الإصلاح، وبدأت الحكومة الإسلامية في إعادة الاهتمام بالمؤسسات، وتحسين أوضاع شعوبها، إلا أن ذلك قد جاء متأخرًا، وقد فات الأوان لاستعادة الصربيين، واليونانيين، والبلغاريين، والرومانيين الذين كانوا يعيشون تحت مظلة المسلمين. قد فات الأوان؛ لأن سُّمَ إثارة روح القومية العدوانية السياسية الروسية قد سرى بجسد الإمبراطورية الإسلامية، كما أن النفوذ الروسي قد ازداد رقعته بعدما حققت روسيا انتصاراتها على تركيا، الأمر الذي كان يعمل على تهييج مشاعر مسيحيي الكنيسة اليونانية، على أمل أن يتمكنوا من ذبح المسلمين وقتلهم وسلبهم في أقرب فرصة. كان تهييج المشاعر الدينية والتعصب لها قد غرسه مبعوثو روسيا السريون وكهنتهم ورهبانهم من قبل في نفوسهم، فترعرعَ فيهم معنى القومية السلبية العدوانية.

ولا أرغب في الإسهاب في الحديث عن تلك الفترة من التاريخ، رغم أنها الأفضل على الإطلاق، لأنها قريبة منا زمنيًا، وقد ينجذب لها شعور المستمعين والحاضرين. سأذكر لكم الآن أنه في حرب استقلال اليونان عام 1821م، كان هناك ثلاثمائة ألف مسلم من الرجال والنساء والأطفال، جميعهم من الموريين دون استثناء، بالإضافة إلى عدة آلاف في الأجزاء الشمالية في اليونان، قد قُضِي عليهم بأبشع وأقسى طريقة ممكنة. ففي التاريخ الأوروبي، فإنه نادرٌ ما نسمع أو يُذكَر هناك شيءٌ عن تلك المذبحة، لكن على النقيض تمامًا نسمع كثيرًا من الأعمال التي تُعتبر رد فعل طبيعي قام به الأتراك بعد ذلك.

إن الذين قاموا بإثارة التعصب الديني، كانوا مسيحيين من خارج الإمبراطورية الإسلامية، بأسلوب ممنهج ومستمر، حيث أخبرهم القساوسة أن قَتْلَ المسلمين وسلبهم عملٌ عظيم وجدير بالتقدير والاحترام. أشكُّ في وجود أي شيء (شرير) مثل تلك المؤامرة لتدمير تركيا في التاريخ. وعندما أقول (شرير)، أعني بذلك أنه معادٍ للتقدم الإنساني، وبالتالي فهو ضد هَدْي الله للإنسانية جمعاء. فهؤلاء القساوسة، الذين هم من خارج الإمبراطورية الإسلامية، زينوا لأتباعهم من المسيحيين أن التسامح الديني هو الضعف ذاته في نظر الناس في جميع أنحاء العالم؛ فالمسيحيون الذين عاشوا بسلام في تركيا، يبدو أنهم كانوا سببًا في سقوط تركيا. وعلى الجانب الآخر؛ كان طريق الاضطهاد والإبادة الذي ساد في العالَم المسيحي بدا قويًا وحكيمًا نسبيًا، حتى وصلوا إلى أنهم نظروا إلى التسامح الديني كأنه خطأ سياسي. لكن الحقيقة بخلاف ذلك؛ دائمًا يُشْفَقُ على ضحايا الظلم أقل من مرتكبي الظلم. فمن لحظة طرد الموريسكوس، بدأ تدهور إسبانيا وتدهورها، حيث كان الملك فرناندو [87] أكثر حِكمة ووطنية في تسامحه أثناء الاستيلاء على مدن إشبيلية ومرسيا وطُلَيْطِلَة الإسبانية، من الملك اللاحق الذي استولى على غرناطة – تحت ستار الحرب المقدسة – وأطلق العنان لمحاكم التفتيش تعمل بكامل قوتها ضد المسلمين واليهود. ثم وُلِدَتْ دول البلقان واليونان في ظروف سيئة. لا شك أن التسامح الديني – تاريخيًا – هو أرقى دليل على الثقافة لدى أي شعب. يجب على المسلمين ألا ينظروا إلى أن التسامح هو ضعف في الإسلام، إذا ما رأوا ما يفعلوه الأوروبيون عن

---

([87]) فرناندو الأول: ملك ليون وقشتالة (1015م: 1065م)، وهو أول مَن لقَّبَ نفسه بإمبراطور إسبانيا عام 1056م.

اعتقادهم الذي يدعوهم إلى تخريب العالم الإسلامي بإجباره إما إبادة جميع شعوب الدول الأخرى أو ارتدادهم عن الإسلام ودخولهم في المسيحية. إن التسامح في الإسلام هو أعظم قوة؛ لأنه الحق. إن الله ﷻ ليس إله اليهود فقط، أو للمسيحيين فقط، أو للمسلمين فقط، كما أن الشمس لا تُشرِق والسماء لا تُنزِل الغيثَ لليهود فقط، أو للمسيحيين فقط، أو للمسلمين فقط، كما قال الله تعالى في كتابه الحكيم حكاية عن مَن يقول ذلك: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 111].

فمَن زعم ذلك، فعليك دحض زعمه بقوله ﷻ: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 112].





# المحاضرة السادسة

# التكليف (88) بعقيدة القدر

لقد تحدثتُ لكم بشيء عن الثقافة الإسلامية من الناحيتين: نهضتها وتدهورها. القدرية [89]: إنها نمط فكري يُنسَب تراجع الثقافة الإسلامية إليها، حيث يُقال إن العيب هو القدرية المتأصلة في الإسلام. إذن؛ ما الذي يجب على المرء أن ينسبَ إليه نهضة الثقافة الإسلامية مثل المكانة التي بلغها المسلمون وحافظوا عليها لفترة طويلة في العالم؟ إنه – وبنفس المنطق – أن تُنسَب النهضة إلى القدرية أيضًا، إذا ما كان هذا الفكر متأصل في الإسلام حقًا. إن هذا الأمر مستحيل! كيف لنا أن ننظر إلى الحقيقة – التي لا تقبل الشك مطلقًا – وهي أن المسلمين فعلوا كل ما في وسعهم حتى بلغوا قمة النجاح بطاعتهم

---

([88]) معنى التكليف والمُكَلَّف:

وواجِبٌ شَرْعًا على المُكَلَّفِ *** مَعرِفَةُ اللهِ العَلِيِّ فاعْرِفِ

يعني أنه يجب وجوبًا شرعيًا خلافًا للمعتزلة القائلين: إن معرفة الله تعالى واجبة بالعقل. (على المُكَلَّفِ): أي من الثقلين؛ الإنس والجن، والتكليف: إلزام ما فيه كُلفة، وقيل: طلب ما فيه كُلفة، فلا تكليف بالمندوب، والمكروه على الأول الصحيح، بخلاف الثاني، ولا تكليف بالمباح اتفاقًا. والمُكَلَّف: البالغ، العاقل، الذي بلغته الدعوة.

المصدر: الدردير، أحمد بن محمد، **شرح الخريدة البهية**، صفحة 131.

([89]) القدرية: (تُطلق هذه الكلمة عادةً كوصف أو لقب للمعتزلة، ولكنها تعود إلى ما قبل المعتزلة عندما بدأ المسلمون يطرحون أسئلة متعلقة بالعقيدة، حيث كان هناك متشككون في الإيمان بالقدر). (... هناك رؤيتان متطرفتان ورؤيتان معتدلتان في هذا الموضوع. والأخيرتان هما المقبولتان في نظر المسلمين التقليديين، وكلها ترجع إلى نصوص قرءانية وأحاديث نبوية ... أما المذهبان المتوسطان أو التقليديان فهما مذهبا الأشعرية ومذهب المَاتُريدية. ويرى الأشعرية أن رأيهم هو الأقرب إلى المنطق، بينما اكتفى المَاتُريدية بذِكر الحقائق الواضحة، ومن الواضح أن الأسس التي بنى عليها المؤيدون للإرادة الحرة رأيهم أسس أخلاقية، فإن عدل الله عز وجل يقتضي أن يكون الإنسانُ حرًا، والإسلام التقليدي لا يهتم كثيرًا بهذه القضية، فالله جلَّ جلاله أن يفعل ما يشاء).

المصدر: آربري وهوتسما وأرنولد وباسيه وهرتمان، **موجز دائرة المعارف الإسلامية**، صفحات: 8090، 8091، 8092.

لقوانين دينهم وبفطنة عالية، وبسبب بُعدهم عن طاعة الله وعصيانهم لها، ضعفوا وفشلوا، فهل هذا يعني أن القدرية عيب أصيل في الإسلام؟ كل هذا يتوقف على ذلك السؤال القديم عن الأقدار والإرادة الحرة [90] الذي أثار غضب العالَم المسيحي، كما أثار غضب العالَم الإسلامي، في فترات معينة من التاريخ. يشير القرءان الكريم بوضوح إلى مساحة الإرادة الحرة للإنسان، لكنها في الحقيقة هي مساحة تحت سيادة الله ﷻ، ولا يمكن للإنسان أن يهرب من العواقب المنطقية لقانون الله؛ أي شريعته.

يقول الله ﷻ: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء: 78، 79].

هاتان آيتان من القرءان الكريم احتدم فيهما هذا الجدل حول الأقدار والإرادة الحرة، ويبدو من أول وهلة أنهما متناقضان، لكنهما يشيران إلى حالة عكسية معينة قُتِلَ فيها بعض المسلمين لعدم فَهم حقيقتهما كما ينبغي. إن الموتَ أمرٌ خارج سيطرة الإنسان؛ أي أنه سيأتي عاجلًا أو آجلًا، وجميعنا سيموت لا محالة، والإنسان بطبيعة الحال عُرضة

---

([90]) الإرادة الحرة أو مفارقة الإرادة الحرة أو الإرادة الإلهية Argument from Free-Will: أو يُعبَّر عنها بـ (حُجِّيّة الإرادة الحرة)، وهي حُجَّة تناقش بأن العلم اللانهائي للإله وحرية الإرادة للإنسان غير متوافقة، وأن أي إله يجمع بين هاتين الخاصيتين فهو إله متناقض.

للاستزادة، يُرجى الرجوع إلى (موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلامي) للدكتور سميح دُغيم – الجزء الأول – بداية من الصفحة رقم 69 إلى الصفحة رقم 91.

لتقلبات المصائر التي هي كلها بيد الله ﷻ. كان سيدنا النبي ﷺ مجرد رجل أوحى الله إليه، أي أنه من الحماقة أن يلقي الناسُ باللومِ عليه ﷺ بسبب مصائر العباد التي هي في الأصل كلها بيد الله وحده. (*ما الذي يؤلم الناس إلى هذا الحد الذي لا يستطيعون حتى الاقتراب لفَهم حقيقة واضحة كهذه؟*) إن الحقيقة الواضحة التي كررها القرءان الكريم مرارًا هي أن محمدًا ﷺ كان رجلًا، وليس كائنًا خارقًا للطبيعة، وكان سوء حظ المسلمين بسبب حالة عدم الرضا الخفية أو الخلاف فيما بينهم، وهو الأمر الذي حرَّمه الله علينا. فإذا ما التزم المسلمون بشرع الله، حالفهم النصر، لذلك قال الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء: 79]، وهذا يعني أن النبي ﷺ لا يمكنه تغيير قانون الله في النتائج والعواقب.

في واقع الأمر، إن عقيدة (القدرية) متأصلة في العقيدة الإسلامية، ولدينا أنموذجٌ حقيقيٌ هو المسلمين الأوائل، لكنها ليست كما يتصورها العالَم الغربي وينسبها إلى المسلمين، وهي تقوم على الجد لا الكسل. يأتي سوء الفَهم من فِعل الأتراك الذين اعتبروا أن الحرب من اختصاص المسلمين، ووقت السِّلم فُسحة وراحة. ومن الغريب أن الجدل كان يجب أن يُفْرِدَ هذا المقطع الذي يبدو لي أنه لا يمس السؤال الأكبر عن الأقدار والإرادة الحرة. إنه سؤال، مثل تعريف الخلود، وهو أمر يفوق فَهمنا تمامًا، وهو أحد الأمور التي حذرنا القرءان من عدم السعي إلى شرحها.

إن مكانة الإنسان في هذا العالم هي مكانة خليفة الله في الأرض؛ أي أن الإنسان هو كما أخبرنا الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: 30].

يصير الأمر بالنسبة للإنسان على ما يُرام، إذا أدرك تبعيته لمالِك هذا الكون، ونظر إلى المهام التي أوكلها الله إليه باعتبارها أمانة مقدسة، والتي سيُقدم – في يوم ما – تقريرًا مفصَّلًا كاملًا عنها. بينما يكون الأمر بخلاف ذلك، إذا ما نسى الإنسان أو أنكر تبعيته لله وخضوعه له. نقرأ جميعًا في السورة التي ورد أنها أول ما نزل من القرءان: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴿٦﴾ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴿٧﴾ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴿٨﴾﴾ [العلق: 6، 7، 8].

فالإنسانُ مسئولٌ عن هذا العالَم بكل ما فيه من حيوانات، وأشجار ونباتات، وواجبه أن يُهذِّبه ويُحسِّنه لخير الإنسانية جمعاء، ولا يقوم على تدميره ونهبه من أجل سعادته. فقد كُلِّفَ الإنسان – مع الآخرين – بتنمية نفسه وتحسينها وتنمية الآخرين كذا، وتمهيد الطريق لتقدم الأجيال القادمة. إن اعتماد الإنسان المطلق على القوانين الطبيعية التي تحكم الوجود كله، مثل: عدم القدرة على التنفس أو رفع الذراعين دون الخضوع للقوانين التي لم يخلقها أو له سيطرة عليها، مثل: الليل والنهار، وقوانين النمو والتضاؤل، والحياة والموت – كل هذا يجب أن يكون دائمًا محل تدبر وتذكُّر للإنسان بأن سيادته ومساحة إرادته الحرة مقيدة بحدود لا يمكن تجاوزها أبدًا، وليتذكر دائمًا أنه تحت رحمة

قوة لا نهائية. لكن، غالبًا ما يفشل الإنسان في أن يتذكر هذه الحقيقة الواضحة، ومن ثم (*يكون الإنسان متمردًا ويعتبر نفسه مستقلًا*)، فينمو الشر بداخله والفساد كذا.

وموقف المسلمون في العالم هو موقف جميع الرجال والنساء الذين تعهدوا بإعلان هذه الحقيقة، والسعي الدؤوب لإقامة ملكوت الله؛ أي الملكوت القائم على الأخوة الإنسانية الشاملة. إن ملكوت الله في القرءان لا يقتصر على عرق أو مذهب، واختبار الولاء ليس جزءًا من عقيدة معينة أو أداء مجموعة معينة من الطقوس؛ فالاختبار واحدٌ لجميع البشرية وهو عمل الإنسان. فعلى المسلم أن يجاهد لِفِعل الخير أينما حلَّ، وأن يجاهد لمنع الشر أينما كان، وأن استسلامه لمشيئة الله لا يقوده إلى الخمول. إنها بداية حياة الجَهد الحقيقي الذي لا يجلب للمسلم أي ألم، وإنما يبعث على الشعور بالراحة والسعادة كما يشعر السبَّاح الذي كافح طويلًا في مواجهة المد والجزر، والمد الذي صَدَّه من قبل، فإنه يدعمه الآن. وهذا الجهاد من أجل الخير يبدأ من ذات المسلم، ثم إلى إخوته من المسلمين، وينتهي بانتهاء أجله في الدنيا، أو في أرض المعركة، وهو ما يُسمَّى بالجهاد.

يترك المسلمُ – أثناء الجهاد – كلَ شيء تحت مشيئة الله ورحمته، ولا يهاب الموت، ولا يخطر بباله متى وأين وكيف يموت. هذا هو المعنى الحقيقي لعقيدة (القدر) التي يعتقدها المسلمون، لكنها ليست عقيدة تبعث على الركود والاضمحلال. وعندما فَقَدَ المسلمون روحَ الجهاد في أعمالهم الحياتية وقت السِّلم، بدأت الحضارة الإسلامية تأخذ منحنى الركود، وغابوا عن المعنى الأوسع لمصطلح الجهاد، وانحصروا في المعنى الضيق

له، الأمر الذي كان لشارحي الكتب وواضعي الحواشي عليها تأثيرٌ قويٌ على انحصار المسلمين في المعنى الضيق للجهاد.

فلم ينتقل معنى كلمة ما من معناها الواسع إلى معناها الاصطلاحي أكثر وضوحًا وأكثر كارثية في عواقبها مما في حالة هذه الكلمة (الجهاد)، وهذه هي عملية (المدرسية) أو (السكولاتية) [91] في الإسلام. فاستُخْدِمَتْ كلمة (الجهاد) بمعنى الحرب من أجل غزو أي شخص يعتنق أي دين آخر غير دين الإسلام، وهذا المعنى – الذي حوَّله شارحو كتب التراث من معناه الحقيقي إلى الحرب بمعناه الحرفي المعروف المتداول – مشابه تمامًا لما تشير إليه كلمة (الحروب الصليبية)، وهو تعصب لا علاقة له بكلمة (الجهاد). حتى بين المسلمين أنفسهم، أصبح الأمر مُستساغًا ومقبولًا على أنها تعني الحرب للدفاع عن الإسلام، لدرجة أن إدارة حرب السلطان أو الخليفة ونائبه، خديوي مصر، لم يُطْلِقْ عليها (النِظارة الحربية)، بل أطلق عليها (النِظارة الجهادية)، وهي كذبة نبيلة مغلَّفة بغلافٍ دينيٍّ، وهو أن القائد الأعلى للمسلمين، يجب أن يكون دائمًا بطبيعة الحال صاحب الجهاد.

كانت هذه الكذبة النبيلة ضرورية لِمَا يقوم به الجيش – في العادة – لأنه وفقًا للشريعة الغرَّاء لا يمكن تجنيد المسلمين إلا في حالة حرب ذات طبيعة الجهاد الديني. وهكذا يكون الأمر دائمًا فيما يتعلق بالتجنيد الإجباري الذي اتخذ من هذه الكذبة النبيلة ذريعة لكافة الحروب التي سيشارك فيها الجيش، وإيهامهم أن هذه الحروب ستكون لها

---

([91]) أشرتُ إلى شرحها في المحاضرة الثانية: عوامل النهضة وعوامل التدهور.

طبيعة جهادية دينية، وذلك بعد فتوى معتمدة من شيخ الإسلام [92]، وشيخ الإسلام هو نائب عن جميع علماء المسلمين، يُصدر فتواه بخصوص الجهاد، ثم يأخذ بفتواه الخليفة أو السلطان أو الحاكم. كان العلماءُ قديمًا، في ظل أوج الجامعات الإسلامية ومنظومتها التعليمية القوية، يُفَرِّقون بوضوح بين حرب الجهاد وحرب طموح السلطان ومصلحته الذاتية، وكان لديهم إجماعٌ قويٌ شديدٌ لإصدار فتوى شرعية بخصوص الحرب من عدمها، فإذا كانت الحرب للجهاد، أصدروا فتوى شرعية بتجنيد المسلمين، وإذا كانت الحرب للمصلحة الذاتية للخليفة أو السلطان، وقفوا في وجهه لمنعه عن طريق النُّصح والإرشاد، وأصدروا فتواهم بعدم تجنيد المسلمين؛ لأنها حرب ليست للجهاد، وإنما حرب لمصلحة الحاكم أو السلطان. وفي الأمر الأخير، لم يتمكن العلماء بوقف حرب الحُكَّام الذين كانوا يسعون لتوسعة رقعة مُلكهم باستخدام الكذبة النبيلة، وإيهام المسلمين أنها حرب ذات طابع ديني. وبالتالي لا يجوز لأي حاكم أن يُجبر أي مسلم حر على مساعدة مثل هذا الحاكم التوسعي أو أن يفرض أي ضريبة عامة لمثل هذا الغرض الشخصي. فيجب على الحاكم الذي يرغب في شن حرب على حاكم آخر أن تكون نفقة الحرب وتكاليفها على نفقته الخاصة لا على نفقة المسلمين، ويشتري عبيد من أمواله الخاصة وتجنيدهم في الجيش للحرب، ولا يقوم بتجنيد عوام المسلمين. فإذا ما هبَّ ذلك الحاكم وجيشه لغزو بلد آخر، يجب عليه ألَّا يتعرض لحياة المسلمين وغيرهم المسالمين، وواجب على العلماء أن يقفوا في وجه ذلك الحاكم المحتل، ويثوروا عليه، إذا تعرضوا

---

(92) لا يُصرَف الذهن إلى الشيخ ابن تيمية، ولكن لقب شيخ الإسلام كان يُلقَّب به مَن انتهتْ إليه رئاسة العلم في أي زمن من الأزمنة، وهو مقصود المؤلف.

لأحد المسالمين بسوء. إن المسالمين لا يهتمون أساسًا بأمر الحروب، ولا يهمهم مَن انتصر، لأن تغيير الحُكَّام لا يعني ثورة؛ فالشريعة الإسلامية هي قانون يُطبَّق على الجميع دون تمييز، ومَن يحكم عليه أن يلتزم بطاعته ﷻ، فمَن كان لم يلتزم بذلك، وقف العلماء في وجهه لنصحه دون خجل. فلو كانت جميع حروب المسلمين التي خاضوها عبر التاريخ أساسها الجهاد، كما كان المسلمون الأوائل، لكان الإسلام هو دين العالَم اليوم، وكان العالَم في حالة أفضل روحيًا ومعنويًا مما هو عليه الآن.

فالحروب التي تندرج تحت عنوان الجهاد لا يمكن خوضها إلا للدفاع عن النفس، وحماية الضعيف المظلوم، ورفع الظلم، مع الأخذ في الاعتبار عدم التعرض بأي أذى لغير المقاتلين من صفوف الأعداء، واحترام الكهنة والمؤسسات الدينية، وعدم إهلاك الحرث والنسل، والحفاظ على الأشجار المثمرة.

انظروا إلى هذا الحديث الشريف: (فَقُلْ لَهُ إِنَّ رَسُولَ اللهَّ ﷺ يَأْمُرُكَ يَقُولُ لاَ تَقْتُلَنَّ ذُرِّيَّةً وَلاَ عَسِيفًا) [93]. وهذا الأثر أيضًا: (وإني مُوصِيكَ بِعَشْرٍ لاَ تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً وَلاَ صَبِيًّا وَلاَ كَبِيرًا هَرِمًا وَلاَ تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا وَلاَ تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا وَلاَ تَعْقِرَنَّ شَاةً وَلاَ بَعِيرًا إِلاَّ لِمَأْكُلَةٍ وَلاَ تَحْرِقَنَّ نَحْلاً وَلاَ تُفَرِّقَنَّهُ وَلاَ تَغْلُلْ وَلاَ تَجْبُنْ) [94].

إن هذه كانت شريعة النبي الكريم ﷺ مع أعدائه، ويمكنكم مقارنتها بشريعة أوروبا وقوانينها الحديثة في آخر حرب خاضتها، حيث كان من المشروع السعي بكل

---

([93]) سنن ابن ماجة – كتاب الجهاد – باب الغارة والبيات وقتل النساء والصبيان – رقم 2949، والحديث من طريق حنظلة بن الربيع الكاتب رضي الله عنه.

([94]) موطأ مالك – كتاب الجهاد – باب النهي عن قتل النساء والولدان في الغزو – رقم 971، والأثر من طريق يحيى بن سعيد بن قيس الأنصاري رضي الله عنه.

الوسائل إلى تجويع العدو واختيار أفضل طريقة لتنفيذ ذلك. أما عن هدف الرسول ﷺ هو الحد من ويلات الحرب، وجعلها متزنة على كفتي الميزان بين المحاربين من الطرفين وحسب، مما أدى إلى أن أهل البلد، التي حدث على أرضها الحرب، انجذبت قلوبهم إلى الإسلام بسبب حُسن معاملة الشريعة الإسلامية والحفاظ على حياتهم، والتي كانت سببًا في إشراق شمس الإسلام على كل بقة من بقاع العالم. فلم يكن في زمنه المبارك ﷺ أثر لتلك الفكرة المغلوطة التي سادت – أحيانًا – بين المسلمين الآن، القائلة بأن شن الحرب على الكفار واجب مقدس.

إن الذين سعوا إلى السلام قديمًا من غير المسلمين، عقدوا معاهدات مع المسلمين الأوائل، طالما حافظوا على مبادئها وشروطها ولم يُخِلُّوا بها، ولم يقترب أحد من حقوقهم البتة. وكان احترام المسلمين للمعاهدات يُضرب به المثل؛ لأن القرءان قدَّسَ كل عقد أو معاهدة في آياته الكريمة، إلى أن اكتسب المسلمون شهرتهم الواسعة بسبب عدالتهم وحِفظهم للمعاهدات مع غير المسلمين؛ كانت حرب الجهاد جزءًا من الثقافة الإسلامية، ومن المستحسن أن تعتني بها الدول الحديثة وتدرسها وتحاكيها، حيث غفر سيدنا النبي ﷺ لأعدائه وسامحهم وعفا عنهم مِرارًا وتَكرارًا.

رغم ذلك كله، ما زال هناك مَن سيعترض على شيء ممن يدَّعون أنهم يدعون إلى السلام المطلق، وهو أمر القتال دفاعًا عن النفس، وحماية الضعفاء والعجائز. إن المعترض دائمًا ما يقتطع جزءًا من الآية القرءانية، ثم يفتري افتراءات شنيعة ضد الإسلام، فنجد أن السيد لويد جورج، في مؤتمر جنوة للسلام، قال مُستشهدًا بجزء من آية قرءانية:

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة: 190]

وبصرف النظر عن سياق هذه الكلمات القرءانية، فإن السيد لويد جورج أراد أن يقول إن القرءان أمر المسلمين بقتل غير المسلمين وذبحهم، وهو عين الافتراء؛ لأنه لم يقرأ الآية كاملة في سياقها الصحيح. قال الله تعالى:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝١٩٠ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۝١٩١ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١٩٢ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ۝١٩٣﴾ [البقرة: 190، 191، 192، 193].

إن الفَهم الصحيح لهذه الآيات أنها لا تدعو إلى القتل وإراقة الدماء، لأنها ببساطة هي القاعدة الطبيعية للحرب التي شُرِحَتْ للذين اعتقدوا أن إزهاق الأرواح تحت أي ظرف كان، هو دين المسلمين. لقد كان المسلمون حتى ذلك الحين دُعاة سلام لا مثيل لهم، وحربهم ضد الآخرين ليس من أجل فرض معتقدات المسلمين على غيرهم، وإنما من أجل حرية اختيار العقيدة في مواجهة أولئك الذين يريدون استئصال شَّأْفَة الإسلام؛ أي رُفِعَ السيف لحماية الاختيار وليس لفرض الإسلام، فكان ذلك السبيل لحماية المسلمين من الاضطهاد الواقع عليهم. فكان يجب أن يقاتلوا حتى يرفعوا الاضطهاد والظلم، حتى يستقر في نفوس الناس قوله ﷻ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 256]؛ لأن اللهَ ربٌ للجميع. ورغم أن هذا الأمر من أبجدية الدين، والذي قد يدفعني

إلى ألَّا أقرر هذا أمامكم، لكن – وبسبب الجهل الذي استشرى – يجعلني أن أعلن هذا الأمر الذي هو من المُسَلَّمَات، فأقول: إنه لا توجد أية كلمة واحدة في القرءان الكريم تُبرر القتل أو الحرب تحت أي ظرف من الظروف، إلا أنَّ كل ما هنالك أن الحرب في الإسلام هي حرب شريفة تُشَنُّ في ظروف معينة واضحة مقيدة، مما جعل الحرب في الإسلام لا تُقَارَن بأي حرب أخرى، وكانت عاملًا كبيرًا في نجاح الدعوة الإسلامية، والتي فاجأت غير المسلمين برحمة الإسلام في الحروب في أزمنة مرَّتْ على البشرية بقسوة بالغة.

فالحرب نوعٌ واحدٌ من أنواع الجهادِ، وهذا النوع هو أشده. أما الجهاد فيعني الجَهد أو الجُهد، وبالمعنى الديني، فإنه ينطبق على كل جهد يقوم به المسلم لتثبيت سيادة الله في أذهان الناس وتأكيده، وذلك من خلال أداء واجباته الدينية على النحو المنصوص عليه في القرءان – وهو جهد يجب أن يظل طوال حياة المسلم –، وإلا فلن يكون المسلمُ بذلك مسلمًا حقيقيًا. أو بكلمات أخرى؛ إنه من الواجب على المسلم أن يُكافِح من أجل الخير ضد أعمال الشر في كل مكان، حيث يبدأ هذا الكفاح والجهاد بقلب الإنسان وعقله. فقد قال نبينا الكريم ﷺ في هذا الصدد: (رَجِعْنَا مِنَ الجِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَى الجِهَادِ الأَكْبَرِ) [95]. مما يعني أن أَقْوَمَ أسلوب لتعريف الناس بأن الإيمان بالله يعني أن الإنسان مؤمن بسيادة الله الكلية على العالَم، وبسط يد السلام، هو العمل الصالح. كما أن سيدنا رسول الله ﷺ

---

([95]) أخرجه البيهقي في (الزهد) من حديث جابر، وقال: هذا إسناد فيه ضعف.

المصدر: الغزَّالي؛ أبو حامد محمد بن محمد، **إحياء علوم الدين**، الجزء الثالث، صفحة 9، الكتاب الأول من ربع المنجيات.

وصف جهد طالب العلم في عملية التعليم بـ (الجهاد الأكبر) أيضًا. فيقول ﷺ: (يُوزَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِدَادُ الْعُلَمَاءِ وَدَمُ الشُّهَدَاءِ، فَيَرْجَحُ مِدَادُ الْعُلَمَاءِ عَلَى دَمِ الشُّهَدَاءِ) [96].

وينطبق مصطلح (الجهاد) على اجتهادات المجتهدين من العلماء، وعلى أولئك الذين يصبرون على الأوبئة والجائحات – التي تجتاح البلاد – بل ويبقون لرعاية المرضى، ودفن الموتى منهم. ومن أشكال الجهاد: الأعمال الخيرية، والصبر على الاضطهاد، وكل عمل بشري يهدف إلى تحسين الواقع، والدفاع عن الحق، وإصلاح ما أفسده الآخرون. علاوة على أن التجارة كانت نوعًا من أنواع الجهاد أيضًا؛ فكان التُّجار ينطلقون بروح (الجهاد) متحلِّين بحلية الإسلام، وهي المعاملات الشريفة، وإخلاصهم في الوفاء بالعهود، وحَملهم لحقائق القرءان حيثما حَلُّوا كما يفعل التجار العرب اليوم. لذلك؛ إنه من الخطأ أن ينحصر الجهاد في معنى الحرب وحسب، وتحديدًا الحرب القائمة على التعصب الديني، وأن يكون المسلم مستعدًا للموت، إذا لزم الأمر، من أجل القضية التي يراها صحيحة. وهناك بعض القواسم المشتركة بين الجهاد وأهداف الحرب لتلك المدرسة الوطنية، والتي تنص على أن الإنسان يجب عليه أن يستعد تمامًا للقتال والموت في سبيل وطنه استعدادًا أعمى دون تفرقة بين الصواب والخطأ. وفي هذا الصدد، قال نبينا الكريم ﷺ بوضوح:

---

([96]) أخرجه ابن عبد البر من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف.

نفس المصدر السابق: الجزء الأول – صفحة 15 – كتاب العلم – الباب الأول: في فضل العلم والتعليم والتعلم وشواهده من النقل والعقل.

(لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ) [97].

بل إنه ﷺ أدهش صحابته الكرام ﷺ حين قال لهم: (انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ: تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ) [98].

فالمسلمون فقط هم الذين يقاتلون في سبيل الله (كما أطلق عليهم القرءان ذلك)؛ أي دفاعًا عن النفس، أو لحماية الضعيف والمظلوم. إن أمر شن الحرب للعدوان على الناس، وكان دافعه أراءً دينية أو هوى، فهو حرام قطعًا، ولا يصح قطعًا أن يُصبَغ هذا العدوان بصبغة الجهاد. فالجهاد هو (السعي في سبيل الله)، وسبيل الله، بعبارة مناسبة لزمننا، هو تكريس لقضية تقدم البشرية. إن الحالة الوحيدة التي تسمح للمسلمين بالحرب على الآخر هي التي يحاول فيها ذلك الآخر – أُمَّة أو جماعة – استعباد المسلمين، أو إبادتهم، أو استئصال شَّأفَة الإسلام حتى لا يظهر للناس جليًّا. ففي هذه الحالة يجب على المسلمين الجهاد (بمعنى الحرب) لمنع اضطهاد الآخر للمسلمين. ورغم كون الجهاد واجب مقدس لدى المسلمين، إلا أنهم لا يفكرون في هذا الجَهد والجُهد بأي شكل من الأشكال، كما أراده الله، حتى يكون عونًا لهم في الحياة.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ۝٦﴾ [العنكبوت: 6].

---

(97) أشرتُ إليه في المحاضرة الثالثة: أُخُوَّة المسلمين.

(98) صحيح البخاري – كتاب المظالم والغصب – باب أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا – رقم 2443، والحديث من طريق أنس بن مالك ﷺ.

وهناك أمثال إنجليزية تشير إلى هذه الحقيقة القرءانية، مثل: (الفضيلة مكافأة في حد ذاتها)، (إن الله يساعد أولئك الذين يساعدون أنفسهم) [(99)]، وما إلى ذلك. إن هذا المعنى الروحي الرفيع لم يظهر في أية حضارة قديمة قط، إلى أن جاء الإسلام وأظهر المسلمون الأوائل هذا المعنى السامي للناس كافة. فنتيجة هذا الجَهد الجماعي - غير الأناني - أثمرتْ أسعد حضارة عرفها العالَم عبر التاريخ كله، وظلتْ حضارة المسلمين تُنتِج هذا المعنى إلى أن تلاشى جهد المسلمين، فلم يُجاهدوا في سبيل الله؛ أي الجهاد بمفهومه العام لا الخاص.

قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ۝٧ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ۝٨﴾ [الشرح: 5: 8].

وفي وقت لاحق، نسى المسلمون هذه الحقيقة، وعندما هدأت وطأة الحروب، والحاجة الضرورية للجهاد، تراخوا وتكاسلوا عن الجهاد بمفهومه العام - كما أسلفتُ - وبهذا فقدتْ الحضارة الإسلامية قوتها، وغرقتْ تدريجيًا في تدهورها الذي استغرق وقتًا طويلًا إلى الآن.

إن الانضباط القوي في الإسلام - رغم كونه انضباطًا بسيطًا - غامض وغير معقول بالنسبة لغير المسلمين الذين لا يستطيعون تصور السبب الرئيس لقيام أي رجل أو امرأة بعمل أي شيء؛ أي أن العمل في الإسلام مختلف عن غيره من الديانات الأخرى. فإذا ما نُظِرَ إلى حقيقة العمل في الإسلام، فيما يتعلق بالجهاد بمفهومه العام وليس

---

(99) وهذا المَثَل الإنجليزي أقرب إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [سورة الرعد: 11].

الخاص، يصبح الأمرُ واضحًا ومعقولًا. ويتضح ذلك عندما تكون الصلوات اليومية، وصيام شهر رمضان، والحج، ما هي إلا قوالب فارغة دون روح الجهاد؛ أي أنه لا يمكن للمسلم أن يأمل في أن يُبَرِّرَ إيمانه بمجرد الإيمان وحسب. فقد قيل لأتباع الديانات الأخرى: آمنوا فقط. أما المسلمون فإنهم مأمورون بأن يؤمنوا وأن يعملوا، فالإيمان مرتبط بالعمل، ولا يمكن أن يكون الإيمان دون العمل الصالح، والفصل بينهما خطيئة لا فضيلة، كالذي لم يُؤد واجبه، ثم امْتُحِنَ فيما لم يفعله.

لقد قال كهنة من ديانة شقيقة إن الإنسان لا يجب عليه شيء تجاه نفسه، وإنما يجب عليه أشياءً يفعلها تجاه الله وكذا تجاه جاره. ففي هذه الديانة الشقيقة فقدَ الإنسانُ واجبَه تجاه نفسه، ذلك الواجب الذي أوجبه الإسلام علينا بطريقة معينة؛ أي أنه أقرَّ بواجب الإنسان تجاه نفسه، وهو واجب الجهاد من أجل الخير في مواجهة الشر، حيث يبدأ هذا الجهاد بانتزاع شهواته. جهاد شهوات النفس الإنسانية، لا يقل أهمية عن الجهاد الحربي؛ لأن الإنسان بذلك يقوم بتدريب نفسه، وهو البنية الكاملة للنظام الإسلامي. ومن ناحية أخرى، فإن التدريب الحربي الشامل هو الثمرة الطبيعية لقيادة القتال؛ أي يجب على أن يكون كل مسلم مجاهدًا مدربًا مؤهلًا لتحمل دوره المنوط به في الجهاد المستمر في مواجهة قوى الشر في هذا العالم، سواء أكان هذا الجهاد جهاد النفس، أو في السوق، أو في مكان العمل، أو في قاعة المجلس، أو في ساحة المعركة. فلا ينبغي للإنسان أن ينغمس في أشغاله الدنيوية، أو وظيفته التي تنتهي بعد مدة زمنية (طالت أو قَصُرَتْ)، وسيُحرم منها عاجلًا أم آجلًا. لذا؛ يجب أن يكون مستعدًا لهذه اللحظة حتى لا ينشغل بشيء غير جهاد نفسه،

فيقوده إلى عصيان الأوامر الإلهية، فإما أن يستقيل منها أو يقوم بتغيير طبيعة عمله، إذا كان ذلك العمل من مشاغل الحياة التي تُلهيه عن جهاد شهواته ونزواته.

قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: 156]. لن يكون هناك وقت سوى فترة قصيرة كي نعيشها في هذا العالم، قبل أن نضطر أن نترك وراءنا كل ما أحببناه فيه. ماذا سنأخذ معنا؟ لا شيء، لكننا سنجد شيئًا ينتظرنا، وبه سنحكم عليه بالخير أو بالشر.

إنه في قوله ﷻ: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران: 182].

فكل شيء فعلناه واجتهدنا في القيام به، سيُسجَّل لا محالة في سجلات ستُعرض علينا يوم القيامة بما في ذلك ما فعلناه وما سنفعله من جهود في سبيل الله، وللدفاع عن ملكوت الله على الأرض، ونيابة عن الضعفاء والجهلاء والمظلومين والفقراء. إنه حساب جهادنا؛ فالثروة نِعمة من الله العلي القدير، يؤتيها لمن يشاء، وينزعها ممن يشاء. إن الله يمنح العبدَ النعمة لامتحانه، وأحيانًا لاستدراكه، وأحيانًا لجزائه؛ فالنعمة شيء لا يُستهان به. أجل؛ إن نِعَمَ الله صعبة على الإنسان؛ لأنه يتلقفها دون أن يدري أهي نعمة له أم استدراكًا ونقمة عليه؟ إذن؛ ما الذي يمكننا الاعتماد عليه حتى نطمئن؟ تأملوا قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: 62]. في هذه الآية الكريمة معنى التكليف بعقيدة (القدر) في الإسلام؛ أي الإيمان

والعمل، فالعمل يحتاج إلى جهد وحيوية ونشاط مستمر. حقًا؛ إن حالة الجهاد هي حالة راقية وعظيمة، ويمكن لأي إنسان أن يقوم بذلك بسهولة.

الآن، يبدو أن أثر حضارة مختلفة قد أحدث إرباكًا لأفكار غالبية المسلمين، وكثير منهم يميل إلى الابتعاد عنها، والسعي إلى أن ينفصلوا بأنفسهم لخلق شعب منفصل بهم؛ لأنهم لا يرون أية عقوبة دينية لما ينتهجه معظم الناس اليوم. لقد أصبحت التجارة عملًا شريرًا وكاذبًا، والقانون مُحتالًا، ويُستخدم العلم لأغراض هدَّامة وأنانية. باختصار، أخبرنا القرءان عن أولئك، فقال:

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۝٦ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ۝٧﴾ [العلق: 6، 7].

لكن، هذا ليس سببًا لانسحاب المسلمين من الحياة وتراجعهم، بل العكس؛ لأن إعادة الناس إلى معرفة سيادة الله [100] هو السبب الحقيقي وراء ظهور الإسلام وانتشاره.

---

(100) سيادة الله: مصطلح مُتفق على معناه ودلالته في اليهودية والمسيحية والإسلام، مع الأخذ في الاعتبار أن التفاصيل قد تختلف من منظور كل دين. ففي اليهودية: (9اُذْكُرُوا الأَوَّلِيَّاتِ مُنْذُ الْقَدِيمِ، لأَنِّي أَنَا اللهُ وَلَيْسَ آخَرُ. الإِلهُ وَلَيْسَ مِثْلِي. 10مُخْبِرٌ مُنْذُ الْبَدْءِ بِالأَخِيرِ، وَمُنْذُ الْقَدِيمِ بِمَا لَمْ يُفْعَلْ، قَائِلًا: رَأْيِي يَقُومُ وَأَفْعَلُ كُلَّ مَسَرَّتِي. 11دَاعٍ مِنَ الْمَشْرِقِ الْكَاسِرَ، مِنْ أَرْضٍ بَعِيدَةٍ رَجُلَ مَشُورَتِي. قَدْ تَكَلَّمْتُ فَأُجْرِيهِ. قَضَيْتُ فَأَفْعَلُهُ).

المصدر: العهد القديم، **سِفر إشعياء**، الإصحاح 46، فقرات من 9 إلى 11.

وفي المسيحية: (1فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ. 2هذَا كَانَ فِي الْبَدْءِ عِنْدَ اللهِ. 3كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كَانَ، وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ. 4فِيهِ كَانَتِ الْحَيَاةُ، وَالْحَيَاةُ كَانَتْ نُورَ النَّاسِ. 5وَالنُّورُ يُضِيءُ فِي الظُّلْمَةِ، وَالظُّلْمَةُ لَمْ تُدْرِكْهُ).

المصدر: العهد الجديد، **إنجيل يوحنَّا**، الإصحاح 1، فقرات من 1 إلى 5.

وفي الإسلام: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾ [البقرة: 255].

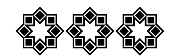
إنها مسألة بسيطة تتعلق بمواءمة فكرة الجهاد – بمفهومه العام الشامل – وتطبيقه في ظل الحياة الحديثة، ولا يمكن القيام بذلك إلا من خلال إحياء المؤسسات الإسلامية في شكل حديث مواكب لمتطلبات العصر. فإذا كان المجتمع المعاصر قائمًا على الربا، فلنترك للمسلمين المساحة الكاملة التي من خلالها يُخْرِجون لنا أنموذجًا جديدًا لمجتمع حديث لا يقوم على الربا، وإذا كان القانون مجرد قانون خدَّاع لا يثق فيه المسلمون، فلندع المسلمين يعيدوا تطبيق الشريعة الغرَّاء. وإذا نظر المسلمون إلى النظام المصرفي الحالي نظرة ربوية، فعليهم البدء الفوري في تأسيس نظام مصرفي إسلامي يقوم على المصلحة بين المسلمين، مراعين فيه مفهوم (الأخوة)، وأن يعيدوا نظام بيت مال المسلمين كذا. فإذا ما نُظِرَتْ الأساليبُ الماليةُ الحاليةُ إلى المسلمين نظرةً بغيضةً منبوذةً، فدعهم يؤسسون تجارتهم على أسس تعاونية مشتركة. وإذا تحقق لديهم أن المنظومة الصناعية منظومة متعسف وجائر، فليبدؤوا بتأسيس منظومة موافقة للشريعة الإسلامية. إن هذا يُنذِر بمعترك شديد الخطورة على المسلمين إذا ما أرادوا الاندماج في الحضارة الجديدة؛ لأن ذلك يعني قبولهم لما يعتبرونه شرًا مقيتًا، وتبعًا لذلك، لا يمكنهم أن يصبحوا قوة للخير في هذا العالم مرة أخرى. كما أنه يُنذِر بنفس مقدار الخطورة إذا ما قرروا الابتعاد عن هذا العالم وما يحتويه من علوم ومعارف كثيرة. لذا؛ لا يمكن للمسلمين أن يعيشوا زمنهم الحالي بأساليب زمن قديم وأدواته، فإذا فعلوا، فإنهم سيخسرون لا محالة. أضف إلى ذلك؛ إذا ما تقبَّلوا كل جديد في هذا العالم دون التحفُّظ على ما لا يوافق الشريعة في حضارة غير مسلمة، فإنهم سيخسرون لا محالة. إن هذا يعني أن الجهاد الأكبر للمسلمين اليوم هو الحصول على تعليم متطور حتى يتسنَّى لهم التمييز بين ما هو مناسب لهم، وما

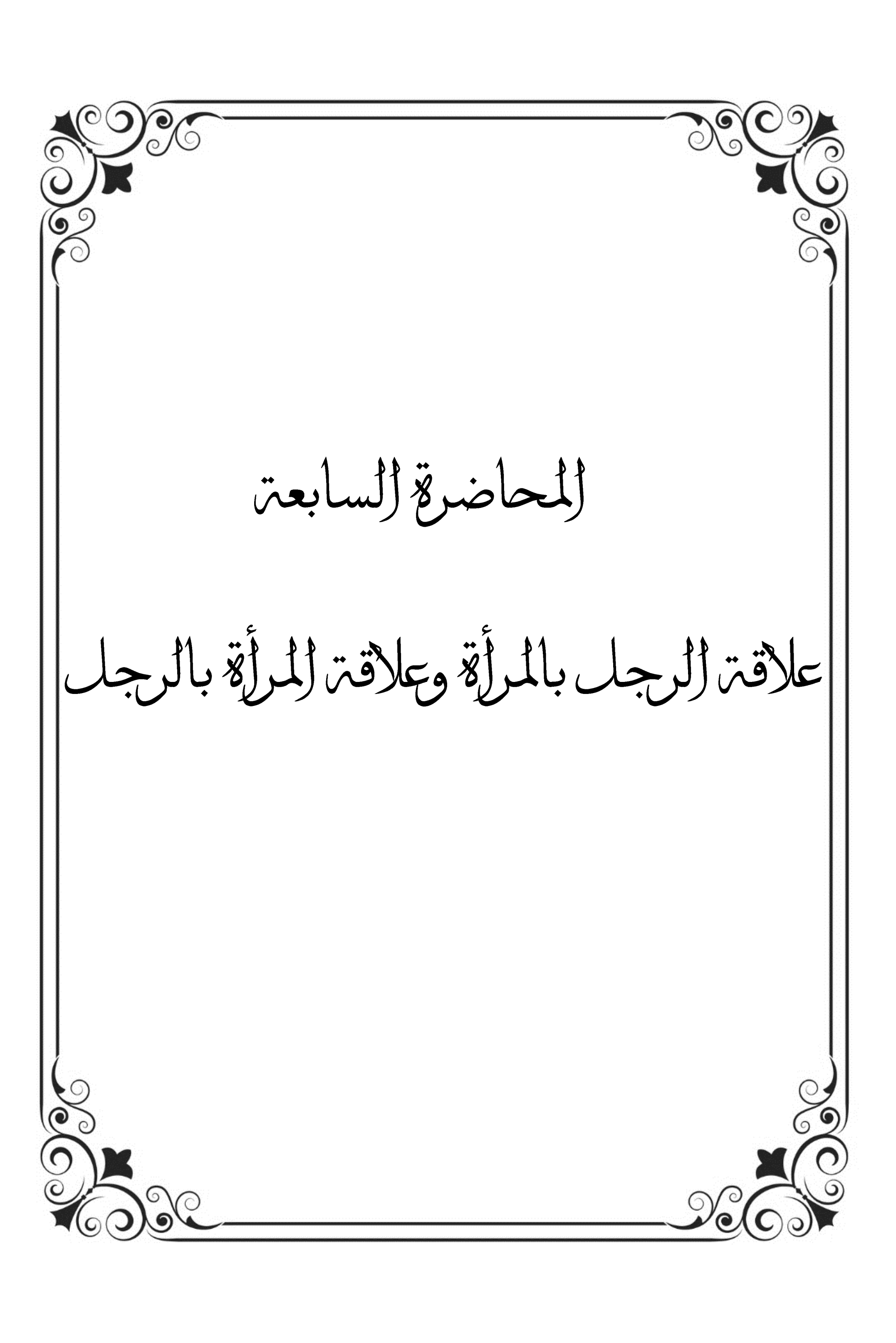
هو غير مناسب وفق الشريعة الإسلامية. وفيما يتعلق بما هو غير مناسب للمسلمين، عليهم أن يبتكروا أو يفكروا في البديل.

إن المسلمين وحدهم قادرون على إنقاذ العالم في حالة اتجاه مَن يحكم إلى طريق الشيطان، لأنهم وحدهم يمتلكون المعيار الذي يجب أن تُحكَم عليه الحضارة والثقافة، وهم قادرون على إنتاج منظومة حضارية بديلة كاملة، حيث أن العقوبة الإلهية لا تنفك من تلك المنظومة المتكاملة؛ حيث الثواب والعقاب، وتلك المنظومة قادرة على التأقلم في أي زمان ومكان. وعليه، فإنه من المتوقع منطقيًا أن تعملَ هذه المنظومة بنجاح حقيقي في المستقبل، وهذا ما لا يمكن توقعه عن كافة أنظمة الثوار الغربيين، والتي حتى الآن، تفشل فشلًا ذريعًا في إسعاد البشرية، إذا ما وُضِعَتْ في حيز التنفيذ. علينا أن نضع نصب أعيننا دائمًا أن السعي وراء نجاح أُمَّتنا الإسلامية وانتصارها وتفوقها على الأمم الأخرى، سواء كان سعيًا صحيحًا أم خطأً، ليس من باب الجهاد في شيء، وإنما الجهاد هو أن يكون على حق فقط في مواجهة الباطل، وللخير في مواجهة الشر أينما وُجِدَ. فإذا كنت تعتقد أن الجهاد بمثل هذه الصورة، وأن الجهاد فريضة غائبة عن الأمة الإسلامية، فأنت مخطئ تمامًا. اقرأ عن تعاملات الخلفاء الأمويين والعباسيين مع الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وتعامل الإمبراطورية الأموية الإسبانية مع الممالك المسيحية الغربية، وسوف ترى أن الأنموذج الذي كانوا يحتذون به هو الجهاد من أجل الحق في مواجهة الباطل. ثم اقرأ رسالة السلطان سليمان العظيم إلى الملك فرنسيس – ملك فرنسا – عندما كان سجينًا، وسُلِبَتْ ثروته كاملة ظلمًا، سترى هذ المبدأ المنصوص عليه بحذافيره. فليس

غايتنا أن نقيم إمبراطورية لأُمَّتنا الإسلامية، بل غايتنا أن نقيم ملكوت الله على الأرض، وذلك لأن الشريعة الغرَّاء تحتوي على قوانين مناسبة للجميع، والجميع يراها مناسبة لهم، ولو لم يعتنقوا الإسلام، وهو هدف إنساني شامل للكون بأسره. فبدون هذا الهدف السامي، لن يكون هناك جهاد.

إن التكليف بعقيدة (القدر)، التي يُتحدَّث عنها كثيرًا وعن المسلمين، ما هي إلا إقرار لا مناص منه. ففي الوقت الراهن، يجب أن يقبلوا الظروف القائمة باعتبارها إرادة الله، وجهادهم الديني يجب أن يكون كما كان من قبل؛ أي في المقام الأول: السعي وراء الخير لمواجهة نقيضه لاستعادة بناء أُخُوَّة المسلمين على أسس معاصرة، ثم في المقام الثاني – بالتتابع – السعي وراء دعوة العالم إلى أن يُدركوا حقيقة سيادة الله الكونية.





# المحاضرة السابعة

# علاقة الرجل بالمرأة وعلاقة المرأة بالرجل

أتحدثُ إليكم اليوم حول موضوع حساس، ألا وهو الوضع الإسلامي للمرأة، فهو بالنسبة لي موضوع مرير وخطير؛ لأنني أتذكرُ، في كل جولاتي ببلاد المسلمين، حال المرأة الذي يعتبر حالًا مُزريًا؛ أي أنه بلا شك ليس في وضعه الإسلامي الصحيح، وأغلب الرجال لا يلقون بالًا بالأخطاء التي يرتكبونها في حق المرأة المسلمة. إن تقليص وضع النساء المسلمات في الهند واختزاله اليوم هو قدح في الإسلام وإفك عظيم، وهو جريمة سيجعل المجتمع المسلم بأكمله يعاني بسبب التدهور الاجتماعي المتزايد – سواء في الذرية الضعيفة والمريضة وزيادة وفيات المواليد – طالما أن هذه الجريمة مستمرة. أدركُ أن هذه الجريمة ناجمة عن جهل الأغلبية، وذلك الجهل نتج عن التمسك بعادات وتقاليد مخالفة لأحكام الشريعة الإسلامية، وهو نوع من الكبرياء الزائف. لكن الجهل بأحكام الشريعة ليس عذرًا لأي شخص للهروب من عقوباته – على الأقل في حال تنفيذ أحكام الشريعة – يمكن درء ذلك الجهل بأن يُعفى الإنسان من التعرض للنتائج الطبيعية للانتهاكات التي ارتكبها الرجل. إن أحكام الشريعة الإسلامية منسجمة تمام الانسجام مع الناموس الطبيعي للإنسانية، ونتائج انتهاكها يمثل – بالتبعية – خرقًا للناموس الطبيعي لدى كافة الناس من المسلمين وغير المسلمين. وعذر الجهل في حق المسلمين أقبح من الذنب؛ لأنهم من بين البشر يجب أن يحملوا عِلمًا ومعرفةً تؤهلهم إلى نقلها ونشرها للبشرية جمعاء.

ألتمسُ منكم ألَّا تحكموا على حديثي، حول الوضع السيئ المتعلق بالنسوية المسلمة في الهند، بأنني أُصْدِر حُكمي بأي معيار أجنبي، أو أرغب في النُّصح بأساليب

أجنبية، وإنما أحكمُ على ما أراه من منظور شرعي، وأرغب تمامًا في النُّصح بأسلوب مستمد من الشريعة الغرَّاء. إن حُكمي على وضع المرأة في الغرب هو نفسه الذي أحكم به على وضع المرأة في الشرق من خلال أحكام الشريعة وحسب؛ لأنني أسيرُ على منهج علماء المسلمين المستنيرين، وأفهم ذلك جيدًا.

قال الله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 143].

إن سيدنا رسول الله ﷺ يشهد عليكم اليوم – في هذا الشأن – حول وضع المرأة وحقوقها. تذكروا قوله ﷺ: (طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ) [101].

أعلمُ أن مجموعةً منكم ممن لديهم نفوذ قد حسم أمر (العلم) بأنه يجب أن يُحمَل على المعنى (اللاهوتي)؛ أي منحصر فقط في معرفة العلوم الدينية، وذلك على خلاف الإسلام، حيث لم يميز الرسول الكريم ﷺ والقرءان الكريم بين العلوم الدينية والعلوم الدنيوية. فالمسلم الحقيقي هو الذي يفهم أن الحياة كلها في نظره دينية، والعلوم كلها تندرج تحت مظلة العلوم الدينية. فشريعة الإسلام تصرح بأن المسلم الأكثر خبرة ومعرفة في الحياة هو الشخص المؤهل لشرح حقائق الدين، ولديه إمكانية حل المشكلات التي تنشأ بين المسلمين فيما يتعلق بتطبيقهم لشريعته. وأرفضُ أن للرجل حق المعرفة، المقصورة عليه وحده، ويرى أن تفسيره للقرءان الكريم تفسير حصري لا مثيل له، فيما

---

([101]) أشرتُ إليه في المحاضرة الأولى: الثقافة الإسلامية.

أراه صحيحًا، من وجهة نظري، وأرفضُ ما توصل إليه من تفسير – بطبيعة الحال – لأنني أرفضُ مبدأه المنطقي الذي بنى عليه تفسيره كذا. وأقول إن ادعاءه بـ (التفسير الحصري) يرقى إلى التدخل الكهنوتي بين المسلمين، وهو ما استنكره القرءان مِرارًا وتَكرارًا، واستنكره الرسول محمد ﷺ، لأن هذا الأمر قد حذر الله الأمم السابقة من الوقوع فيه، وهو سبب انحراف أتباع الديانات الأخرى قبل الإسلام. لكنني على استعداد لقبول قيودهم في الوقت الحاضر – مؤقتًا – على سبيل الفرضية الجدلية. فلنتفق جدلًا أن (العلم) – كما يعتقده هؤلاء الناس – هو ما يكتسبونه هم فقط، لذلك أسأل: هل تُشَجَّع المرأة المسلمة في الهند أو حتى يُسْمَحُ لها بطلب العلم مثل الرجال؟ هل كل امرأة مسلمة في الهند لها حق التعليم؟ هل لدى كل مسلمة في الهند معرفة بفاتحة الكتاب أو حتى كلمة منها؟ هل يمكن للمسلمة الهندية أن تصلي صلاتها الصحيحة دون معرفة آيات القرءان؟ كم عدد المسلمين في الهند الذين يعرفون آيات القرءان الكريم والأحاديث النبوية الشريفة التي تتحدث عن التطور التدريجي لوضع المرأة الحقيقي في ثنايا المفهوم العام لكلمة (الإخاء) في الإسلام؟ فأقول لكم: دعوهن يبدأن سبيل التعليم كما بدأ به الرجال! لا أريد أكثر من ذلك في البداية؛ لأن ما انتهى إليه الرجال سينتهي إليه النساء المسلمات في الهند تِباعًا.

انظروا إلى ما قاله سيدنا رسول الله ﷺ: (إِنَّمَا النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ) [102].

---

[102] سنن أبي داود – كتاب الطهارة – باب في الرجل يجد بلَّة في منامه – رقم 236، والحديث من طريق السيدة عائشة بنت أبي بكر أم المؤمنين رضي الله عنها.

إن هذا الحديث الشريف يؤكد على الحفاظ على حقوق المرأة. دعوني أسألكم: هل لدى النساء المسلمات في الهند معرفة بحقوقهن؟ إن الإسلام يساوي بين الرجل والمرأة في الحقوق، فللمرأة حق في ممتلكاتها الخاصة، ولها حق في المطالبة بالطلاق من زوجها في ظل ظروف معينة. كم امرأة مسلمة هندية تعرف ذلك اليوم؟ ومَن يرى من الرجال أن حقوق المرأة أمانة عندهم كما جاء في الشريعة الإسلامية؟ في الهند – اليوم – لا يوجد مَن يحمي حقوق المرأة أو مَن يدافع عنها! أين تلك المرأة التي تتولى منصب القضاء، كما قال به الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان ﵁، لكي تقوم بمهامها في القضايا التي تخص حقوق المرأة [103]؟ أين ذلك القاضي الذي كان له الحق في الدفاع عن حقوق المرأة؟ لقد كان القاضي هو المسئول الأول عن حقوقهن، لكن، وأسفاه، أصبح وضعه في الهند يثير الشفقة، فصار في وضع يماثل الوضع السيئ للمرأة الهندية، ولا يُرى سببٌ وجيهٌ لذلك.

إن للمرأة حقوقًا مثل حقوق الرجل تمامًا، وقد أعلنها القرءان الكريم صراحةً أن المرأة والرجل أمام الله على قدم المساواة. يقول الله ﷻ: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران: 195].

---

(103) دار الإفتاء المصرية، (عمل المرأة كوكيل للنيابة وتوليها القضاء):
https://www.dar-alifta.org/ar/ViewFatwa.aspx?ID=11962&LangID=1&MuftiType=0

كان عرف المشركين قديمًا ينظرون إلى المرأة نظرة احتقار كما لو كانت من عرق آخر غير عرقهم. أما القرءان فقد كان يُذكرهم دائمًا أنهم جميعًا من عرق واحد.

فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء: 1].

فلا يوجد نص في القرءان ولا في سُّنة نبينا ﷺ يُبرر حرمان المرأة من حقوقها الطبيعية التي بسطها الله ومنحها للبشرية جمعاء، كأشعة الشمس والهواء النقي – أو حياتها – بل تُسجن لمدة طويلة، ذلك السجن الذي يتسبب في وفاة آلاف النساء بسبب فقر الدم كل عام، وعدد الأطفال كذا. الله أعلم كم العدد! فالاحتشام والحياء منصوص عليهما في القرءان الكريم ودائرة العلاقات الحميمة للمرأة مذكورة فيه كذا، فالتراث الإسلامي الصحيح، والعُرف العربي الأصيل، يأمران بحجب شعر المرأة ورقبتها، وألَّا تمشي مشية تُلفت الانتباه – هذا كل شيء. لم يكن إسدال الحجاب على وجه المرأة – في الأصل – سُّنة إسلامية، بل كان سائد في كثير من مدن الشرق قبل ظهور الإسلام، ولكن ليس في مدن شبه الجزيرة العربية. وكما موجود هنا في الهند ما يُسمَّى بلباس البُردة، حيث لم يكن ذلك لدى المسلمين في القرون الأولى، ولم يعتمدوا تغطية وجه المرأة. وعلى الجانب الآخر؛ اعتمد الذين يتبنون الرأي القائل بغطاء وجه المرأة، علاوة على بعض من أنماط الزِيّ لنسائهم، عندما أتوا إلى مدن سوريا وبلاد ما بين النهرين وبلاد فارس ومصر، كان نوع من الحماية لنسائهم من سوء فَهم من جانب تلك الشعوب السالف ذكرها التي تربط

المرأة الكاشفة لوجهها بمفهوم الشخصية المتحررة. فيما بعد؛ اتُّخِذَ ذلك الزِيّ في مدن شبه الجزيرة العربية كعلامة على (التمدن)، وكلمة التمدن تُرْجِمَتْ عامةً إلى (حضارة Civilisation)، لكنها لا تزال في اللغة العربية تحتفظ بأصالتها وجزالتها، والتي تعني (مدينة/ قاطنو المدينة Townsman ship) في الإنجليزية. لم يكن من عادة المسلمات تغطية الوجه حتى على المستوى العالمي، حيث لم يستخدمه، أيُّ غطاء الوجه، الغالبية العظمى من النساء؛ لأن أغلبهن كُنَّ من القرويات يعملن في الحقول مع أزواجهن وإخوانهن. وبالتالي، فإن غطاء الوجه بالنسبة لهن أمر عبثي وعبء عليهن. وفي المقابل؛ فإن غطاء الرأس هو الذي كان متعارف عليه على المستوى العالمي.

وكلما ذهبت المرأة المسلمة القروية المصرية، أو السورية، أو التركية، أو العربية إلى مدينة ما، تقوم بتغطية وجهها فقط، وإذا عادت إلى منزلها الريفي، تكشف عن وجهها. ويمكن أن أدَّعي أنه لا يوجد في أي بلد آخر أعرفُه، بخلاف الهند، تُطَبَّقُ هذه العادات التي اعتاد عليها قاطنو المدن الغنية، وسبب ذلك أن قاطني المدن كانوا يرغبون في الحفاظ على نسائهم وتمييزهن عن بقية النساء في فترة معينة. وهذا يعني أن هذه العادات اختُصَّ بها مَن لديه قصور واسعة، وتُطَبَّقُ على النساء المسلمات الفقراء الذين ليس لديهم سوى عدد من الحُجرات الضيقة جدًا أيضًا، ذلك الأمر الذي يوجد في الهند فقط دون غيره من بلاد المسلمين. وفي هذا الصدد؛ يخبرنا المؤرخ عمارة بن أبي الحسن اليمني أنه في القرن الخامس الهجري لم يكن أكابر العرب اليمنيون وأعيانهم يحرصون على مثل هذه العادات، حيث رأوا أن عدم تغطية أوجه زوجاتهم يدل على الفخر والاعتزاز والتبجيل؛ لقد وضعوا أنفسهم في مرتبة أعلى من عوام الناس وأقوى من أن يجرؤ عامة الناس على النظر

إلى نسائهم بعين التشهي والطمع. وكانت الأسرة الحاكمة الوحيدة التي حكمت مدينة زبيد اليمنية، ومثَّلتْ خلافة بني العباس في اليمن، هي التي التزمت بنظام الحرام Haram تمام الالتزام، والذي كان محاكاة للبلاط الفارسي في بغداد.

وبالتالي؛ فإن زِيّ البُردة ليس إسلامي، ولا من أصل عربي، بل من أصل فارسي زرادشتي ومسيحي بيزنطي. فلا علاقة لهذا الزِيّ بالإسلام، وعلى هذا الأساس، لم يعتمده الغالبية العظمى من المُسْلِمَاتِ باعتباره زِيًّا لهن. فلا يمكن للمسلمين والمسلمات ألَّا يُطبقوا شيئًا فرضه الله عليهم؛ وهذا دليل على أن نساء المجتمع الراقي جدًا هن اللاتي قمن باستعمال هذا الزِيّ داخل قصورهن، ولم يكن سببًا في الضرر بهن ومشقةً عليهن لأنهن كُنَّ يَقُمْن بأعمالهن في قصورهن بحرية تامة. وعلى الجانب الآخر؛ فإنه كان سببًا في الضرر على نساء الفقراء وإحداث مشقة عليهن، إذا قُمْنَّ بأعمالهن اليومية. وعليه، كانت الشريعة الإسلامية واضحة في عدم إلزام المسلمات بشيء هو في حد ذاته مفيد لفئة من النساء ومُضر لفئة منهن، فكانت الشريعة واضحة في العدل بين جميع فئات النساء المسلمات. وما عليه نساء الهند المسلمات يُعَدُّ ضررًا لفئة منهن ويُحْدِثُ مشقة عليهن في حياتهن اليومية، وهو بالفعل ما لم تقل به الشريعة الغرَّاء قط.

إذن؛ فبمقارنة الحالة العامة للنساء المسلمات في تركيا، وسوريا، ومصر، والجزيرة العربية، والحالة العامة لهن في الهند، نجد أنهن في الأول في حِلٍّ من زِيّ البُردة، وفي الأخير فإنهن متقيدات به بما يضرهن ضررًا بليغًا. وبالمثال يتضح المقال: كانت السيدات في أي بلد من الطبقة الوسطى – اللاتي يرتدين الحجاب – يتمتعن بالحرية في الذهاب والإياب

والتسوق وزيارة أقرانهن. كان النساء في عالمهن أحرارًا وهن يرتدين حجابهن، مثل عالم الرجال، وكُنَّ يمشين في الشوارع والطرقات كما يحلو لهُنَّ في أمن وأمان تامين؛ كان يؤول ذلك إلى حالة الاستنفار التي تعتري المسلمين إذا تعرضتْ أي امرأة مسلمة بسوء. فكانت درجة الحرية التي تمتعنَّ بها في شتى البلاد ترتكز على الطبائع العرقية والتقاليد المحلية بدلًا من الشريعة الإسلامية. فقد كانت المرأة تتمتع بحقوق محددة فقط في نطاق تلك الطبائع العرقية والتقاليد المحلية، ولم يكن في حناياهما العدالة والرفق بهن وتقديس حقوقهن. وعلى سبيل المثال؛ كان هناك فرق بين العرب والأتراك، في هذا الشأن، حيث كان يتبنَّى الأتراك مزيدًا من العادات والتقاليد البيزنطية. وعلى كلٍ؛ فكل ما قلتُه ينطبق على كليهما، فلم تكن النساء المسلمات لتتحمل الظروف التي تعيش فيها غالبية الهنديات المسلمات اليوم، كما أن أزواجهن لم يكن ليتحملنَّ سوء وضع نسائهم.

ولكن حتى وضع المرأة التركية في الأيام الخوالي كان قاسيًا بالنسبة لزمننا المعاصر، وسبب ذلك مثير للفضول، وهو ما يدفعني الآن لأتحدث عنه. عندما جاء الأتراك لأول مرة إلى الأناضول وروملي [104] كانت بشرتهم شاحبة من آسيا الوسطى، وعيونهم مَشْدوهة، ولِحى رجالهم سوداء رقيقة، كما يظهر ذلك في صور السلاطين الأوائل وجنرالاتهم، وهؤلاء ما زالوا موجودين إلى الآن بين الفلاحين في مدينة أضنة التركية، وليس في أي مكان آخر. مرت سنوات عديدة من زواج كثير من الأتراك من الشراكسة ذوي البشرة الشقراء، والجورجيين (الكرج) والسوريين والبلغاريين والصربيين

---

([104]) اسم أطلقه التُرك على أراضي الدولة العثمانية الواقعة في أوروبا، وتشمل: اليونان، ومقدونيا، وألبانيا، وكوسوفو، وصربيا، والجبل الأسود، وبلغاريا، والبوسنة.

والألبان وغيرهم من آسيا وأوروبا، فصار الأتراكُ من ذوي البشرة الشقراء مثل الشعب الإنجليزي. إن التغيير في وضع المرأة التركية سجَّلَ زيادة في معدل وفياتهن، لا سيما من خلال زيادة أعداد ضحايا إنهاك المرأة التركية والضرر اللاحق بهن بسبب تلك العادات والتقاليد المُستوردة. ما دامت المرأة التركية من ذوات البشرة الداكنة أو السمراء ومنطوية على نفسها، كانت حياتها هادئة ولم تؤذها خَانُم أفندي وفقًا للعُرف التركي، وإذا كانت من ذوات البشرة الشقراء، كانت تعاني كذلك، لكنها معاناة أقل بكثير من معاناة الهنديات المسلمات، ورغم ذلك كله، إنهن ما زِلْنَّ يعانين بشيء من تقييد حريتهن في الزمن الغابر. لاحقًا؛ اكتشف الأطباء الأتراك أن الشقراوات أضعف جينيًا من السمراوات؛ لأن الشقراوات في حاجة دائمة إلى استنشاق الهواء النقي وممارسة الرياضة البدنية. وعندما ظهر هذا الأمر وذاع صيته بين الناس، أصبح حُكَّام تركيا من دعاة التحرر الأنثوي، وألغوا الحجاب وغيره من التقاليد البيزنطية التي كانوا يتشبهون بها قياسًا على منطق الأتراك.

إن المرأة التركية الآن تستطيع أن تتجول في المدينة مرتدية ملابسها مثل التي ترتديها في الريف، وهو رداء الباش أورتو Bash urtu (حجاب الرأس)، الذي يغطيه حجاب آخر طويل أكثر مرونة، وعباءة طويلة فضفاضة تغطي جسدها من الرأس إلى القدم – أي جلباب أكثر احتشامًا، لكنه من الناحية الصحية فهو أكثر صحةً من ملاءة الشَرْشَف والنقاب. يُشَجِّعُ ذلك الجلباب النساءَ على ممارسة الرياضة، وممارسة ما يحلو لهنَّ في الهواء الطلق. إن المرأة لها حق في التعليم مثل الرجل تمامًا، لكنهن كُنَّ بمعزلٍ عن

الرجال؛ أي في الصفوف الدراسية، حتى تحافظ على حيائها إذا صدر شيء منها يثير فضول الرجال. لم يكن ما فعله الحُكَّام الأتراك – من التغييرات – ثورة بالنسبة للسيدات التركيات؛ لأنهن كُنَّ دائمًا من بسطاء الريف التركي، والريفيون المسلمون الأتراك طيبون حقًا. والقرى الريفية في الأناضول أكثر الأماكن التي يُلاحظ فيها الالتزام بأحكام الحِشمة الإسلامية، وكذلك يُلاحظ في القرى المصرية، والقرى السورية، والقرى الشركسية، والقرى العربية أن المرأة المسلمة تتمتع بكامل حقوقها، والتي من شأنها أذهلتْ المولوي الهندي.

ومن سوء حظ المسلمين الهنود أنه ليس لديهم قرويين؛ لأنهم أتوا إلى هذه الأرض غُزاة، ولديهم طموحات وأفكار كالنبلاء والحُكَّام في أفغانستان وتركستان وبلاد فارس وقتئذٍ، بحيث يعتقد كل مسلم هندي – الآن – أنه من الضروري أن يُعامِل زوجه – التي تقطن في كوخ ضيق – كما يعامِل الخان نساء أسرته، أو كما يعامِل الإمبراطور المغولي نساء قصره في الزنانة Zenana (الشقق الداخلية لمنزل تعيش فيه نساء العائلة) في مدينة أغرا الهندية. إن الافتقار إلى وجود فلاحين من أهل القرى، جعلهم يخلطون بين زِيّ البردة الخاص بسكان المدينة الأثرياء في الماضي وبما هو منصوص عليه في الشريعة الإسلامية.

إن أحكام الإسلام – فيما يتعلق بشأن المرأة ومكانتها – تستهدف مصلحتها وصحتها وسعادتها وتحسين وضعها المادي والاجتماعي. وهذه الأحكام ليستْ ثابت، بل ديناميكية تتغير أحيانًا بتغير الظروف والبيئة التي نشأتْ فيها المرأة. وزِيّ البردة ليس جزءٌ من الشريعة الإسلامية، وإنما هو عادةٌ دخيلةٌ على الإسلام بسبب التأثيرات الفارسية والبيزنطية.

لا أطلبُ ولا أهدفُ إلى أي تغيير مفاجئ من أجل تربية النساء وتوجيهها إلى الالتزام بأوامر نبينا ﷺ. وسنرى – فيما بعد – اختفاء زِيّ البردة بتدرج طبيعي؛ لأنه لا علاقة له بآداب الإسلام وحياء المرأة المُسلمة. سيحدث ذلك إذا كان التعليم في الهند للجميع؛ أي للرجال وللنساء.

فكل ما جاءتْ به الشريعة هو خير للمرأة، فهي أمرتْ بتعليمهن وتدريبهن على كل ما هو جديد، لكنها لم تأتْ بذلك كي يختلطنَّ مع الرجال. قال الدكتور هاري كامبل مؤخرًا: (*يمتلكُ النساءُ رئتان أصغر وخلايا دم أقل من الرجال. ومن الواضح أنهن لا يتكيَّفن مثل الرجال في حياة تحتاج إلى جَهد وجُهد عضلي ذكوري. كما أنهن يختلفن مع الرجال في مراكز الحِس الدماغية، لكن هذا لا يعني أنهن يختلفن مع الرجال من الناحية الفكرية؛ بل إنهن على قدم المساواة من هذه الناحية*). لذلك؛ هناك مساواة روحية وفكرية بين الجنسين، والاختلاف فقط هو اختلاف جسدي – كما أقرتْ بذلك الشريعة الإسلامية. ولا يوجد شيء في الشريعة الإسلامية يعطينا الحق في ربط الأفكار الخاطئة المتعلقة بالمرأة في الإسلام وتلك التي ما زالتْ سائدة في العالم المسيحي. إن الانحراف عن مبادئ الإسلام الحقيقة هو الذي دفع غير المسلمين أن يُعلنوا أن المسلمين يعاملون نساءهم مثل معاملة الماشية، وظنوا أن المسلمين يعتقدون أن المرأة ليس لها روح!

صحيحٌ أن النظرة الغربية للمرأة، ومشكلة الجنسين تختلف اختلافًا جذريًا عن نظرة المسلمين في بعض الأمور، لكن ليست بالطرق التي يتصورها الأوروبيون عادةً أنها تختلف، ولا في الطريقة التي يتصرف بها كثير من الناس. إن آفة المسلمين هي الجهل،

ومن عدم تعلُّمنا أحكام الشريعة، وتشبثنا بكثير من العادات غير الإسلامية، انحرفنا عن الجادة، فأخذ الغربيون عنّا أفكارًا تصوروها أنها من أوامر الشريعة لنا. فالزواج – على سبيل المثال – ليس سر ينطوي تحته استعباد المرأة، لكنه عقد مدني بين اثنين لهما نفس الحقوق والواجبات، ويمكن إنهاء هذا العقد بإرادة أيٌّ من الطرفين. أما في الهند، اليوم، يبدو أن العديد من المسلمين توارثوا أو تبنوا أفكارًا هندوسية تتعلق بشأن المرأة ووضعها في الزواج، والزواج بأرملة، والزواج بجزء من الميراث – أي يعتبرون المرأة جزء من الميراث! وأودُّ أن أؤكد على أن أحكام الشريعة الإسلامية هي ديناميكية وليستْ ثابتة؛ حيثما تكون المصلحة فثَمَّ شرع الله. إن الإسلام دين التقدم الإنساني، ولا يهدف أبدًا إلى الركود والخمول أو التراجع أو الاضطهاد أو استعباد العقل والجسد، لكنه دائمًا يحث على التحرر وبذل الجهد من أجل الإنسانية.





# المحاضرة الثامنة

# المدينة في الإســــلام

لقد تحدثتُ إليكم حتى هذه اللحظة بشكل رئيسٍ عن الماضي، وأودُّ الآن في هذه المحاضرة الختامية أن أركزَ انتباهكم على الحاضر. قد أوضحتُ أن المبدأ الحقيقي للإسلام في كل مجالات العمل البشري ليس أقل من اليوم؛ أي أن مبدأ الأمس هو مبدأ اليوم، وأن المسلمين هم الْمُقَصِّرون في الالتزام بهذا المبدأ. كما شرحتُ أسباب سقوط الإمبراطورية الإسلامية وعوامل تدهور حضارتها، كما أفهمُها، وأخبرتُكم كيف أن ذلك السقوط والتدهور كانا بعيدين عن زعزعة إيمان المسلمين بالشريعة الإسلامية. فالمسلمون يعلمون أنهم قد أهملوا جانبًا من الشريعة الإسلامية، وهو ما أدى إلى ما هم عليه الآن.

فأهملوا الاهتمام بما جاء في السُّنة النبوية والآثار الواردة:

(طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ)، (اِطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ فِي الْصِّينِ)، (تَفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ ستِّينَ سنةٍ)، (اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ) [105].

فكثير من هذه القوانين الإسلامية واضحة ومنطقية، كما أن المسلمين اليوم يرون أن النجاح المادي للدول الغربية يرجع إلى اعتناقهم لهذا الجزء وهذه الشريعة الغرَّاء، التي أهملها المسلمون بنوع من أنواع الرعونة والحُمْق، والتي تحمي التقدم المادي والازدهار. إن هذه النماذج الرفيعة والمُسَلَّمات كانت الأكثر مقتًا لدى العالَم المسيحي – أعني عندما

(105) سنن الترمذي من حديث أنس، قال يحيى القطان: (منكر). ورواه ابن خزيمة في التوكل، والطبراني من حديث عمرو بن أمية الضمري بإسناد جيد "قيدها".

المصدر: الغزَّالي؛ أبو حامد محمد بن محمد، **إحياء علوم الدين**، الجزء الرابع، صفحة 323، كتاب التوحيد والتوكل – الكتاب الخامس من ربع المنجيات.

كانت الكنيسة المسيحية تفرض سُلطتها ووصاياها على الشعوب الأوروبية – لكنها كانت موجودة في الإسلام منذ البداية، وقد جسدتها الشريعة الغرَّاء، وتدريجيًا يمكن لشعوب الغرب أن يتقبلونها واحدة تلو الأخرى. ويمكنني أن أقول إن حرية الفكر وحرية البحث والسؤال، والتسامح الديني، والمبدأ القائل بأن العمل والسلوك هو المعيار الرئيس في العلاقات الاجتماعية، وليس العقيدة، وحق المرأة في المساواة مع الرجل أمام الشريعة الإسلامية، وحقها في استقلال ذمتها المالية، وجواز الطلاق والزواج من آخر، والنظافة الشخصية، وتحريم المشروبات الكحولية، ... كل هذا من قوانين الشريعة الغرَّاء، والتي كانت بالنسبة لأوروبا المسيحية أشياء بغيضة ملعونٌ مَن يرتكبها أو يخالفها. وما زالت تصف الكنيسة بأن مَن يرتكبها لاديني أو دنيوي علماني بحت؛ أي خارج نطاق الدين تمامًا. وبكل سهولة؛ يمكن للكُتَّاب المسيحيين أن يستدلوا بكل بساطة أن كل هذه المفاهيم المعاصرة جميعها مستمد من المسلمين الأوائل. لكن الأوروبيون استمدوها من المسلمين الأوائل مُعْتَمِدِين على الدليل العقلي وحده دون الدليل الشرعي؛ أي أن المسلمين قديمًا استمدوا هذه المفاهيم والأوامر والنواهي من الشريعة، أما الأوروبيون فقد استمدوها من المسلمين باعتبارها مفاهيم وأوامر ونواهٍ منطقية وعقلية موافقة للفطرة الإنسانية فقط. إن المسلمين آمنوا بتلك المفاهيم والأوامر والنواهي من منطلق شرعي، ثم أقاموا الحجج والبراهين العقلية عليها. ومن هنا أتساءل: هل من المحتمل أن يقبلَ الغربُ – بعد أن قَبِلَ هذه الأمور جميعها من الناحية العقلية – بالعقوبات الإلهية؟ من الصعب أن يحدث ذلك إلى أن يتمكن الغرب من التعرف على تلك العقوبة الإلهية التي تكمن ما وراء العقل البشري، وهذا الأمر في حد

ذاته ينظرُ المسيحيون إليه نظرةً (دنيوية؛ علمانية)، لكنه يُعتبر من الأشياء التي تصب في مصلحة الجنس البشري ورفاهيته، وتُشَكِّلُ جزءًا لا يتجزأ من شريعة سماوية. لن يقبل الغرب ذلك إلا إذا أدركوا حاجتهم إلى الجزء المتبقي من الشريعة الإسلامية، وهو الجزء الذي ما زال المسلمون متمسكين به من منطلق شرعي فقط خلال القرنين أو الثلاثة قرون الماضية. فالدليل العقلي مناسب لغير المسلمين للعمل بمقتضاه، لكنه يفتقر إلى الدليل الشرعي، فيمكنه جذب أصحاب العقول المادية، وهذا يعني أن الإسلامَ مثالٌ ساطعٌ كاملٌ يمكن تطبيقه وممارسته بأساليب العصر الحديثة.

ويمكننا أن نُظْهِرَ بعض الإنجازات البارزة – أي أكبر وأعظم أخوة إنسانية عرفها العالم أجمع على الإطلاق، ومجتمع خالٍ تمامًا من الفتن الداخلية والحسد الذي يهدد وجود النظام الاجتماعي الغربي؛ ودستور دولي قابل للتطبيق، أي قانون اجتماعي يُوَفَّقُ فيه بين مزاعم الرأسمالية وسوق العمل، ومُلَّاك الأراضي والمزارعين، وحقوق الملكية – كلا، وإنما الجانب التنظيري للأنظمة المَلَكية، والدستورية، والاشتراكية، والشيوعية، والأرستقراطية، والديموقراطية – كل ذلك تحت نظام واحد عالمي يمكن تطبيقه بتوفيق بينهم جميعًا. ومع ذلك، لا يوجد اليوم نموذج ساطع للإسلام في الممارسة العملية على هيئة دولة حديثة متقدمة وناجحة. وبينما يبدو أن الدول الإسلامية تلهث وراء الرفاهية المادية التي يتمتع بها الدول الغربية، فإن الأخيرة ستبتعد عن الفكرة حتمًا؛ لأنهم يرون أن المبادئ التي يسترشد بها هذه الشعوب المتخلفة – أي الدول الإسلامية – غير ناجحة.

في حقيقة الأمر؛ للدول الغربية حق في ذلك؛ لأنه ذنبنا نحن لا ذنبهم إذا كان نور الإسلام لم يصل إليهم كما يجب أن يكون، فهم ينظرون إلينا بنظرتهم هم الناقصة.

والشيء الآخر الذي أَكَّدَ ثقة المسلمين في الشريعة هو فشل الحضارة الغربية فشلًا ذريعًا في مجال العلوم السياسية والاجتماعية إلى الآن في حل المشكلات التي كانت قائمة مقابل نجاحها الباهر في العلوم الطبيعية. هذه المشكلات التي تواجه الغرب قد وضع لها الإسلام حلولها قبل عدة قرون. علينا أن نتفق جميعًا أن الشيء المنشود الآن هو الكشف عن حقائق الإسلام والإشادة بها قدر الإمكان للعالم الحديث. لكن أظن أن بعضنا يرى أن الثناء على الغرب يحمل في طياته تجاهل الشريعة باعتبار تطبيقها، وذلك ما هو إلا تفكير قديم، ويرى أن تقديم الإسلام من غير التشريع ذاته مجرد مسألة إيمان شخصي منفصل عن الدين! سيصير بعض المسلمين حمقى بسبب انقضاض الكفاءة التقنية الحديثة، وسيكون لديهم الاستعداد لقبول ليس فقط المعرفة والإنجازات العلمية الغربية – والتي يحتاجها المسلم لاستكمال ما قد أهمله من الشريعة لفترة طويلة – ولكن سيقبل جميع المفاهيم الاجتماعية والسياسية الغربية وأعرافها أيضًا. إن هذا نوع من الهَوَسِ والعَتَه الذي حذر منه الشهيد سعيد حليم باشا مسلمي العالم في مقالته الرائعة (الجامعة الإسلامية) أن العلوم السياسية والاجتماعية في الغرب في اتجاه مغاير للعلوم الطبيعية، وأن النمو هناك هو نمو اعتباطي لا يقوم أساسًا على حقائق ملموسة، وإنما يقوم على مغالطات ملموسة. إنه فقط التفكير القويم للإنجليز، وموهبتهم الطبيعية لجعل الأشياء أكثر نجاحًا يُنْظَرُ إليها نظرة غير معقولة على الصعيد العملي، والنشاط العقلي والبراعة التي يوفرها لهم مناخهم، مما أدى إلى تجنبهم للانهيار بالفعل. وقد وصل ذلك النجاح

غير المعقول إلى بلاد أوروبية أخرى، مثل: فرنسا (أكثر من مرة)، وروسيا، وإيطاليا. وإذا كان قد تراجع المسلمون بإهمالهم لأجزاء معينة من الشريعة، فليس هذا سببًا للتخلي عن الشريعة بأكملها؛ بل هذا يستدعيهم إلى الالتزام بما جاء فيها. هذا يدفعنا إلى دستورٍ واضحٍ يجمع كافة المبادئ والأوامر والنواهي الرئيسة التي يمكن أن تُوضَعَ بين أيدي المسلمين. في هذا الزمن، نواجه بعض السخافات الجليَّة الموجودة في الفقه، مثل الأشياء التي تتعلق بكيفية وقوف المسلم في الصلاة، وإهمال الجانب المتعلق بالجنايات كتحريم القتل وغيره. علينا أن نُميز ولو لمرة واحدة بين ما هو جوهري وله قيمة وما يتعلق بفترة زمنية تاريخية معينة، وإلَّا سيصير حال معظمنا تائهًا في التفاصيل، فنعجز عن الرؤية الكاملة للإسلام. إن المسلمين لديهم كل شيء عن العلوم التي يريدون تعلمها من أوروبا في مجال العلوم الطبيعية، وليس لديهم أي شيء ليتعلموه من أوروبا في مجالات العلوم السياسية والاجتماعية. في مثل هذه الأمور، أوجدَ الإسلامُ طريقَ السلامِ قبل ثلاثة عشر قرنًا. ونجد – بخلاف ذلك – العالم المسيحي لَمَّا يعثر على طريق السلام إلى الآن. إذن؛ فالعمل الذي يجب علينا فِعله هو تحديث المؤسسات الإسلامية ورفع مستوى كفاءتها، وعدم استبدال الأعراف الغربية بالأعراف الإسلامية.

كان الأمير سعيد حليم باشا – الذي أعرفه جيدًا – رجلًا يتمتع بفن الحُكم في الأوقات العصيبة، وعلى دراية جيدة بالسياسة الأوروبية الحديثة. كان مُصْلِحًا وابن مُصلح، وكان ممن أرغمتهم الظروف طوال حياته على التفكير مليًّا في المشكلات المتعلقة بمستقبل الإسلام والمسلمين، حيث كان مُطَّلِعًا على فِكر إنجلترا وفرنسا وألمانيا. علاوة

على ذلك؛ كان سعيد باشا قد تعلَّم السُّنة النبوية وتفسيرات علماء التفسير وشروحاتهم للقرءان الكريم وللسُّنة النبوية. ومن مميزات هذا الأمير أنه كان مُؤهلًا جيدًا لأن يكون مستشارًا سياسيًا بكل ما يخص العالم الإسلامي من سياسة مستقبلية، فلم يكن يتطلع إلى (الأَوْرَبَة Europeanise) [106]، بل إلى (الأَسْلَمَة Islamise). كان الأمير من الذين لديهم عقلٌ حُرٌّ مُستقلٌ مُحتفظٌ بهيبة الإمبراطورية الإسلامية ونفوذها في نفسه وعقله؛ قد كان عضوًا في (جمعية الاتحاد والترقي) العثمانية؛ لأنه كان من أنصار الخلافة. لقد كان هدفه الأول –وقبل كل شيء– في كتابه هو وصف حقيقي للدولة الإسلامية بالمعنى الحديث، ومقارنتها بأنظمة الحكومة الحالية. إن هذه الاعتبارات لا تهم المسلمين الهنود بأسلوب مباشر كما الأتراك، لكنها ممتعة للغاية لنا جميعًا، وسوف أعرضُ مُوجزًا للكتاب – فيما بعد – مصحوبًا بتعليقاتي عليه، قبل الشروع في أي شيء آخر في الهند، والتي ستكون مرتبطة مباشرةً بمحاضرتي السابقة.

كان على الأمير سعيد حليم التغلب على الصعوبات حتى لا نضطر إلى مواجهتها؛ لأنه ليس من السهل نقل كل ما كانت عليه السُّلطة في زمن الخلفاء الراشدين إلى هذا الزمن وما يتعلق بها من مفاهيم ومصطلحات حديثة. ورغم أنهم حكموا إمبراطورية عظيمة وقوية قديمًا، وخضع قادة جيوشهم لأوامرهم، إلا أنهم لم يكونوا مستبدين كما الآن. قد عاشوا حياتهم ببساطة في المدينة المنورة، ولم يُقْحِموا أنفسهم في الحُكم الداخلي على الإطلاق، ما لم يكن الحُكم سيئًا. علاوة على ذلك؛ كانوا يسردون كافة أعمالهم سردًا واضحًا في خُطبة الجمعة من كل أسبوع في المسجد النبوي الشريف، وكانوا مرجعًا

---

(106) أي يصبغ المسلمين بالصبغة الأوروبية.

للمسلمين في مسائل الدين والقانون والحكومة وإدارة شئون البلاد، ورغم ثُقل مسئولياتهم تلك، فلم يُحيطوا أنفسهم بمواكب فخمة، ولم يُفَخِّموا من أنفسهم بحُكم ولايتهم على الناس، ولم يخلقوا حول أنفسهم هالة من التقديس والتبجيل. لقد كانت علاقاتهم بأهل المدينة المنورة ومع كل الناس علاقة أخوية. انظروا إلى ما فعلته عجوز فقيرة مع سيدنا عمر بن الخطاب ﵁ عندما رأتْ أن الخليفة عمر ﵁ جانبه الصواب، فأراد الناس دفعها بعيدًا، لكنه أمرهم بتركها تتحدث إليه، قائلًا (فيما معناه): (*إنه يجب على كل مسلم ومسلمة أن ينصحوا للحاكم*). فكان جميع المسلمين على دراية تامة بالشريعة، فامتثلوا للأوامر والنواهي، فإذا كان جَهِلَ أحدهم شيئًا أو التبس عليه أمرٌ، ذهب إلى الخليفة أو مَن ينوب عنه؛ لأنه كان يُذَلِّلُ له العقبات بأبسط الطرق. لم تكن هناك شرطة تحرس الخليفة أو نائبه لتحجب الناس عنهما.

وفي عهد معاوية، حدث شيء من التغيير، لكنه لم يكن تغييرًا كبيرًا؛ فمبدأ الانتخاب لَمَّا يزل قائم وقتئذ من الناحية النظرية. وعلى فراش موت معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، أوصى الناسَ بانتخاب أفضلهم لخلافته [107]. وإذا كان بنو أميَّة لديهم شعبية عريضة في سوريا ومصر وشمال الجزيرة العربية وشمال إفريقيا، وكان بإمكانهم فِعل ما يحلو لهم، إلا أنهم قدموا دليلًا على صدقهم برفضهم للخلافة بعد وفاة

---

([107]) (ولما كان في آخر إمارته، أمرَ فنُودي الصلاة جامعة، واجتمع الناس، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد؛ فإني ضعفتُ عن أمركم، فابتغيتُ لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر، فلم أجده، فابتغيتُ ستة مثل ستة الشورى، فلم أجدهم، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له مَن أحببتم).
المصدر: ابن الأثير، أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد، **الكامل في التاريخ**، ذكر بيعة معاوية بن يزيد بن معاوية وعبد الله بن الزبير، صفحة 468، المجلد 3، دار الكتب العلمية.

معاوية. فكان بإمكانهم انتخاب مَن يرونه هو الأفضل لحُكم المسلمين، ولم يكن هناك انقسام في الآراء، إذا ما فعلوا ذلك، رغم الجرائم التي ارتكبوها للوصول إلى سُّدة الحُكم، لكن بعد شن حرب قاسية على حزب الأسرة الحاكمة بسبب رغبتهم في تأسيس نظام مخالف لما أوصى به سيدنا رسول الله ﷺ، كما يعتقد أهل السُّنة بأنهم أقاموا نظامًا خاصًا بدولتهم، وبالتالي شوهوا لنا الخطوط العريضة لمفهوم المدينة المثالية في الإسلام.

كان هناك عديد من المسلمين الصالحين في الأسر الحاكمة، وازدهر الإسلام في عهدهم؛ لأن الشريعة كانت هي مصدر قيادتهم وتوجيههم إلى حُكم المسلمين حُكمًا صالحًا. ولكن واحدة من حدود الله انْتُهِكَتْ وتجاوزها بعض الحُكَّام عندما غيَّروا وبدَّلوا في مفهوم السيادة الاختيارية للحياة. أو بكلمات أخريات؛ إن مهمة إعادة بناء الدولة الإسلامية بأساليب العصر الحديثة، كان من الممكن أن يكون بسيطًا نسبيًا، أي مجرد مسألة إصلاحات وحسب، وهو الذي بذل فيه الأمير سعيد حليم باشا قُصارى جَهده لتوضيحه وبيانه للمسلمين. بعد هذا الاستطراد الطويل، وصلتُ إلى ما ابتغاه الأمير سعيد حليم باشا.

في الدول الغربية – في العصر الحديث – يتولى منصب الرئيس أو الحاكم نوعان من الأشخاص فقط: إما شخص يتولى منصب رئيس الدولة بموجب حق الولادة، سواء أكان مُؤَهلًا له أم لا، أو شخص ينتخبه الجمهور. فالنهج الأخير لا يوجد ما يمنعه من منطلق دين الإسلام، إذا انتخبه مجلس الحكماء في الدولة بطريقة مدروسة جيدًا، حيث سيمثل، فيما بعد، الشخصية التي ستخدم الأمة الإسلامية على أفضل وجه ممكن. لكن المغالطة هنا هي أن مبدأ الأغلبية يقول إن الأغلبية على حق دائمًا، والتصويت يُعطى لأكبر

عدد من غير الأَكْفَاء، فيتيحون الفرصة لهم بتولي زمام الأمور من غير خبرة أو تأهيل. وعليه؛ يجب استبعاد الأشخاص الذين يعتمدون على التصويت العام، المؤمنين بمبدأ الأغلبية؛ لأن هذه النوعية من الأشخاص يطمعون في الوصول إلى سُّدة الحكم، وهذا طموح شخصي بحت. لقد كان المسلمون الأوائل يؤمنون باستحالة تولي منصب الخلافة أو الحاكِم من غير ما يؤهلهم لذلك، ولم يكونوا طموحين أو ساعين للحصول عليه. أما اليوم، فقد ضاع هذا المعنى الرفيع بين مسلمي اليوم. وفي أول حركة منظمة لإحياء الإسلام على أساليب العصر الحديثة، وهي (جمعية الاتحاد والترقي)، راعى أتباعها هذا المبدأ القويم، حيث نصوا على أن الطموح الشخصي أن يكون دائمًا من أجل خِدمة الأمة الإسلامية. وكانت سُّلطة الرئيس التنفيذي تُلقى على عاتق الذين لم يسبق لهم الظهور على الإطلاق أمام الجمهور، كما كانت السُّلطة الرئيسة تُلقى على عاتق الذين هم أكثر الناس كُرهًا لمظاهر التفخيم والتبجيل، مثل: الشهيد محمود شوكت باشا، والشهيد سعيد حليم باشا.

وفيما يتعلق بالدول الإسلامية في الشرق، سنرى أن الدكتاتوريين الذي انْتُخِبُوا هم مَن قدموا أعظم خِدْمَات للأمة الإسلامية، ولم يسحقوا الفصيل المنافس لهم بحُكم أغلبية مَن انتخبوهم؛ الانتخابات المُتنازَع عليها لا تشكل جزءًا من الهيئات الإسلامية؛ لأن الإسلامَ لا يقر مبدأ العصمة الجماعية لِمَنْ هم غير أَكْفَاء بأسلوب فردي، ولا يقر بمبدأ الأغلبية الجاهلة. إن اختيار الحاكِم أمرٌ جادٌ وخطيرٌ، ولا يُعْهَدُ به إلّا إلى الحكماء الذين لهم القدرة على معرفة أحوال مَن سيتولى زمام أمور المسلمين. إن المسلمين ليس

لهم دور رئيس في الانتخابات، وإنما دورهم مقصور فقط على موافقة مجلس الحكماء أو عدم الموافقة. كما لا يُنْتَخَبُ رئيس الدولة الإسلامية لفترة قصيرة وحسب؛ بل انتخابه يظل مدى الحياة ما لم يفعل شيئًا مخالفًا للشريعة الإسلامية. فهو مسلم كبقية المسلمين، لكنه سيقف أمام الله يوم القيامة وعلى عاتقه كافة أعباء الأمة الإسلامية، وسيُسْأَل وحده أمام الله. كما ليس للشعب سُّلطة لعزله، طالما يقوم بواجبات المنصب على أتم وجه. وعلى الجانب الآخر؛ إذا أخطأ الحاكم، فالشريعة تعطي الحق للشعب في محاسبته، إذا لزم الأمر في عزله. أما في الدول الديموقراطية الغربية، يمكن أن يؤدي تصويت الناس إلى عزل الرئيس الذي يقوم بواجبات منصبه، ولا يمكن عزله إذا أخطأ أو انحرف عن مهامه المُوَكَّلة إليه. إن هذا مستحيل أن يحدث في بلاد المسلمين، حيث يوجد قانون يحكم الحاكِم، وقانون يحكم الناس في مثل هذه الأمور.

إن الإسلام يقر بحقوق الإنسان التي ترتبط بالوظائف والواجبات التي تُؤدَّى بأسلوب قويم، ما دام الإنسان يتمتع بالمعرفة والخبرة اللذان يؤهلانه لتلك الوظيفة. وفي الغرب؛ ليس للأقلية المنافسة على الحُكم حقوقٌ، ويُتَعَامَلُ معهم بقسوة أحيانًا، رغم وجود مفكرين وعلماء من الأقلية، بل تُصرَفُ تلك الحقوق للأغلبية الحاكمة حتى ولو كانوا على درجة كبيرة من الجهل وعدم الدراية بأمور الحُكم. إن مفهومي الأغلبية والأقلية – بهذا المعنى – غير موجود في الدولة الإسلامية، كما لا يُنْتَخَبُ المجلس الشعبي كما الحال في الغرب، فيقوم بالانتخاب دوائر انتخابية تشمل جميع أنواع الأحزاب ذات المصالح المختلفة. تتكون هذه الدوائر الانتخابية من مثل هذه الحِرَف والمهن والعشائر. وبالتالي؛ لا يوجد مجال لاستبداد الأغلبية على الأقلية، ولو فُرِضَ أنَّ الأغلبية هيمنتْ

على المجلس الشعبي، لن يتمكنوا من استبداد الأقلية، أو اضطهاد مؤيديهم في أرجاء البلاد بالطريقة التي اعتادتْ عليها السُّلطة على الاستبداد في أوروبا. أعني بذلك التشريعات التي يسعى إلى تشريعها الأغلبيةُ ضد مصالح الأقلية. إن المجلس الشعبي ليس له وظيفة في الدولة الإسلامية تنفيذية كانت أو تشريعية؛ فالوظيفة التنفيذية منوطة فقط بحاكم الدولة، وهو مسئول فقط أمام الله. وتُسَّنُّ القوانين الجديدة من خلال مَن لهم العلم والدراية بالقانون، وليس من شأن السياسيين البتة.

لقد عايشنا طبيعة الثورات الأوروبية التي يقودها فئة معينة من الناس من أجل اضطهاد فئة أخرى، والتغيير الوحيد الناتج عن تلك الثورات هو أن المظلومَ يلعب الآن دور الظالم؛ أي أن هدف الأحزاب السياسية هو أن تحل محل الأحزاب السياسية الحاكمة، ثم البحث عن كيفية تدميرها حتى تتمتع الأحزاب السياسية التي وصلت إلى سُّدة الحُكم بجميع الامتيازات التي تمتعتْ بها الأحزاب السياسية التي حكمتْ من قبل، وفي نهاية المطاف تبحث عن كيفية استبدادها كما فعلتْ هي بها من قبل. وبنفس الطريقة نرى أن أُممًا تسعى إلى الخراب والتدمير أو استعباد بعضهم البعض؛ وذلك لأن النظام الاجتماعي والسياسي في العالم المسيحي هو نظام دون سُّلطان (أي من غير سُّلطة إلهية)، فهو نظامٌ خالٍ تمامًا من أَيَّة عقوبة إلهية، بخلاف الشريعة الإسلامية التي تنص على قواعد معينة تحكم النظام الاجتماعي والسياسي. إن العالم المسيحي لا يؤمن بسُّلطة عليا كي تكبح جِماح طموح الإنسان الغربي الذي لا سقف له، فأفسدَ في الأرض؛ لذلك لا توجد ضمانات حقيقية للنظام الاجتماعي والسياسي، وإن جهل العالم المسيحي الغربي بالقوانين

الإلهية والطبيعية أفسدَ الحياة هناك، ويجب أن يخضعَ لسُّلطة الإله العليا من أجل الحصول على الاستقرار.

كانت أوروبا – في هذا الصدد – أكثر تقدمًا تحت حكم الإمبراطورية الرومانية قبل المسيحية؛ لأن الرومان الوثنيون، اهتموا بهذا العالم – العالم الغربي – وسمحوا لسُّلطة العقيدة أن تسري في الناس لكبح جِماح طموحهم وغرورهم، وذلك لم يفعله المسيحيون في الغرب. ولم يكتف الرومان بذلك؛ بل عيَّنوا مسئولًا رفيع المستوى يحمل لقب (القاضي) أو (صوت الشعب)، وهو منصب في مجلس الشيوخ الروماني يخدم اهتمامات طبقة العامة. كما كان يتمتع مَنْ يتولى ذلك المنصب بكونه صاحب سُّلطة وقوة يمكن من خلالها محاسبة الحكومة نيابة عن الناس، بل ونيابة عن الأفراد أيضًا. وأحيتْ الجمهوريات الإيطالية في العصور الوسطى هذا التراث الروماني. وكانت الكنيسة المسيحية على النقيض مما ذُكِرَ؛ لأنها اعتمدتْ العقيدة القائلة بأن هدف الدين وموضوعه يقعان في عالم آخر – أي الحياة الآخرة – بعيدًا عن إرساء المُثُل العليا لملكوت الله الحقيقي في هذا العالم – أي الحياة الدنيا – مثل الإسلام. اعتمدتْ الكنيسة المسيحية عقيدة القوة التي تدعو إلى (العلمانية)، ومعاقبة الذين يتحدثون عن ملكوت الرب على أنه حقيقي من صميم العقيدة المسيحية، مثل جيرولامو سافونارولا Girolamo Savonarola. وما زلتُ أتذكرُ أعظم شيء فعلته الكنيسة على الإطلاق، ألا وهو حركة (السلام والهدنة لله) التي تسببت في وقف الحرب في أيام معينة من كل عام. رجاءً منكم؛ لا تُسيئوا فَهمي! فعلت الكنيسة كثيرٌ من أجل تخفيف البؤس وتضميد الجراح في أوروبا؛ قد بشرتْ بالسلام، لكنه كان على مسافة بعيدة من حياة الناس اليومية، وكانت تشير إلى الدير

باعتباره الطريق إلى الجنة. كان السلام بعيدًا عن حياة الناس، بخلاف الإسلام الذي دعا إلى السلام من خلال المعاملات، وتلك المعاملات محكومة بقوانين وشرائع؛ أي هناك ثواب وعقاب. لم يكن هناك مثال ثابت كدليل على السلوك والعلاقات الاجتماعية، والكنيسة المسيحية تتمسك ببُعد مثالي بعيد كل البُعد عن الحياة الواقعية.

أما بالنسبة لتوازن القوى الأوروبي – الذي كان مصدرًا للتفاخر والتباهي في العصر الفيكتوري – فقد انتهى تمامًا، وتقع الآن أوروبا الوسطى في حالة من الخراب والدمار. ومن هنا، أفضى الدرس الموضوع العظيم للحرب الكبرى الأخيرة إلى أن بعض المفكرين توقعوا أن الثقافة الغربية قد تدمر نفسها في غضون قرن، إذا ما سارتْ على نفس النهج. وقد أدرك عديد من الأوروبيين الخطر القادم عليهم، فأنشأوا اتفاقيتا لاهاي أولًا، ثم عصبة الأمم ثانيًا، ثم مكاتب العمل ومجالس التوفيق التي ظهرتْ فجأة في كل بلد غربي. لكن عصبة الأمم ومحكمة لاهاي غير قادرين على التعامل بفعالية مع كبار المذنبين، بل قادرون على التعامل مع الصغار والضعفاء فقط. لذلك؛ لا يمكن فِعل أي شيء مفيد حقًا دون تغيير كامل حقيقي. وكما نبَّه رجل فرنسي الناسَ بقوله: (*إذا لم يكن الله موجودًا، لكان من الضروري إيجاده*). قد لا يؤمن رجال الدولة الغربيون بالله، لكن سيتعين عليهم التصرف كما لو كانوا يؤمنون به؛ سيتعين عليهم قبول مبادئ دينية – فكرة القانون الأعلى والأسمى من طموح الإنسان. يجب عليهم ذلك إذا ما أرادوا حقًا إنقاذ أوروبا من خطر حتمي يهدد ثقافتهم وحضارتهم بالانقراض.

يوجد في البنية الاجتماعية والسياسية للإسلام سُّلطة يجب على الجميع الاعتراف بها، هذه السُّلطة أو القوة هي عقوبة إلهية تعمل على الحد من طموحات الإنسان من أجل منع الإفساد في الأرض، وهو ما يُطْلَقُ عليها (حدود الله)؛ يجب على كل مسلم احترامها والحذر من تجاوزها. إن حدود الله هي الضامن الوحيد لحقوق البشر والأمم. وفي النظام السياسي الإسلامي، لا يوجد ما يُسمَّى بالسُّلطة غير مسئولة، أو ثروة الإنسان، أو الحكومة غير مسئولة، أو اللامسوؤلية من أي نوع كان. إن السُّلطة والمال مقيدان ومسئولان أمام الله، وقد حدد لنا الله قواعد استخدام السُّلطة واستخدام المال. ففي الصفقات التجارية حدود، مثل: احترام العقود، وكلمة الإنسان لأخيه الإنسان، وتحريم الربا والقمار. وكذلك فيما يتعلق بالمعاملات الخاصة، توجد حدود، مثل: حظر المُسْكِرَات، وكذلك المعاملات المتعلقة بالمرأة، مثل: احترامها وتعظيم شأنها وصونها، وإخراج صدقة على العلاقات غير الشرعية. علاوة على ذلك؛ توجد حدود وقوانين فيما يتعلق بالمواريث وغيرها. كل هذه الحدود والقوانين في الإسلام تضمن للبشرية جمعاء عدم الانخراط فيما هو فيه إفساد في الأرض.

نجد أن النبي ﷺ قال: (فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَّ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ). وقال النبي ﷺ أيضًا: (لَا يُؤْمِنُ بِاللهَّ وَاليَوْمِ الآخِرِ مَنْ بَاتَ شَبْعَانٌ، وَجَارَه طَاوِيًّا إِلى جَنْبِهِ) [108].

---

([108]) أخرجه البزَّار من طريق حسين بن علي الجعفي، ثنا سفيان بن عيينة، عن علي بن زيد بن جدعان، عن أنس مرفوعا بلفظ: (ليس المؤمن الذي يبيت شبعان وجاره طاوي)، وقال البزار: لا نعلمه، يروى عن أنس إلا من هذا الوجه.

كانت تلك الحدود – رغم أنها في بعض الأحيان بعيدة عن التطبيق التام – هي التي تسببت في التسامح مع الملايين من المسيحيين واليهود والزرادشتيين والهندوس والبوذيين والكونفوشيوسيين وحمايتهم، وغالبًا ما يتم تكريمهم، في الإمبراطورية الإسلامية عبر القرون عندما اعتقدت أوروبا أن من الواجب الديني عليهم أن يتم تدمير غير المسيحيين وقتلهم. كانت تلك الحدود هي التي جعلت الأتراك، عندما يقاتلون من أجل الوجود المجرد لبلدهم في جاليبولي التركية، يرفضون استخدام الغاز السام الذي منحه الألمان لهم. إنها تلك الحدود التي أبقت على المسلمين، حتى في ظل معظم الحكومات الاستبدادية، مثال الأخوة الإنسانية العالمية، وحافظت على النظام السياسي الإسلامي من شرور الأرستقراطية، والنفوذ، والديمقراطية، مع نشر الفضائل الأرستقراطية والحرية الديمقراطية للتواصل في جميع أنحاء المجتمع بأسره.

هل من العجيب أننا نحن المسلمين ما زلنا نؤمن بقوة أكبر من أي وقت مضى في أعرافنا الدينية، وأننا نرى فيهم طريق الهروب من الارتباك الاجتماعي والسياسي الجاد وعدم اليقين اللذين يتعايشان مع الرفاهية المادية في الحضارة الغربية الحديثة، السبيل الوحيد للتخلص من الكراهية بين الطبقات والأمم ، لتخفيف صدام الأهداف والتقاليد المتنوعة، من خلال جلب الملكيين والدستوريين والاشتراكيين والنقابيين والشيوعيين إلى نفس عالم الأفكار – وبعبارة أخرى، لإنقاذ الحضارة الحديثة (التي تنتمي بعد كل شيء إلينا جميعًا) ، باعتبارها أسمى حضارة في العصر الذي نعيش فيه) من الدمار من الداخل الذي يهددها بوضوح؟ في الإسلام، ليس من الأهمية بمكان أن تكون الحكومة

منتخبة لها سيادة مدى الحياة، أو سيادة وراثية، مستبدة أو دستورية، أو جمهورية، أو حتى جمهورية سوفياتية، بشرط أن تظل الشريعة هي العليا.

ومن خلال اطلاعي العارض على التاريخ الهندي يدفعني إلى الشك فيما إذا كانت الهيئات الإسلامية الحقيقية كانت موجودة من أي وقت مضى في الهند على الإطلاق. لكنها موجودة في مكان آخر ويمكن تعقبها بسهولة.

أول ما عليكم فعله هو محو لعنة الجهل التي هي السبب الجذري لتدهور المسلمين في الوقت الحاضر. إن الإسلام لا يقر بالجهل، وحيث يسود الجهل، فالإسلام ليس كذلك. إنه ليس دينًا للخرافات أو ليصنع كهنة، التي تشبه الفطريات، يمكن أن تزدهر في الظلام وفي محيط قذر. إنه دين الهواء الطلق وضوء النهار، دين حقيقة خلق الله. ويحتاج الإسلام إلى النور وإتاحة المعرفة كي ينمو ويزدهر ازدهارًا صحيحًا قويًا. علينا أن نؤمن على كل مسلم ومسلمة الوصول إلى هذا النور والمعرفة في يومنا هذا. يجب أن يكون التعليم عالميًا، وأن يكون تعليمًا إسلاميًا خالصًا. يجب ألا يتعامل مع كل المعارف العملية والمادية على أنها (علمانية؛ دنيوية)، وبصرف النظر عن الدين، لكن يجب أن تفعل كما فعلت الهيئات التعليمية الإسلامية القديمة، وأن تجعل جميع العلوم تحت مظلة الدين الإسلامي. كما يجب أن يكون التعليم في ساحات المساجد، كما كان في سابق عهده. ولا يوجد شيء في علم اليوم يحتاج المسلمون إلى الخوف منه. إنها في الحقيقة حصيلة علم المسلمين واستمرارهم إبان زمن الثقافة الإسلامية العظيمة. إنها ليست ضد التعليم الصحيح للإسلام، ولكنها داخلة في ثناياه. يجب أن تكون مساجد قُرَاكم (جمع قرية) هي مدارس قريتكم، ويجب أن تكون مساجدكم العظيمة في المدن هي جامعاتكم. دع

التعليمات المعطاة حديثة كما يحلو لك، فهي لا تزال تدخل في نطاق الإسلام، إذا لم يستيقظ المسلمون على إدراك هذه الحقيقة. في المسجد، وفقًا للممارسات القديمة، يمكن لأي شخص إلقاء محاضرات مؤهلة للتدريس، ولدينا العديد من العلماء في البلاد الذين لا يستطيعون ممارسة أي شكل من أشكال الأعمال الخيرية على وجهها الصحيح.

لقد تحدثت إليكم عن (التكليف بعقيدة القدر) باعتبارها تهمة وُجِّهَتْ ظلمًا ضد الإسلام. يوجد في بين المسلمين عدد كثير من الجهلة يفعلون ما يستوجب على مَن يرى أفعالهم وأقوالهم إنهم (قدرية)، لكنهم في الحقيقة جهلة، وذلك ببساطة لأنهم جاهلون ولا يعرفون شيئًا عن الإسلام أو لا يعرفون شيئًا عنه أصلًا. إنها تأتي من المفهوم الخاطئ للجهاد – الجهد الذي يجب على كل مسلم أن يبذله – على أنه يقتصر على الحرب ضد الكفار. في حين أن الحرب ضد الكافرين ليست مفروضة في أي مكان، ولكن الحرب ضد الشر، والحرب ضد الظلم العدواني، والحرب نيابة عن الحق، والحرب ضد الكسل والخمول والأوساخ، والجهل أمر مفروغ منه، في كل مكان، حتى في بيت الإنسان المسلم، بل وجهاد نفسه أيضًا. الجهاد هو الحياة الكاملة للمسلم الحقيقي، وعندما تنير حياته كلها وتزخر بها روح الجهاد، فله الحق في أن يكون قدريًا إلى هذا الحد: أي أنه يعلم أنه يقوم بواجبه بكل ما لديه. قد يكون في كل وقت لا يأبه بشيء قد يصيبه، فإن إيمانه بالله يجعله مؤمنًا تمام الإيمان بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ۝٦٢﴾ [البقرة: 62].

وإذا أراد المسلمون أن يمدحهم الغربيون ويمدحُون الإسلامَ، يجب عليهم إظهار روح الجهاد مرة أخرى في كل مناحي الحياة، ويجب أن يجاهدوا بلا كلل من أجل ما يعتقدون أنه صواب ضد ما يعتقدون أنه خطأ، وبالتالي يظفرون بالاحترام الذي كان يتمتع به المسلمون الأوائل. إن سلوك المسلمين هو وحده الذي يجعل غير المسلمين يمدحون الإسلام وأعرافه. لا يمكننا أن نتبنى فكر أي شعب آخر بدلًا عن فكرنا، على الرغم من أننا قد نتبنى بعض الأفكار المناسبة لشريعتنا وثقافتنا وهويتنا. ولا يوجد هنا في الهند ما يمنعهم من تنظيم أنفسهم على أسس إسلامية وتطوير أفكارهم الخاصة إلى أعلى نقطة من القوة والكفاءة.

لا يمكن للمسلمين تبني أعراف المجتمعات الأخرى، لكن من واجبهم احترام أعراف المجتمعات الأخرى وتقاليدهم، بل والعيش معها على أساس احترام الجوار والتسامح أيضًا. إن القرءان الكريم وقدوتنا الرسول الكريم ﷺ يحرمان التعصب، وحتى أقل الفظاظة وخشونة التعامل تجاه أتباع ديانة أخرى. لا يمكن أن يأتي عدم التسامح في الإسلام إلا من الجهل بالإسلام. كما أن ذروة التعصب الموجودة في الهند تشير فقط إلى عمق الجهل المتأصل فيها. نريد أن يكون وجود الجالية المسلمة نعمة لشعب الهند، وليس نقمة. وهكذا تصبح الحاجة إلى التعليم أكثر إلحاحًا. لا يوجد في فقه الإسلام ما يبرر كراهية أي إنسان لآرائه أو السعي لفرض آراءه على الآخرين. يكفيني أن أقول: إنه لا يوجد في فقه الإسلام ما يبرر القتل، بل يوجد ما يدعو إلى العدالة بين جميع الناس، والتسامح مع جميع المعتقدات الصادقة، واحترام جميع الناس الطيبين، أينما وجدوا. إن الإسلام ليس ضد غير المسلمين، بل يناضل من أجل الحق أينما وجد ضد الخطأ أينما

وجد. أود أن أحث بشدة على إشعاركم بضرورة الدعوة والتدريب على الممارسة المستمرة لفضيلة التسامح الإسلامي. يحرم علينا إراقة نبيذ الكافر، ويحرم علينا الحديث عن دينه بما يضر بمشاعره. إن تسامح الإسلام في التاريخ هو مطلبنا الأكبر بمراعاة العالم. فتسامح الإسلام في المستقبل قد يداوي جراح الإنسانية. اتركوا هذا التسامح ينمو ويترعرع، وإذا لزم الأمر، يتم فرضه بينكم في الوقت الحاضر.

تكلم عديد من المسلمين المعروفين اليوم بنبرة استعلائية تعصبية تمامًا كما تكلم اليهود والمسيحيون في زمن نبينا الكريم ﷺ كما لو كان لا أحد يستطيع دخول الجنة سوى مَن اتبعهم.





# قائمة المصادر والمراجع

1. القرءان الكريم.
2. الكتاب المقدس: كتب العهد القديم والعهد الجديد، الإصدار العاشر، ط 6 (القاهرة: دار الكتاب المقدس، 2015).
3. البخاري، محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، (المنصورة: مكتبة فياض للطباعة والنشر والتوزيع، 2011).
4. مسلم، الحجاج بن مسلم النيسابوري، **صحيح مسلم**، جمعَ جوامعِ الأحاديثِ والأسانيدِ وَمَكْنِزَ الصحاحِ والسننِ والمسانيدِ، جمعية المكنز الإسلامي.
5. أبو داود، سليمان بن الأشعث، **سنن أبي داود**، جمعَ جوامعِ الأحاديثِ والأسانيدِ وَمَكْنِزَ الصحاحِ والسننِ والمسانيدِ، جمعية المكنز الإسلامي.
6. الترمذي، أبو عيسى محمد، **سنن الترمذي**، جمعَ جوامعِ الأحاديثِ والأسانيدِ وَمَكْنِزَ الصحاحِ والسننِ والمسانيدِ، جمعية المكنز الإسلامي.
7. ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد، **سنن ابن ماجة**، جمعَ جوامعِ الأحاديثِ والأسانيدِ وَمَكْنِزَ الصحاحِ والسننِ والمسانيدِ، جمعية المكنز الإسلامي.
8. مالك، أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك، **موطأ مالك**، جمعَ جوامعِ الأحاديثِ والأسانيدِ وَمَكْنِزَ الصحاحِ والسننِ والمسانيدِ، جمعية المكنز الإسلامي.
9. ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد، **مسند الإمام أحمد**، جمعَ جوامعِ الأحاديثِ والأسانيدِ وَمَكْنِزَ الصحاحِ والسننِ والمسانيدِ، جمعية المكنز الإسلامي.
10. الدارمي، أبو محمد عبد الله، **سنن الدارمي**، جمعَ جوامعِ الأحاديثِ والأسانيدِ وَمَكْنِزَ الصحاحِ والسننِ والمسانيدِ، جمعية المكنز الإسلامي.
11. الملا القاري، علي بن محمد، **الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة**، تحقيق وتعليق وشرح: محمد بن لطفي الصبَّاغ، ط 2، (بيروت: المكتب الإسلامي، 1986).
12. مطر، نعمة الله، **فتاوى لاهوتية**، ط 1، (لبنان: جامعة الروح القدس، 1966).
13. طباطبا، محمد بن علي، **الفخري في الآداب السُّلطانية والدول الإسلامية**، د.ط (بيروت: دار صادر، د.ت).

14. النجفي، حسن توفيق، **القاموس الاقتصادي (إنجليزي عربي)**، ط 1، (بغداد: مطبعة الإدارة المحلية، 1977).
15. الغزَّالي، أبو حامد محمد بن محمد، **إحياء علوم الدين**، (ويذيله كتاب "المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار" للعلَّامة الحافِظ العراقي)، (وملحق به "تعريف الأحياء بفضائل الإحياء" للعلَّامة عبد القادر العيدروس باعلوي، "الإملاء عن إشكالات الإحياء" للإمام الغزَّالي)، د.ط، ج 1، ج 2، ج 3، ج 4، ج 5 (القاهرة: دار التوفيقية للتراث، 2015).
16. البار، علي محمد، **العلمانية أصولها وجذورها**، د.ط، (دمشق: دار القلم، 2009).
17. دُغيم، سميح، **موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلامي**، ط 1، ج 1 (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 1998).
18. الدردير، أحمد بن محمد، **شرح الخريدة البهية**، تحقيق وتقديم وتعليق: مصطفى أبو زيد محمود رشوان، ط 1، (القاهرة: دار البصائر: 2010).
19. آربري، آرثر جون، وهوتسما، م. ت.، وأرنولد، توماس ولوكر، وباسيه، رينيه، وهارتمان، ر.، **موجز دائرة المعارف الإسلامية**، إعداد وتحرير نخبة من العلماء بإشراف: إبراهيم زكي خورشيد، أحمد الشنتناوي، عبد الحميد يونس، وترجمة نخبة من أساتذة الجامعات المصرية والعربية، ط 1، ج 26، (الشارقة: مركز الشارقة للإبداع الفكري، 1998).
20. ابن الأثير، أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد، **الكامل في التاريخ**، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، ط 1، ج 3، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1987).
21. Whishaw, Ellen M., & Bernhard, *Arabic Spain: Sidelights on Her History and Art*, (London: Smith, Elder & Co., 15 Waterloo Place, 1912).
22. Bakhsh, S. Khuda, *The Arab Civilisation*, 2nd Edition, (Lahore: Sheikh Muhammad Ashraf, 1943).

**المواقع الإلكترونية**

1- إحسان، شبكة، (موسوعة الحديث الشريف):

https://www.ihsanetwork.org/hadith_noedge.aspx

2- ويكيبيديا، (مدرسية - فلسفة):

https://ar.wikipedia.org/wiki/مدرسية_(فلسفة)

3- يهوه، شهود، (ملكوت الله):

https://www.jw.org/ar//المكتبة/كتب/يعلّم-الكتاب-المقدس/ما-هو-ملكوت-الله

4- المصرية، دار الإفتاء، (عمل المرأة كوكيل للنيابة وتوليها القضاء):

https://www.dar-alifta.org/ar/ViewFatwa.aspx?ID=11962&LangID=1&MuftiType=0



تم بحمد الله ترجمة كتاب:

**THE CULTURAL SIDE OF ISLAM**

الْجَانِبُ الثَّقَافِيُّ فِي الْإِسْلَامِ

رَحِمَ الله مؤلفه وجزاه خير الجزاء

❁❁❁